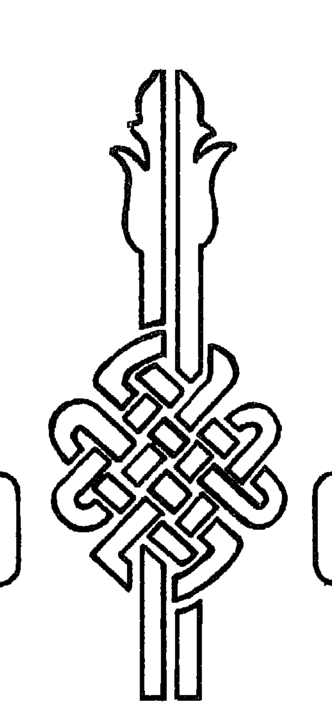




الدكتور محمد مصطفى هدارة
رئيس قسم اللغة العربية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

في البلاغة العربية

علم البيان

دار العلوم العربية
بيروت - لبنان



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في البلاغة العربية

علم البيان



في البلاغة العربية

علم البيان

الدكتور محمد مصطفى هدارة



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ ١٩٨٩م

الناشر
دار العلوم العربية
للطباعة والنشر
مقابل جامعة بيروت العربية
بناية عنان
هاتف: ٣٠٧١٧٣
ص.ب: ٩٥٣٥ - ١١
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وبعد ،
فهذا كتاب في علم البيان وهو أحد علوم البلاغة العربية وأشدها اتحاداً بمباحث النقد الأدبي وأقربها إلى الأصول الفنية التي تعتمد على التذوق الجمالي .

وإذا كانت قيمة ما يكتب أو يقال ترجع إلى ما يفيده من معنىً ، فهذا المعنى لا تتضح معالم قيمته إلّا من خلال صياغته التعبيرية . والمعنى الذي كان موضع اهتمام النقاد والبلاغين العرب في كل العصور هو ما يعبر عنه النقد الحديث بكلمة (المضمون) أما صياغته التعبيرية فهي التي تعبر عنها كلمة (الشكل) . وما من شك في اتحاد الشكل والمضمون اتحاد الجسم والروح . فالمعنىٰ شيء مبهم في نفس من يريد التعبير عنه حتى يهتدي إلى الصياغة التي تتوالىٰ فيها الألفاظ بترتيب معين وعلاقات حميمة ونسق من التصوير ، ليصير لهذا المعنىٰ وجود حقيقي ينفذ إلى عقل من يسمعه أو يقرؤه وإلى وجدانه معاً .

وإذا عرفنا البلاغة بعلومها الثلاثة : المعاني والبيان والبديع تعريفاً أولياً قلنا إنها تتناول صياغة المعاني والتعبير عنها تعبيراً فنياً جميلاً . وعلم البيان

موضوعة الصور الخيالية المبتدعة في صياغة المعنىٰ للتعبير عنه ، وفي هذه الصور تعقد صلة بين أمرين قد لا تكون بينهما في الواقع أية صلة ، وهذه الصور تتمثل في خيال المنشيء مرتبطة بثقافته ورؤاه وتجاربه .

ولما كانت (البلاغة) مشتقة من مادة (بلغ) التي تعني الوصول إلى الغاية ، كان هدفها إيصال المعنىٰ واضحاً كاملاً إلى ذهن القارىء أو السامع . والعبارة الجميلة في الشعر أو النثر العاليين تحدث للسامع أو القارىء هزة سرور أو إعجاب أو روعة ، تلك الروعة هي التي تجعلنا نصف الأثر الأدبي بصفة الجمال . ولو سألنا أنفسنا ما مصدر هذه الروعة أو الإعجاب أو السرور لقلنا في أغلب الظن إن الشاعر أو الكاتب أو الخطيب عبر عما في نفوسنا أدق تعبير وأكمله ، كأنما كان في نفوسنا معنىٰ طائر مبهم فجاء هذا المنشىء الذي شعر بمثل ما أحسسناه وإن تميز بمزيد من رهافة الشعور والقدرة اللغوية والتذوق الجمالي فأداه أداء لا يتيسر للإنسان العادي ، على أن إيصال المعنى كاملاً إلى ذهن القارىء أو السامع ووجدانه مطلب عسير ، فأي عبقري لا يبقىٰ بعض معانيه غامضاً أو مضطرباً ، وبعض ألفاظه قلقاً أو نابياً ، لا جرم تتفاوت درجات البلاغة ، ولكنها تظل بعيدة عن الكمال المطلق الذي تحاول البلاغة أن ترسم في قواعدها وسائل الوصول إليه .

وقد يقال إن الكتابة العلمية تستحق الوصف بالبلاغة أيضاً إذا عبر الكاتب عن معناه بعبارة واضحة خالية من اللبس ، فإنه بذلك يكون قد أجاز التعبير عن المعنى ، ولكننا نربط البلاغة عادة بالجمال الأدبي ، حيث تكون للعبارة أنواع من التأثير تتجاوز المعنى البسيط الذي يمكن أن تعبر عنه اللغة العلمية . ومن هذا التأثير استحضار الصور البعيدة وربط المعاني المجردة بالمحسوسات وهذا هو موضوع علم البيان .

ومن المسلم به أن الكتابة الأدبية لا تحاول أن تتقصى وصف الموجودات الخارجية في الواقع استقصاء حقيقياً ولا علمياً، ولا تلتزم بالنقل

من الواقع نقلاً صرفياً ، ويمكن القول بأن للشاعر أو الكاتب أن يخالف الواقع لينقل إلى القارىء معنى خاصاً يجول في نفسه ولكنه إذا انحرف عن الواقع دون أن يقصد إلى معنى معين بهذا الانحراف فذلك خطأ ينبغي أن يحاسبه عليه النقاد . وما أسلوب الاستعارة وهو واحد من أساليب علم البيان إلا نوع من مخالفة الواقع لأنه ينقل الأسم عن معناه الحقيقي ، ولكن الشاعر إذا نقل الأسم عن معناه دون قصد إلى الاستعارة كان مخطئاً ، ولذلك عيب على الشاعر قوله :

وقد أتناسىٰ الهمَّ عند احتضاره   بناجٍ عليه الصَّيعَرِيَّة مُكْدَمِ

فقال ناقده : استنوق الجمل ، أي صار الجمل ناقة ، لأن الصَّيعرية سمة تكون في النوق ولا تكون في الجمال .

وعيب على الشاعر الإنجليزي شكسبير قوله على لسان إحدىٰ الشخصيات في مسرحية من مسرحياته التاريخية : انطلق كالرصاصة ، مع أن التشبيه في ذاته صحيح ومعبر عن معنى السرعة الهائلة ، لكن الخطأ وقع باعتبار أن البارود لم يكن قد اخترع في العصر الذي تدور فيه أحداث المسرحية .

والأدب قبل كل شيء تعبير عن شعور ، وسواء أعبر الشاعر أو الناشر عن هذا الشعور تعبيراً مباشراً ، أم تكلم من خلال شخصيات يستوحيها من الواقع المعاصر تارة ومن التاريخ تارة أخرىٰ فإنه يثير إعجابنا ببصيرته النفاذة التي تكشف عن خفايا النفوس البشرية في أطوارها المختلفة وطباعها المتباينة ، فحين نقرأ بيت المتنبي مثلاً :

مُنىً كُنَّ لي أن البياض خِضابُ   فَيَخْفَى بتبييض القُرون شبابُ

نراه قد كشف في ومضة من ومضات الخيال عن رغبتين من الرغبات الدفينة في النفس الإنسانية : رغبة الشاب في أن يبدو كبير السن فهو يتشبه

بالكبار ، وحسرة الشيخ على ما مضىٰ من شبابه فهو يتشبث بـه ما استـطاع ، فـإذا كان الشيـخ يخضب شعره بـالسواد ليبـدو شابـاً ، فـإن الشـاب يتمنىٰ لـو استطاع أن يخضب شعره بالبياض ليخفي شبابه .

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أبرز القواعد البلاغية كما تثبت في كتب التراث البلاغي ، ولكنني في الـوقت ذاته أردت تحـريرهـا من جمودهـا وثبات أمثلتها والتخفف من التقسيمات والتفريعات مـا أمكنني ذلك ، وربـطها بـالنقد الأدبي ، خاصة أن مواد البيان تتصل اتصالاً وثيقاً بالصورة الفنية . وقد جعلت ذلـك كله في القسم الأول الذي يتحـدث عن نشأة علم البيـان وتطوره ، وعن مـواده وأصولـه وقواعـده ، وفي القسم الثاني الـذي اخترت فيـه نصـوصـاً من التراث البلاغي في علم البيان مرتبة ترتيباً تاريخياً . .

والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب طلابنا في الجامعة والمتخصصين الذين ينشدون التذوق وإدراك أسرار الجمال الفني ، وبالله التوفيق .

القسم الاول

علم البيان : نشأته وتطوره وأقسامه



الفصل الأول
نشأة علم البيان وتطور مباحثه

ارتبطت البلاغة بالنقد في النشأة الأولىٰ حين كانت تُعقد الموازنات بين الشعراء ويتم تفضيل بعضهم على بعض . وكانت أسواق العرب ـ لا سيما سوق عكاظ ـ تضم ندوات أدبية تنشر فيها الأشعار وتلقىٰ الأحكام الأدبية المطلقة التي تخلو من التحليل والتعليل .

وكان طبيعياً أن يؤثر الإسلام تأثيراً قوياً في نشأة العلوم البلاغية ، وأن يلفت إعجازه النظر في أسباب هذا الإعجاز ، وقد وجدت أقوال تذهب إلى أن إعجاز القرآن يرجع إلى ما فيه من أخبار عن المغيبات كقوله تعالىٰ : ﴿ ألم ، غُلبت الرومُ في أدنىٰ الأرض وهم من بعد غلبهم سيغْلبون في بضع سنين ﴾ ، وهذا النوع من الإعجاز ولا شك ، ولكنه ليس النوع الذي تحدى به القرآن العرب ، فقد تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله ، ولم يرد الإخبار عن المغيبات في جميع سور القرآن ، هذا إلى جانب أن التحدي إنما يكون في أمر يظنون أنهم قادرون عليه ، وما كان شعراؤهم وخطباؤهم يدعون علم الغيب ، إنما كانوا يدعون القدرة على صوغ الكلام البليغ ، ومن ثمَّ فقد غلب الرأي القائل بأن إعجاز القرآن يرجع إلى بلاغته .

وكان العرب الأقحاح في أولية الإسلام يدركون بسلائقهم السليمة أن

القرآن الكريم أُنزل بلسان عربي مبين ، وأنه لا يشاكل شيئاً من كلام فصحاء العرب المشهود لهم بالبيان أما الموالي والمولدون فكانوا بحاجة إلى من يبين لهم أمرين : الأول أن القرآن الكريم يجري على قواعد العرب في لغتها ، والثاني أنه يتميز بنهج خاص في استعمال هذه اللغة وفي التعبير عن المعاني التي يتضمنها ، وهذا سر إعجازه . وقد ظهرت كتب في هذه المرحلة تحاول جلاء الأمرين معاً ، فهي تتناول (غريب القرآن) و(مشكل القرآن) و(إعراب القرآن) . ومن أوائل الكتب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنىٰ المتوفى سنة ٢١٠ هـ ، وكان من أئمة علماء اللغة والأدب في البصرة . وينبغي أن نلاحظ أن كلمة (مجاز) في هذا العنوان لا تعني بالضبط ما أصبحت تعنيه بعد ذلك في علم البيان ، فأبو عبيدة يستعمل كلمة المجاز في مقدمة الكتاب بمعنى (طريقة التعبير) فيقول مثلاً : ومن مجاز ما حُذِفَ فيه وهو مضمر . .) و« من مجاز ما كُفَّ عن خبره استغناء عنه وفيه ضمير . . » و« من مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه الى مخاطبة الغائب . . . » فكلمة (مجاز) في هذه المواضع تدل على ما تدل عليه اليوم كلمة (أسلوب). وبعد المقدمة يأتي تفسير المواضع المشكلة من السور على ترتيبها في المصحف الشريف : وهنا نجد كلمة (مجاز) مساوية لكلمة (معنى) مرة ولكلمة (تفسير) مرة أخرىٰ ، فمن الأول قوله في تفسير أول آية من سورة يونس ﴿ **تلكَ آيات الكتاب الحكيم** ﴾ مجازها : هذه آيات الكتاب الحكيم أي القرآن ، والحكيم مجازه المحْكم المُبين الموضح ، والعرب قد تضع (فعيل) في معنىٰ (مفعل). وفي آية أخرىٰ :هذا ما لدي عتيد ، مجازه : تُعدّ .

ومن الثاني ما جاء في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ **عَمُوا وصمُّوا كثير منهم** ﴾ مجازه على وجهين : أحدهما أن بعض العرب يظهرون كناية الاسم مع إظهار الاسم الذي بعد الفعل كقول أبي عمرو الهذلي : أكلوني البراغيث ،

والموضع الآخر أنه مستأنف لأنه يتم الكلام إذا قلت : عموا وصمُّوا ، ثم سكت ، فتستأنف فتقول : كثير منهم .

والمجاز في استعمال أبي عبيدة يمكن ـ على ما قدمنا من أمثلة ـ أن يشمل جميع الأساليب البلاغية ، ولكنه في الواقع يشير إشارات مجملة إلى بعض منها نقلاً كالحذف والمجاز المرسل (دون أن يسميه بهذا الاسم) وخروج الاستفهام عن معناه إلى معنى التقرير .

وكلمة البيان في أصل معناها اللغوي تدل على الوضوح والإبانة سواء في القول الملفوظ أم المكتوب ، أو الإشارة أو الهيئة التي يبدو عليها الشيء ، وهذا ما يطلق عليه (دلالة الحال) وهذا المفهوم هو الذي أسس عليه الجاحظ (توفي سنة ٢٥٥ هـ) تقسيمه لأنواع البيان . وقد ظل مصطلح (البيان) لفترة طويلة من الزمان متسعاً لمعان كثيرة ، منها الإعراب عما في النفس من خواطر وأفكار ومنها مضاهاة معنى الفصاحة والبلاغة في جمال التعبير وتمام الدلالة .

ثم تطور البحث البلاغي فأصبح (البيان) علماً من علوم البلاغة ، ولكنه لم يصر كذلك إلاَّ بعد أن قدم البلاغيون الأوائل جهوداً عظيمة لتفسير أركان هذا العلم . فالجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) قد أورد الكثير من التشبيهات والاستعارات ، وفطن إلى تقسيم اللفظ إلى حقيقة و مجاز، وتحدث عن الكناية ، ولكنه أورد ذلك كله على سبيل الإدراك التذوقي ولم يضع حدوداً وتعريفات لهذه الأبواب البيانية . وكان في كلامه قدر كبير من التعميم فالمجاز عنده ضد الحقيقة وهو يشمل التشبيه والاستعارة بل يضاف إليها الكناية التي استخرجها من كلام الرسول صلّى الله عليه وسلم . بل نفهم من بعض أقواله أن المجاز قد يشمل التعبير الأدبي كله ، حتى ما يدخل بعد ذلك في علم البديع وهو ما يسماه اللغز في الجواب وهو نفسه الذي اصطلح على تسميته بأسلوب الحكيم ، وما يدخل أيضاً في علم المعاني وهو إيجاز

القصر والحذف ، وأساليب الخبر والإنشاء .

وحين عرض الجاحظ للتشبيه نراه لا يستقر على مدلـول واحد لـه ، فهو أحياناً البدل أو المثل أو التشبيه وقد يعني بالبدل الاشتراك بين المشبه والمشبـه به أو المقارنة والمشاكلة بينهما . والتمثيل هو نوع من التشبيه وإن كان التشبيـه عـاماً والتمثيل أخص منه بحيث يمكن القـول بأن كـل تمثيـل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً . ويربط الجاحظ بين التشبيه والاستعارة وهي عنـده تسمية الشيء بـاسم غيره إذا قـام مقامـه ، والاستعارة بـذلك تختلط عنـد الجاحظ بـالتشبيـه والتمثيل وقد أدرك البـاحثون من كتـابات الجـاحظ أنه تنبـه إلى طرفي التشبيـه ووجـه الشبه ، وإلى مـا في التشبيه من تـأثيـر وجـداني ، وأنـه عـرف التشبيـه المقلوب وأن وجه الشبه يكون في أظهر الصفـات في المشبه بـه ، وأنه عـرف من أدوات التشبيه الكاف وكأن ومثل وغيـرها ، وأدرك اختـلاف طرفي التشبيـه بـأن يكون أحـدهما حسيـاً والآخر عقليـاً ، كما أنـه في تفسيـره لقـولـه تعـالىٰ ﴿ طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ قـد فهم بأن المشبـه به قـد يكون وهميـاً لا يدرك بشيء من الحواس الظاهرة .

وقد عرض الجاحظ لألوان من التشبيهات في أحاديث الرسول صلّى الله عليه وسلم في مثل قوله (الناس كلهم سواء كأسنان المشط) وقابله بما وجـده عند الشعراء ، كذلك أورد تشبيهات مستمدة من الهيئة أو الحرفة ، أو مجتمعة في بيت كقول امرىء القيس :

لـه أيـطلاً ظبي وسـاقـا نعـامـة   وإرخـاء سـرحـان وتقـريب تتفـل

ونص على تشبيه شيئين بشيئين كما في قول امرىء القيس :

كـأن قلوب الـطيـر رطبـاً ويـابسـاً   لدىٰ وكرها العناب والحشف البـالي

ولمـح التشبيه البليـغ الذي حـذفت منـه الأداة ووجـه الشبـه ، والتشبيـه التمثيلي .

ولا شك أن كتابات الجاحظ في وجوه البيان كانت رائدة في البلاغة العربية لكل من جاء بعده واستمد منه ، وبني على ما أسس ، ونلاحظ أن ابن قتيبة المتوفي سنة ٢٧٦ هـ قد عرض في كتبه المختلفة وخاصة (تأويل مشكل القرآن) لموضوعات في علم البيان كالحقيقة والمجاز والتشبيه والاستعارة والكناية وقد استفاد من كتابات الجاحظ على الرغم من اختلافهما المذهبي ، فالجاحظ معتزلي وابن قتيبة سني . فابن قتيبة في تعريفه المجاز مقارب لتصور الجاحظ فهو يقول في (تأويل مشكل القرآن) « وللعرب المجازات في الكلام ، ومعناها طرق القول ومآخذه ، ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار ، والتعريض ، والإفصاح ، والكناية والإيضاح ، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ، والجميع خطاب الواحد ، والواحد والجميع خطاب الاثنين ، والقصد بلفظ الخصوص لمعنىٰ العموم ، وبلفظ العموم لمعنىٰ الخصوص ، مع أشياء كثيرة » ويستفاد من ذلك أنه فهم كالجاحظ أن المجاز معناه طرق التعبير الأدبي على وجه العموم .

وواضح أيضاً أنه استفاد من تفرقة الجاحظ بين الحقيقة والمجاز فهو يقول (وقد ذهب قوم في قول الله وكلامه إلى أنه ليس قولاً ولا كلاماً على الحقيقة ، وإنما هو إيجاد للمعاني ، وصرفوه في كثير من القرآن إلى المجاز ». ولكن ابن قتيبة لم يتعمق في فهم المجاز ولا كيفية اختلافه عن الحقيقة في التعبير الأدبي ، ولهذا فسر الشياطين في الآية بأنها الحيات .

ثم جاء أبو العباس المبرد المتوفي سنة ٢٨٥ هـ فأورد في كتابه (الكامل) مسائل مهمة في علم البيان وقد عرض نماذج رفيعة من الشعر والنثر ، حللها وشرح ما فيها من موضوعات البيان كالمجاز والتشبيه والاستعارة والكناية ، وقد حدد في بعض المواقف مدلول هذه المصطلحات ، فالكناية

تؤدي أغراضاً ثلاثة: للتعمية والتغطية، للرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره ، للتفخيم والتعظيم . أما التشبيه فقد قسمه أربعة أقسام : مفرط ، ومصيب ، ومقارب ، وبعيد ، وساق في كل قسم أمثلة كثيرة .

وقد انتقد بعض الباحثين المحدثين[1] المبرد لاستحسانه التشبيهات المأثورة عن الجاهلين استحساناً مطلقاً ، بينا حمل على تشبيهات المحدثين دون تعليل لأحكامه في الاستحسان أو الاستهجان ، فحين أورد أبياتاً لأبي نواس في صفة الخمر قال (هذه قطعة من التشبيه غاية على سخف كلام المحدثين) ولكن هذا القول ليس صحيحاً فالمبرد لم يتعصب قط لتشبيهات القدماء دون المحدثين ، وكان موقفه من أبي نواس موقفاً نقدياً صحيحاً يقول (ومما يستحسن من شعره قوله :

لا أذود الطير عن شجر   قد بلوت المر من ثمره

ومثل هذا لو تقدم لكان في صدور الأمثال) .

ويقول في موضع آخر : « ومن أكثرهم تشبيهاً لاتساعه في القول وكثرة تفننه واتساع مذاهبه الحسن بن هانيء » .

وهو يعدد في مواضع كثيرة التشبيهات الجيدة لأبي نواس ، من ذلك قوله : « ومن تشبيهه الجيد . قوله :

ترى الناس أفواجاً إلى باب داره   كأنّهم رجْلاً دَباً وجراد
فيوم لإلحاق الفقير بذي الغنى   ويوم رِقابٍ بوكرت بحصاد

ومن التشبيه الجيد قوله :

(١) هو الدكتور بدوي طبانة في كتابه (البيان العربي ص ٢٣٠) .

فكـأني بمـا أُزيِّن منهـا قَعَـدِيٌّ يُـزيِّن التحكيمـا

فهذا المعنى لم يسبقه إليه أحد ».

ويعرف المبرد الاستعارة حين يقول بيت الراعي :

يـا نُعْمَهـا ليلةٌ حتى تخـوَّنهـا داعٍ دعا في فروع الصُّبح شَحَّاجِ

وقـوله (شحـاج) إنما هـو استعـارة في شـدة الصـوت وأصله للبغـل ، والعرب تستعير من بعض لبعض ، قال العجاج ينعت حماراً :

كـأن في فيـه إذا مـا شَحَجـا عُـوداً دُوَيْنَ اللَّهَـواتِ مُـولَجـا

أما التشبيه فقد أكثر المبرد في إيضاحه وتعريفه فهو يقول (والتشبيه جارٍ كثيرٌ في الكلام أعني كلام العرب ، حتى لو قال قـائل : هـو أكثر كـلامهم لم يُبْعِدِ ، قال الله عز وجل ﴿ **الزجاجة كأنها كوكبٌ دُرِّيٌّ** ﴾ وقال : ﴿ **طَلْعُها كأنه رؤوسُ الشَّياطين** ﴾ وقد اعترض معترض من الجهلة الملحدين في هذه الآية فقال : إنما يمثِّل الغائب بالحاضر ، ورؤوس الشياطين لم نـرها ، فكيف يقـع التمثيل ، فهؤلاء في هذا القول كما قـال الله جل وعـز : ﴿ **بل كـذَّبوا بمـا لم يُحيطوا بعلمه ولمَّا يأتهم تأويله** ﴾، وهذه الآية قد جاء تفسيرها على ضربين : أحـدهمـا أن شجـراً يقـال لـه (الأَسْتَن) منكـر الصـورة يقـال لثمـره (رؤوس الشياطين) وهو الـذي ذكره النـابغة في قـوله (تحيـدُ عن أَسْتَنٍ سُودٍ أسـافِلُهُ) وزعم الأصمعي أن هـذا الشجر يسمىٰ (الصَّـوْم) والقـول الآخـر وهـو الـذي يسبق إلى القلب ـ أن الله جـل ذكره شنَّـع صورة الشيـاطين في قلوب العباد ، فكان ذلك أبلغ من المعاينة ، ثم مثَّل هذه الشجرة بما تنفر منه كل نفس ».

وفي تحليل المبرد لأنواع التشبيه ما يدل على ذوقـه الأدبي الرفيـع وعدم استمساكه بالمصطلحات في تقسيم جامد فالتشبيه المفرط في رأيه مثل قـولهم للسخي هو كالبحر وللشجاع هو كالأسد ، ثم يروي هذه الحكاية الطريفـة وهو

أن : «امرأة عمران بن حطّان قد قالت له :· أما زعمت أنك لم تكذب في شعر قط ، قال : أو فعلت ، قالت : أنت القائل :

فهناك مَجْزَأة بن ثَوْرٍ كان أشجعَ من أُسامهْ

أفيكون رجل أشجع من الأسد ؟ قال : أنا رأيت مجزأة بن ثور فتح مدينة والأسد لا يفتح مدينة ! ويطلق المبرد أسماء كثيرة على ما يورده من تشبيهات فهناك (التشبيه القاصد الصحيح) وهناك (البعيد الذي لا يقوم بنفسه). و(التشبيه الجامع) و(التشبيه العجيب)، والجيد والحسن والمتجاوز والمحمود والمصيب والمليح والمقارب ، وغير ذلك ، وقد نبه المبرد على تشبيه شيء في حالتين مختلفتين بشيئين مختلفين ، كما أشار إلى أن العرب تختصر التشبيه وربما أومأت إليه إيماءة ومثل له بقول الراجز :

حتى إذا كاد الظلام يختلط جاءوا بِمَذْقٍ هل رأيت الذئب قط

يقول : في لون الذئب ، واللبن إذا جُهِدَ وخُلِط بالمَاء ضرب إلى الغُبْرة .

وكان لأبي الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي المتوفي سنة ٣٢٢ هـ إسهام كبير في تأصيل علم البيان فكتابه (عيار الشعر) استهدف الأصول الغنية للشعر بما يجعله رائعاً رفيع الجمال ، ومن بينها الصفة الفنية التي تعتمد فيما تعتمد على حوار البيان ، فالشاعر في رأيه (يكون كالنساج الحاذق الذي يفوف وشيه بأحسن التفويف . . وكناظم الجوهر الذي يؤلف بين النفيس منها والثمين الرائق). وقد اهتم ابن طباطبا بالتشبيه اهتماماً كبيراً فهو يقول (اعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها وأدركه عيانها ، ومرت به تجاربها وهم أهل وبر ، صحونهم البوادي وسقوفهم السماء ، فليست تعدد أوصافهم ما رأوه منها وفيها ، وفي كل واحدة منها في فصول الزمان على اختلافها ، من شتاء وربيع وصيف

وخريف ، من ماء وهواء ونار وجبل ، ونبات وحيوان وجماد ، وناطق وصامت ، ومتحرك وساكن ، وكل متولد من وقت نشوئه ، وفي حال نموه إلى حال انتهائه . فتضمنت أشعارها من التشبيهات ما أدركه من ذلك كيانها وحسها إلى ما في طبائعها وأنفسها من محمود الأخلاق ومذمومها ، في رخائها وشدتها، ورضائها وغضبها ، وفرحها وغمها ، وأمنها وخوفها ، وصحتها وسقمها ، والحالات المتصرفة في خَلْقها وخُلُقها ، من حال الطفولة إلى حال الهرم ، وفي حال الحياة إلى حال الموت . فشبهت الشيء بمثله تشبيهاً صادقاً على ما ذهبت إليه في معانيها التي أرادتها . فإذا تأملت أشعارها وفتشت جميع تشبيهاتها وجدتها على ضروب مختلفة تنفرج أنواعها ، فبعضها أمن من بعض ، وبعضها ألطف من بعض ، فأحسن التشبيهات ما إذا عُكس لم ينتقض ، بل يكون كل ما شبه بصاحبه مثل صاحبه ، ويكون صاحبه مثله مشتبهاً به صورة ومعنىٰ . وربما أشبه الشيء الشيء صورة وخالفه معنى ، وربما أشبهه معنىٰ وخالفه صورة ، وربما قاربه ، أو داناه أو شامه وأشبهه مجازاً لا حقيقة) .

وفي موضع آخر من الكتاب يحدد ابن طباطبا أقسام التشبيه فيرى أنها : تشبيه الشيء بشيء صورة وهيئة ، وتشبيهه به معنى ، وتشبيهه به في الحركة والبطء والسرعة . وتشبيهه به صوتاً .

ونلاحظ أن ابن طباطبا يحاول استخراج حالات وجه الشبه وإيجاد وجوه التطابق بين المشبه والمشبه به في الهيئة أو الحركة أو الصوت ، وواضح أنه يؤمن بأن التشبيه خاضع لأثر البيئة وأن حسنه قد ينبع من صدق نظرة الشاعر، فمن التشبيه الصادق قول امرىء القيس :

نظرت إليها والنجومُ كأنها   مصابيحُ رُهْبانٍ تُشَبُّ لِقُفالِ

فشبه النجوم بمصابيح رهبان لفرط ضيائها وتعهد الرهبان لمصابيحهم

وقيامهم عليها تزهر إلى الصبح ، فكذلك النجوم زاهرة طول الليل وتتضاءل للصباح كتضائل المصابيح له. وقال تُشب لقفال لأن أحياء العرب في البادية إذا قفلت إلى مواضعها التي تأوي إليها من مصيف إلى مشتىً، ومن مشتى إلى مربع أوقدت نيراناً على قدر كثرة منازلها وقلتها ليهتدوا بها ، فشبه النجوم ومواقعها من السماء بتفرق تلك النيران واجتماعها في مكان بعد مكان على حسب منازل القفال من أحياء العرب ، ويهتدي بالنجوم كما يهتدي القفال بالنيران الموقدة لهم .

وقد أسهم الآمدي المتوفي سنة ٣٧١ هـ بكتابه (الموازنة بين الطائيين) في تأصيل علم البيان ونجاحه عندما فصل القول في الاستعارة القبيح منها والحسن عند أبي تمام والبحتري وقد أخذ على أبي تمام غلوه وإغراقه في استعاراته التي لا تتفق مع مذهب العرب في الكلام فمن ذلك قول أبي تمام :

يا دهر قوِّم من أَخْدَعَيْك فقد ... أَضْجَجْتَ هذا الأنام من خَرَقِكْ

وقوله :

فضربت الشتاء في أخدعيه ... ضَربةً غادرتْه عَوداً ركوباً

وقوله:

تروح علينا كل يوم وتغتدي ... خَطوبٌ كأن الدهر منهن يصرع

وقوله :

ألا لا يمدُّ الدهر كفاً بسيء ... إلى مُجْتدِي نَصْرٍ فتُقطع للزَنْد

وقوله :

تحمَّلتُ ما لو حُمِّل الدهرُ شطره ... لفكَّر دهراً أي عبئيه أثقل

وقوله :

جذبت نداه غدوةَ السبت جَذْبةً ... فخرَّ صريعاً بين أيدي القصائد

وقوله:

لـدى ملك من أَيْكَـة الجـودِ لم يزل … على كَبِـد المعـروف من فِعْله بـرد

وقوله :

أنـزلتـه الأيـام عن ظهـرهـا من … بعـد إثبـات رِجْلِه في الـرِّكـاب

وقوله :

كـأنني حين جـردت الـرجـاء لـه … غضـاً صَبَبْتُ به مـاءً على الـزمن

وأشباه هذا مما إذا تتبعته في شعـره وجدتـه ، فجعل ـ كمـا ترى ـ مـع غثاثة الألفاظ ـ للدهر أخـدعاً ويـداً تنقطع من الـزند ، وكـأنه يصـرع ، وجعله يشـرق بالكـرام ويفكر ويبسم ، وأن الأيـام بنون لـه ، والزمـان أبلق ، وجعـل للمدح يداً ، ولقصائده مـزامر ، إلاَّ أنهـا لا تنفخ ولا تـزمر . . وجعـل للأيـام ظهراً يركب ، والليالي كأنها عوارك ، والزمان كـأنه صب عليه ماء ، والفـرس كأنه ابن الصبـاح الأبلق ، وهذه استعـارات في غايـة القبح والهجـانة والغثـاثة والبعد عن الصواب .

ومما عيب به أبن تمام من الاستعارات وليس بعيب عنده قوله :

لا تـسقـني مــاء الـمــلام فــإنـني … صَبٌّ قــد استعــذبت مــاء بكــائي

فقد عيب وليس بعيب عندي لأنه لما أراد أن يقـول : قد استعذبت ماء بكـائي ، جعل للمـلام ماء ليقـابل مـاء بمـاء ، وإن لم يكن للمـلام مـاء على الحقيقة ، كما قال الله عز وجل (وجزاء سيئـة سيئة مثلهـا) ومعلوم أن الثانيـة ليست بسيئة ، وإنما هي جزاء عن السيئة، وكذلك (إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم) والفعـل الثاني ليس بسخـريـة ، ومثـل هـذا في الشعـر والكـلام كثيـر مستعمـل ، فلمـا كـان في مجـرىٰ العـادة أن يقـول القـائـل : أغلظت لفـلان القول ، وجرعته منه كأساً مرة ، وسقيته منه أمرَّ من العلقم ، وكان الملام ممـا يستعمل فيه التجرع على الاستعارة ، جعل له ماء على الاستعارة ، ومثـل هذا كثير موجود ولا شك أننا تختلف مع الآمدي في نظرته إلى استعارات أبي تمام

ولكنه كان مقيداً بمذهب العرب في استعاراتهم فهو يقول في وصف هذا المذهب : (وإنما استعارت العرب المعنى لما ليس له ، إذا كان يقاربه ، أو يناسبه ، أو يشبهه في بعض أحواله ، أو كان سبباً من أسبابه ، فتكون اللفظة المستعارة حينئذٍ لائقة بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه نحو قول امرىء القيس :

فقلت لـه لمـا تمـطىٰ بصلبـه وأردف أعجـازاً ونـاء بكـلكـل

وقد عاب امرأ القيس بهذا البيت من لم يعرف موضوعات المعاني والاستعارات ولا المجازات ، وهو في غاية الحسن والجودة والصحة ، لأنه قصد وصف أحوال الليل الطويل فذكر امتداد وسطه ، وتثاقل صدره للذهاب والانبعاث ، وترادف أعجازه وأواخره شيئاً فشيئاً ، وهذا عندي منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئته ، وذلك أشد ما يكون على من يراعيه ويترقب تصرُّفه ، فلما جعل له وسطاً يمتد وأعجازاً مرادفة للوسط ، وصدراً متثاقلاً في نهوضه ، حسن أن يستعير للوسط اسم الصلب ، وجعله مُتمطِّياً من أجل امتداده ، لأنه تمطّىٰ وتمدَّد بمنزلة واحدة ، وصلح أن يستعير للصدر اسم الكلكل من أجل نهوضه . وهذه أقرب الاستعارات من الحقيقة لشدة ملاءمة معناها لمعنىٰ ما استعيرت له) .

وممن كان له إسهام في تأصيل علم البيان على بن عيسى الرماني المتوفي سنة ٣٨٦ هـ إذ نجده في كتابه (النكت في إعجاز القرآن) يقسم البلاغة أقساماً عشرة منها ما يتصل بالبيان كالتشبيه والاستعارة ، وهو يعرف [illegible] بأنه عقد أو مشاركة حسية أو معنوية موضحاً الفروق بينهما ويتكلم من الأدوات التي تعقد ـ في رأيه ـ بين المشبه والمشبه به ، أما التشبيه بغير أداة فهو [illegible] النفس ، ونراه بعد ذلك يجعل التشبيه على مراتب . تشبيه شيئين [illegible] أحدهما ، وتشبيه شيئين [illegible] معنى يجمعهما والتشبيه البليغ

إخـراج للغامض إلى الـظاهر . ويـرىٰ أن الصفة تغلب على المشبـه به لـذلك انتزع منها وجـه الشبه لتـوضيح المعنىٰ المـراد التعبير عنـه ، وتلك الصفة أي وجـه الشبه إمـا أن تكون ممـا يقع عليـه الحس ، أو جرت بـه العادة ، وهـذه الأمور كلها مما يقوي الصفة ، وهناك مواطن يُحتاج فيهـا إلى التشبيه لتـوضيح المعدوم وهو مـا لا يقع في دائـرة المحسوس ، لـذلك يخـرج به التشبيـه إلى الحس ليصوره للذهن فيتم الإدراك ، ومثله التعبير عن شيء لم تجربه العادة ، فهـو غير مـألوف وغـريب كـأنـه معـدوم ، وذلـك كتشبيـه البعث بعـد المـوت بالاستيقاظ من النوم .

فإذا جاء الرماني إلى الاستعارة عرضها بأنها (تعليق العبارة على غيـر ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة) ثم أوضح الفرق بينها وبين التشبيـه في خلوهـا من الأداة وأنهـا تقـوم على أركـان ثـلاثـة : المستعـار ، والمستعار منه والمستعار له . وقد حلل بعض الآيات القـرآنية ليشـرح ما فيهـا من استعارات جميلة مدركاً الأثر النفسي الذي ترثه . يقول : قـال الله تعالىٰ : ﴿ **وقدمنا إلى مـا عملوا من عمل فجعلنـاه هباء منثـوراً** ﴾ حقيقة (قـدمنا) هنـا (عمدنا) . وقدمنا أبلغ منه لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القـادم من سفر ، لأنـه من إمهالـه لهم كمعاملة الغـائب عنهم ، ثم قدم فـرآهم على خـلاف من أمـرهم . وفي هذا تحـذير من الاغتـرار بالأفهـام . والمعنى الـذي يجمعهمـا العدل لأن العمد لإبـطال الفاسـد عدل ، والقـدوم إلى إبطال الفـاسد عـدل ، والقـدوم أبلغ لما بينـا ، وأما هبـاء منثوراً فبيـان ما قـد أخرج مـا لا تقع عليـه الحاسة إلى ما تقع عليه) .

وفي كتـاب القاضي علي بن العـزيز الجـرجاني المتـوفي سنـة ٣٩٢ هـ (الوساطة بين المتنبي وخصومه) توسع في شرح الفرق بين الاستعارة والتشبيه البليغ ، وهو لا يزال يستخدم (البـديع) بمعنى التعبيـر الفني الجميل فيجعـل

الاستعارة والتشبيه منه ، وهو يـرىٰ أن الاستعارة (أحـد أعمدة الكـلام وعليها المعـول في التوسـع والتصرف وبهـا يتوصـل إلى تزيين اللفظ وتحسين النـظم والنثر) .

والاستعارة عنده إما حسنة أو قبيحة ومرد الحكم على ذلك قبول النفس أو نفورها ، وهو بذلك لا يضع قواعد لجودة الاستعارة أو رداءتها وإنما يترك ذلك للتذوق والانطباع النفسي .

ولا شـك أن جهد أبي هـلال العسكري المتـوفي سنـة ٣٩٥ هـ في علم البيـان يفوق من سبقـه ممن عرضنـا بحوثهم ، فهـو في كتـابـه (الصنـاعتين) يصرح برغبته في الكشف عن الحدود والأقسام لوجـوه البيان كمـا أشار إليهـا الجـاحظ من قبل . أمـا فيما يخص علم البيـان فقد خـاض في مـوضـوعـاتـه فتحدث عن حد التشبيـه ووجوهـه المختلفة وأجـود التشبيه عنـده ما يقـع على أربعة أوجه : إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى مـا تقع عليـه ، إخراج مـا لـم تجربه العادة إلى ما جرت به العادة ، إخراج ما لا يعرف بالبديهة إلى ما يعرف بها ، إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها . ثم تحدث عن أدوات التشبيه محللاً نماذج من القـرآن الكريم ومن الشعـر المنثور . ثم تحـدث عن التشبيه القبيح وساق بعض النماذج له .

وعقـد فصلاً لـلاستعـارة فتحـدث فيـه عن الغـرض منهـا ، والاستعـارة المصيبة ، وفضل الاستعـارة على الحقيقة لأنهـا تفعل في نفس السـامع مـا لا تفعـل الحقيقة . ولابـد لكل استعـارة ومجاز من حقيقـة ، وهي أصل الـدلالة على المعنى في اللغــة ، كمـا لابــد أيضـاً من معنى مشتــرك بين المستعـار والمستعار منه . والاستعارة أبلغ من الحقيقة لأنها إخراج ما لا يُرىٰ . وقد قدم أبو هلال نماذج للاستعارات من كلام القدماء والمحدثين .

ووضع أبو هلال العسكري الكناية ضمن فنون البديع ، وعقد لها فصلاً عرف بها فيه وأورد نماذج منها للجيد منها والرديء .

ونجد من علماء البلاغة الذين أسهموا في تطور علم البيان ابن رشيق القيرواني المتوفي سنة ٤٦٣ هـ وذلك في كتابه (العمدة) وقد تكلم عن المجاز وكثرته في كلام العرب وهم يعدونه من مفاخر كلامهم ودليل الفصاحة ورأس البلاغة ، وهو يرى أن المجاز أبلغ من الحقيقة وأحسن موقعاً في القلوب والأسماع . ويهتم ابن رشيق في التشبيه بمراعاة ذوق العصر ، يقول « وقد أتت القدماء بتشبيهات رغب المولدون ـ إلاَّ القليل ـ عن مثلها استبشاعاً لها ، وإن كانت بديعة في ذاتها مثل قول امرىء القيس :

وتعطو برخص غير شثن كأنه   أساريع ظبي أمر مساويك إسحل

فالبنانة لا محالة شبيهة بالأسروعة وهي دودة تكون في الرمل، وتسمىٰ جماعتها بنات النقا . . فهي كأحسن البنان ليناً وبياضاً ، وطولاً واستواء ، ودقة وحمرة رأس ، كأنه ظفر قد أصابه الحفاء، وربما كان رأسها أسود ، إلاَّ أن نفس الحضري المولد إذا سمعت قول أبي نواس في صفة الكأس :

تعاطيكها كف كأن بنانها   إذا اعترضتها العين صف مداري

أو قول عليّ بن العباس الرومي :

أشار بقُضبان من الدرِّ قُمِّعت   يواقيت ممراً فاستباح عفافي

أو قول ابن المعتز :

أَشَرْن على خوف بأغصان فِضَّة   مقدَّمة أثمارهن عقيق

كان ذلك أحب إليها من تشبيه البنان بالدود في بيت امرىء القيس ، وإن كان تشبيهه أشد إصابة . ومن هؤلاء العلماء أيضاً المشاركين في تأصيل علم البيان ابن سنان الخفاجي المتوفي سنة ٤٦٦ هـ ، وقد تناول في كتابه (سر الفصاحة) مباحث في علم البيان ، فقد تحدث عن الفرق بين التشبيه

والاستعارة وناقش العلماء السابقين من أمثال الرماني والآمدي والقاضي الجرجاني في بعض تعريفاتهم أو تحليلاتهم لنماذج من الاستعارة . وقد قسمها قسمين : قريب مختار ، وبعيد مطرح ، فالأول ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوي وشبه واضح . والثاني إما أن يكون لبعده مما استعير له في الأصل ، أو لأجل أنه استعارة مبنية على استعارة فتضعف لذلك .

وتحدث ابن سنان عن التشبيه فقال : (هو أن يقال إن أحد الشيئين مثل الآخر في بعض المعاني والصفات ، ولن يجوز أن يكون أحد الشيئين مثل الآخر من جميع الوجوه ، حتى لا يعقل بينهما تغاير البتة ، لأن هذا لو جاز لكان أحد الشيئين هو الآخر بعينه ، وذلك محال ، وإنما الأحسن في التشبيه أن يكون أحد الشيئين يشبه الآخر في أكثر صفاته ومعانيه ، وبالضد حتى يكون رديء التشبيه ما قل شبهه بالمشبه به) .

ونراه في حديثه عن الكناية يقول إن من حسنها أن يكنىٰ عن الشيء في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح .

ويعد عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ من أهم البلاغيين العرب الذين أسهموا في إرساء قواعد علم البيان في كتابيه (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) وقد تحدث في الكتاب الأول عن أصول علم البيان من حقيقة ومجاز واستعارة وتشبيه ، وتكلم في (دلائل الإعجاز) عن الكناية وعرض أيضاً للاستعارة والمجاز العقلي ، لإثبات أن ما يطبق على العبارات الحقيقية في نظرية (النظم) يطبق على هذه الاستخدامات التخيلية .

وتنبه عبد القاهر في التشبيه إلى الصور المركبة فهو يقول (وجملة القول أنك متى زدت في التشبيه على مراعاة وصف واحد أو جهة واحدة فقد دخلت في التفصيل والتركيب ، وفتحت باب التفاصيل ، ثم تختلف المنازل في الفضل بحسب الصورة في استفادة قوة الاستقصاء أو رضاك بالعفو (دون

الجهد) . ويشير إلى التشبيه المقترن بالحركة في الهيئات قائلاً : « اعلم أن مما يزيد به التشبيه دقة وسحراً أن يجيء في الهيئات التي تقع عليها الحركات ».

وجعل عبد القاهر التشبيه نوعين : الأول أن يكون من جهة أمر بيِّنٌ لا يُحتاج فيه إلى تأويل ، والثاني أن يُحصل بضرب من التأويل . و(التشبيه) يطلق على النوعين ، بينما يطلق (التمثيل) على النوع الثاني ، ولهذا فالتشبيه عام والتمثيل أخص منه ، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً .

ومن الفوائد التي يراها عبد القاهر في الاستعارة الإيجاز لأنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ والإفضاح (لأنك ترى بها الجماد حياً ناطقاً ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخافية بادية جلية)، كذلك تفيد التجسيم فهي (إن شئت أتتك بالمعاني اللطيفة التي هي خبايا العقل كأنها جسمت حتى رأتها العيون) .

ونراه يقسم الاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة حسب ما تؤدي من المعاني . فالاستعارة غير المفيدة كاستعارة اسم شيء لشيء مقابله دون حصول فائدة كاستعارة الشاعر كلمة (مرسن) من أنف الناقة للمرأة في قوله :

وفاحما ومرسنا مسرَّجا

والاستعارة المفيدة تزيد المعنى وضوحاً وعمقاً كقول زهير :

وعرِّي أفراس الصبا ورواحله

يقول عبد القاهر (لا تستطيع أن يثبت ذواتاً أو شبه ذوات للصبا تتناولها الأفراس والرواحل في البيت على حد تناول الأسد الرجل الموصوف بالشجاعة ، والبدر الموصوف بالحسن أو البهاء ، والسحاب المذكور بالسخاء والسماحة ، وليس إلاَّ أنك أردت أن الصبا قد ترك وأهمل ، وفقد نزاع النفس

إليه ، وبطل فصار كالأمر ينصرف عنه فتعطل آلاته ، وتطرح أداته ، وكالجهة من جهات المسير إلى الحج أو الغزو أو التجارة يقضي منها الوطر فتحط عن الخيل التي كانت تركب إليها بعورها ، ويكف عن الإبل التي كانت تحملها قتورها).

ويهتم عبد القاهر اهتماماً كبيراً بأثر الصور البيانية في النفس فهو يقول : (أعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو أبرزت باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورتها الأصلية إلى صورته كساها أبهة ، وأكسبها منقبة ورفع من أقدارها ، وشب من نارها وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً).

والمعاني عنده لا قيمة لها في ذاتها ، بل قيمتها في تصويرها باستخدام الخيال الذي ينقلها من المعقول إلى المحسوس يقول في ذلك : (ان أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفيّ إلى جليّ ، وتأتيها بصريح بعد مكنى ، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، نحو أن تنقلها من العقل إلى الإحساس ، وعما يُعلم بالفكر إلى ما يعلم بالطبع) وهو يضرب مثالاً لتصوير المعاني وأثره في النفس بقول الشاعر :

فأصبحتُ من ليلىٰ الغَداةَ كقابض على الماء خَانَتْه فُروجُ الأصابع

(فهو قد أراك رؤية لا تشك معها ولا ترتاب في أنه بلغ في خيبة ظنه وبوار سعيه إلى أقصىٰ المبالغ . والمشاهدة إذا كانت مستفادة من العيان ، ومنصرفة حيث تتصرف العينان ، تحرك النفس ، وتمكن المعنى من القلب).

ويرى عبد القاهر أن الفضيلة في الاستعارة تتفاوت تفاوتاً شديداً ، فمنها العامي المبتذل كقولنا (رأيت أسداً ووردت بحراً ولقيت بدراً ؛ ومنها

الخاصّي النادر الذي لا تجده إلاّ في كلام الفحول ، ولا يقوي عليه إلاّ أفراد الرجال ، كقول الشاعر :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطيّ الأباطح

وقد عرف عبد القاهر الكناية بقوله : (أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومىء به إليه ، ويجعله دليلاً عليه) .

وقد أعلىٰ عبد القاهر من شأن القيمة الفنية للكناية فهي أبلغ من الإفصاح ، والتعريض فيها أوقع من التصريح ، وقد بيّن أقساطها وساق أمثلة على الحسن منها والقبيح .

وقد جاء محمود بن عمر الزمخشري المتوفي سنة ٥٣٨ هـ فأضاف في تفسيره للقرآن المسمىٰ (الكشاف) مزيداً من التوضيح لقواعد علم البيان وأصوله وخاصة في صور الكناية والاستعارة والمجاز المرسل والعقلي .

وبعد هؤلاء الأعلام جاء سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن محمد السكاكي المتوفي سنة ٦٢٦ هـ ووضع حدوداً صارمة في كتابه (مفتاح العلوم) إذ خصص القسم الثالث من كتابه لعلم المعاني وعلم البيان وألحق بهما مبحثاً في الفصاحة والبلاغة وآخر عن المحسنات البديعية اللفظية والمعنوية . ويعد كتاب السكاكي الصورة النهائية التي جمدت عليها علوم البلاغة العربية ، إذ أخذ العلماء من بعده يشرحون ما كتبه ، وكان ما كتبه استيعاباً لما قدمه العلماء السابقون عليه ، وتنظيماً وتحديداً وتقسيماً وتفريعاً . وقد عرف السكاكي البيان بأنه (إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه ﴾. وقد حصر علم البيان في الدلالات العقلية

فكانت مباحثه شاملة المجاز والكناية إذ ينطبق عليها تعريفه علم البيان أي إيراد المعنى الواحد بهما في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان .

أما التشبيه فلما كانت دلالته وضعية فهو غير داخل في تعريف السكاكي ، بيد أنه وجد الاستعارة تعتمد عليه اعتماداً كبيراً ولهذا عده أصلاً في البيان ، وتناوله من خلال أقسامه وأغراضه من حيث طرفاه ووجهه والغرض منه وأحواله في القرب والغرابة والقبولِ والرفض ، وفرق بين التمثيل والتشبيه كما فعل عبد القاهر من قبل .

وتناول المجاز بوصفه (الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق استعمالاً في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة عن إرادة معناها في ذلك النوع)، وهو يجعله قسمين أساسيين : مجاز لغوي في المفرد ، ومجاز عقلي في الجملة ، ثم يفرع من هذين القسمين أقساماً أخرىٰ منها المفيد الخالي عن المبالغة في التشبيه وهو المجاز المرسل ، ومنها المفيد المتضمن المبالغة في التشبيه وهو الاستعارة ، وهي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به ، وبعد ذلك يتصل السكاكي في أقسام الاستعارة .

وفي تناوله للكناية يعرفها بأنها (ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك) ويقسمها بحسب المراد منها ثلاثة أقسام : كناية عن موصوف ، وعن صفة ، وكناية نسبه أي التي تدور على تخصيص الصفة بالموصوف .

ومن أهم شراح السكاكي جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني

المتوفي سنة ٧٣٩ هـ ، وهو في شرحه لم يلتزم بنص السكاكي ولكنه أضاف إليه من آرائه وآراء العلماء السابقين ، وقد أصبح كتابه (التلخيص) المحور الذي دارت عليه البلاغة العربية حتى العصر الحديث وكذلك شرحه (الإيضاح) الذي تتابعت الشروح عليه مثل (عروس الأفراح) بهاء الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧٣ هـ وغيره .



الفصل الثاني

التشبيه

هو أسلوب في تصوير المعنى يقوم على مقارنة شيء بآخر ، كمقارنة القلوب بالحجارة في قوله تعالىٰ : ﴿ ثمَّ قَسَتْ قلوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلك فهي كالحِجَارة أو أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ أو مقارنة السماء بالزيت المغلي والجبال بالصوف المنفوش في قوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تكونُ السماء كالمُهْلِ ، وتكونُ الجِبالُ كالعِهن ﴾ ومقارنة الذنوب بالجبال في قوله صلّى الله عليه وسلم : « يجيء يوم القيامة ناسٌ من المسلمين بذنوبٍ أمثال الجبال يغفرها الله لهم ». ومقارنة الحياة بالسراب في قول الشاعر أحمد شوقي :

وما الحياة إذا أظْمَتْ وإن خدعت إلَّا سَرابٌ على صحراءَ يلتمعُ

ومقارنة الحياة بالنوم والموت باليقظة والإنسان بالخيال في قول الشاعر أبي الحسن التهامي :

فالعَيْشُ نَوْمٌ والمنيَّةُ يَقظَةٌ والمرء بينهما خيال سارِ

ومن خلال هذه المقارنة التي قدمنا أمثلة لها تتمثل لنا صفة من الصفات كصفة القسوة في قلوب بني إسرائيل في الآية الأولىٰ ، والمنظر الهائل المرعب في صفة السماء يوم القيامة . والحالة الهشة المتطايرة التي تكون

عليها الجبال في هـذا اليوم الـرهيب في الآية الثـانية ، وعـظم ذنـوب بعض المسلمين كمـا في الحـديث الشـريف ، وتكشف الحيـاة الـدنيـا عن لا شيء كالسراب الذي يخدع الـظامىء حتى إذا جاءه لم يجـده شيئاً ، وذلـك المعنىٰ في بيت شوقي . وفناء الحياة الدنيا وقصرها ، وبقاء الحيـاة الآخرة ، والمـرور السريع للإنسان ما بين حياته الدنيا والآخرة كما تتمثل في بيت التهامي :

وفي أسلوب التشبيه الذي يقوم على المقارنة ـ كما بينا ـ نجد مـوضوعـاً يوصف ، سواء أكـان هذا المـوضوع شيئـاً محسوسـاً أم معنى يُدرك بـالفكر ، وهـذا الموضـوع لا يوصف وصفـاً مباشـراً ، بل يُقـرن بشيء آخر تكـون هـذه الصفة فيه أقوىٰ وأوضح ، وأقرب إلى إدراك السامع أو القارىء وتجربته .

وهناك أدوات تدل على التشبيه :

منها ما هو حرف : الكاف وكأن .

ومنها ما هو اسم : مثل ، شِبه ، شبيه ، ومـا في معناهـا مما يـدل على المماثلة أو المشابهة أو المضاهاة أو المحاكاة .

ومنها ما هو فعل : حسب ، ظن ، خال ، وما في معناها ممـا يدل على المماثلة أو المشابهة أو المضاهاة أو المحاكاة .

غير أن هذه الأدوات ليست عنصراً أساسياً في التشبيه وإنما قد تـذكر في التشبيه ، كما نجد في الأمثلة الثلاثـة الأولىٰ وقد يتحقق بـدونها كمـا نجد في بيت التهامي .

ونتبين مما تقدم أن التشبيه أسلوب أدبي يدل على مشاركة أمـر لآخر في صفته وأركانه أو عناصره أربعة :

١ ـ مُشَبَّه : وهو الموضوع المقصود بالوصف .
٢ ـ مشبَّه به : وهـو الشيء الذي يُجعـل نموذجـاً للمقارنـة وتتحقق فيه الصفـة

أقوىٰ وأوضح وأقرب إلى إدراك السامع أو القارىء وتجربته .

٣ ـ وجه الشَّبه : وهو الوصف الذي يستخلص من المقارنة بين المشبه والمشبه به .

٤ ـ أداة التشبيه : وهي الكلمة التي تدل على معنى التشبيه وقد تكون حرفاً أو اسماً أو فعلاً .

غير أن الركنين الأساسيين في التشبيه هما المشبه والمشبه به، وإذا اقتصر التعبير عليهما سُمِّي التشبيه (بليغاً) أو (مؤكداً)، فإذا ذكرت الأداة سُمِّيَ التشبيه (مرسلاً) .

وهذه التسمية الاصطلاحية لتعريف أنواع التشبيه لا علاقة لها ببلاغته أو جماله، فقد يذكر وجه الشبه والأداة وتتحقق في التشبيه روعته وأثره الجميل ففي الآية الأولىٰ شُبِّهت قلوب بني إسرائيل بالحجارة وهي مثال في القسوة ، ولكن الآية الكريمة وصفت قلوبهم بأنها أشد قسوة وهي الصفة المشتركة بين القلوب والحجارة ، وقد دللت الآية على ذلك بأن الحجارة لا تثبت على حال واحدة من الصلابة ، أما قلوب بني إسرائيل فهي ثابتة على ذلك بدليل تمام الآية (وإنَّ من الحجارة لما يتفجَّر منه الأنهارُ وإنَّ منها لما يشَّقَّقُ فيخرج منه الماء وإنَّ منها لما يَهْبط من خَشْية الله وما الله بغافل عما تعملون) .

وقدرة الأديب على الصياغة الفنية المحكمة في تعبيره عن معانيه لا يؤثر فيها استخدامه التشبيه ، فقد يقع المشبه به خبراً لمبتدأ كما نجد في بيت شوقي الذي استخدم فيه أسلوب القصر ، وكما نجد في التشبيهات الثلاثة في بيت التهامي . وقد يكون خبراً لأحد النواسخ كما نجد في بيت كعب بن زهير :

إن الرسول لنورٌ يُستضاءُ به ... مهند من سيوف الله مسلول

وقد يكون في موضع الحال كما في قول الشاعر :

بَـدَتْ قمـراً ومـالت خـوط بـانٍ وفـاحَـتْ عَـنْـبـراً ورنَـتْ غـزالاً

وقـد يقع المشبـه به مصـدراً مبيناً لنـوع المشبه كمـا في قـول الشـاعـرة الأندلسية :

حَـلَلْنـا دَوْحـهُ فـحـنـا علـيـنـا حُنُـوّ المـرضعـات على الـفـطيم

وقد يضاف المشبه به إلى المشبه كما في قول التهامي :

ثَـوْبُ الـرِّيـاء يَشِفُّ عمـا تحتـه فـإذا الْتَحفْتَ بـه فـإنَّـك عـارِ

ومن الـطبيعي أن يختلف طرفـا التشبيـه أو يتفقـا من حيث همـا أمـران حسيان أو معقولان والحسي هو ما يـدرك بإحـدىٰ الحواس الخمس الـظاهرة : البصـر ، والسمع ، والشم ، والـذوق ، واللمس ، وذلـك حسب مـا يـراد من التشبيه ، ويدخل في الحس (الخيالي) كما في قول الشاعر :

وكـأنَّ مُـحْـمَـرَّ الـشـقـيـق إذا تَـصَـوَّبَ أو تَـصـعَّـد
أعـلامُ يـاقـوت نُـشِـرْنَ عـلى رمـاح من زبـرجـد

فالمشبه به يتخيله الشاعر إذ لا توجـد في الحقيقة أعـلام من ياقـوت ولا رمـاح من زبرجـد ولكنه أراد أن يشبـه زهر الشقيق الأحمـر باليـاقـوت وسـاقـه الخضراء بالزبرجد وهي كلها أمور حسية تدرك بالبصر .

أما العقلي فهو الذي لا يدرك بـالحواس ، بـل يدرك بـالعقل ، ويـدخل في المعقول ما يسمىٰ (الوهمي) وهو ما ليس مدركـاً بإحـدىٰ الحواس ، مـع أنه لو أدرك لم يُدرك إلاَّ بها كما في قول امرىء القيس :

أيقتلني والمشـرفي مضـاجعي ومسنـونة زرق كـأنياب أغـوال

ووجـه الشبه في الأمثلة التي قـدمناهـا صفة واحـدة كالقسـوة في تشبيـه القلوب بـالحجارة في الآيـة الكريمـة الأولىٰ ، وقُدرة اللون في تشبيـه السمـاء

بالمهل في الآية الثانية ، وربما تصورنا عدة صفات في وجه الشبه ـ وهذا من سمات الجمال في التشبيه ـ ولكنها صفات مستقلة بعضها عن بعض كما في تشبيه الجبال بالعهن أي الصوف المنفوش ، فقد تفهم من ذلك صفة التفكك أو الخفة ، مع اختلاف ألوان الجبال كاختلاف ألوان الصوف .

غير أن هناك نوعاً من التشبيه نجد فيه وجه الشبه حالة مركبة من جملة صفات يصعب فصل بعضها عن بعض ، أو لا يتم التشبيه إلاَّ بها مجتمعة ، والغالب أن يكون وجه الشبه في هذا النوع من التشبيهات عقلياً ، ويسمىٰ هذا النوع (التشبيه التمثيلي) فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ **واضْرِبْ لهم مثلَ الحياةِ الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تَذْرُوه الرِّياحُ وكان الله على كل شيء مُقْتَدِرا** ﴾. فوجه الشبه هنا صورة مركبة من النماء والجمال والزينة ثم اليبس والجفاف والانحلال . كذلك نجد في قول الشاعر :

كأن مثار النقع فوق رؤسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فوجه الشبه فيه مركب من لون أسود يتحرك فيه شيء أبيض لامع ، ويستحيل علينا أن نتصور التشبيه منفصلاً في صفاته بحيث نقول إن مثار النقع يشبه الليل في السواد ، وأسيافنا تشبه الكواكب في البياض ، بل لابد أن نفهم التشبيه من تداخل اللونين ووجود حركة في هذا البياض هي حركة السيوف في المشبه وحركة هوى الكواكب في المشبه به .

ونجد في قول الرسول صلّى الله عليه وسلم (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى) تشبيهاً لجماعة المسلمين بالجسد ، والمشبه والمشبه به مفردان غير مركبين ولكن وجه الشبه مركّب من حالة الترابط والتكافل التي

تجعل الأجزاء كلها تعمل متساندة حتى إذا طرأ خلل على جزء واحد منها تأثرت به سائر الأجزاء .

ويقول ابن المعتز :

اصبرْ على مَضَضِ الحسود فإنَّ صَبْرَكَ قاتِلُه
فالنار تأكلُ نَفْسها إن لم تَجِدْ ما تأكله

فوجه الشبه هنا مركب إذ أن ترك الحسود والصبر على المعاناة منه حكمة تتمثل في النهار التي يستعر لهيبها وتسبب الأذىٰ ، لكنها إذا لم تمد بالحطب خبا أوارها وانطفأت . وقد يأتي التشبيه في التعبير الأدبي في غير ما قدمناه من صور التشبيه بحيث يوضع المشبه بإزاء المشبه به ، بل يلمحان في التركيب ويفهم التشبيه من سياق الكلام وهذا النوع من التشبيه يستخدم ليفيد بأن الحكم الذي أُسند إلى المشبه ممكن ، ويتم هذا التشبيه عادة بجملتين أو أكثر ، ويطلق عليه اسم (**التشبيه الضمني**) وذلك كما في قول ابن الرومي :

عدوُّك من صديقك مُسْتفادُ فلا تستكثرنَّ من الصِّحابِ
فإنَّ الداءَ أكثر ما تراه يحُول من الطعام أو الشراب

فإن الرومي يشبه تحول الصداقة إلى عداوة بتحول الطعام والشراب إلى أسباب للمرض ، ولكنه لم يعبر عن هذا المعنى دفعة واحدة كما يقتضي التشبيه الصريح ، فلم يقل إن بعض الأصدقاء يتحولون إلى أعداء ، كما يتحول بعض الطعام والشراب إلى أذىٰ للجسم ، وإنما دل على كل من ركني التشبيه بجملة مستقلة، وتركنا نفهم معنى التشبيه من البيتين :

ويقول أبو تمام:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طُوِيَتْ أتاح لها لسان حسودِ
لولا اشتعالُ النار فيما جاورت ما كان يُعرفُ طيبُ عَرْفِ العود

فالشاعر هنا يقول إن الحسود الذي لا يفتأ يردد الحديث عما أفاء الله من خير على الإنسان بغرض إزالة النعمة إنما هو في الحقيقة ينشر محاسن هذا الإنسان دون أن يدرك ، مثله في ذلك مثل النار التي تنشر الرائحة الطيبة للعود ، ولولا اشتعالها لظهر لنا العود جافاً ولم نعرف قيمته . وقد وضع الشاعر طرفي التشبيه في جملتين مستقلتين، ولكننا أدركنا ما بينهما من علاقة تشبيهية من السياق .

ويقول ابو فراس الحمداني :

سيذكرني قومي إذا جَدَّ جدُّهم   وفي الليلة الظلماء يُفْتَقَدُ البَدْرُ

وواضح هنا أن الشاعر يقارن بين حالتين : الأولىٰ إحساس قومه بالحاجة إليه في الشدائد والثانية : إحساس الناس بالحاجة إلى ضوء القمر في الليلة المظلمة ، فالتشبيه هنا ضمني لأننا أدركناه من الصياغة التعبيرية للمعنىٰ الذي أراده الشاعر .

ولما كانت الصفة المراد إثباتها أقوىٰ وأظهر في المشبه به منها في المشبه ، وهذا أمر طبيعي فالمشبه به لم يأت في الكلام إلاّ لتوضيح صفة في المشبه ، بدأ الشعراء والكتاب يميلون إلى الإغراق في تزيين الكلام وتوشيته بألوان البيان والبديع ، وكان من مظاهر ذلك الإكثار من التشبيهات والتماس الغريب منها ، ومن وسائل الإغراب في التشبيه أنهم قلبوا وضع المشبه والمشبه به ، فجعلوا المشبه أقوىٰ في الصفة أو أقرب إلى الإحساس والعادة من المشبه به ، وكأنهم يريدون إيهام القارىء أو السامع بأن المشبه قد بلغ من التمكن في الصفة أو الاشتهار بها مبلغ المشبه به وأكثر ، كقول أبي تمام :

وأحسن من نَوْرٍ يفتِّحه الندى   بياض العطايا في سوار المطالب

فالأصل أن يشبه بياض العطايا ويقصد به الكرم منور الأزهار ولكنه قلب

التشبيه ، ولهذا يسمىٰ هذا النوع من التشبيه (**التشبيه المقلوب**) وكما في قول القاضي التنوخي يصف قدوم الشتاء :

انـهض بنـار إلـى فحـم كـأنهـمـا   في العين ظلْمٌ وإنصافٌ قـد اتفقـا

فالظلم في الأصل لكي نقربـه إلى الأفهام نشبهـه في سواده ومـا يحدثـه في النفس من حزن وألم بالفحم ، والعدل نشبهه في ارتياح النفس إليه بـالنور والإشراق المنبعث من النار ، ولكن الشاعر قلب التشبيهين .

وقد أدرك المحدثون ما في التشبيه المقلوب من تصوير لخلجات النفس الإنسانية فاستخدموه استخداماً واسعاً في أشعـارهم وكتابـاتهم ، ومن ذلك مـا كتبه مصطفىٰ صادق الرافعي في فصل له بعنوان (البحر) يقول فيه : (أعرف للبحـر في نفسي كـلامـاً ، فهـو يوحي إلى أن تجـدَّد تجـدداً في آمـال قلبـك كأمواجي لئلا تمل فتيأس ، وتحرَّك تحرُّك في نزعات نفسك كتياري لئلا تركن فتفسد ، وتوسَّع توسَّع في معاني حياتك كأعماقي لئلا تمتلىء فتتعكر ، وتبخَّـر تبخُّر في جوفك الحر كرياحي لئلا تسكن فتهمد) .

ومن الأمثلة المختلفة للتشبيه التي قدمناها يتمثل لنـا التشبيه عنصـراً فنياً قوياً من عناصر الجمال في التعبير يعتمد على قوة التصوير والتمثيل والمحاكـاة والتشخيص والتجسيم ويـدل على اتساع الخيـال وسموه ومـا قـد يكـون لـدى صاحبه من مواهب تتسع به في القول وتتعمق الأشيـاء . وهو نـوع من الوصف ليس عادياً فهو يقرب الموصوف والمشبه) من الحواس أو من تجربة السامع ، أو يربطه بشيء هو أقوىٰ منه في الصفة ويمثل الغائب الـذي لا يقتاد بـالظاهـر المعتاد . ولهذا كان من **أهم أغراضه إيضاح المعنى وبيان المراد** ، فإذا تأملنـا قـول الرسـول صلّى الله عليه وسلم : (كن في الـدنيا كـأنك غـريب أو عـابـر سبيل) أدركنا أن الفرض أن لا يتعلق الإنسان بالدنيـا ويرتبط بهـا ، بل يجعـل صلته مثل الغريب الذي لا ارتبـاط له في بـلاد الغربـة أو ابن السبيل الـذي لا

علاقة له بالمكان إلاَّ بمقدار عبوره . وقد أكثر البلاغيون قيمة هـذا الفرض في التشبيه فيقول أبـو هلال العسكـري : (التشبيه يـزيد المعنى وضـوحاً ويكسبـه تأكيداً ، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه) .

وقـد يكون المقصـود من التشبيه أمـر آخر وهـو بيـان مقـدار الصفـة في المشبه كما تتبين في قوله تعالىٰ ﴿ **مثلُ الـذين يُنفقون أمـوالهم في سبيل الله كَمَثل حَبَّةٍ أنبتت سَبْعَ سنابِلَ في كُلِّ سنبلةٍ مـائة حَبَّـة** ﴾ فالأمـوال التي ينفقها المؤمنون في سبيل الله تتميز بصفة وهي أنها تعود عليهم بـأضعاف أضعـافها ، وقد صور التشبيه هذا الجزاء الوافي الجزيل تصويراً يقرِّب مقداره من الذهن .

وقد يكون الغـرض من التشبيه تقـرير الصفـة ذاتها وتـأكيدهـا في النفس بحيث تتمثلها تمثلاً قوياً ، ونـرى ذلك في قـول الرسـول صلّى الله عليه وسلم (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) .

وقد تكون الصفة التي يقررها التشبيه حسية محضة كمـا في قول امـرىء القيس يصف الأطلال :

تـرى بَعـر الآرام في عَـرَصـاتهـا ... وقيـعـانـهـا كـأنـه حَبُّ فُلْفُل

فهنـا نلاحظ في التشبيـه عدة صفـات وليست صفة واحـدة ، فنجـد في المشبـه به صفـات الاستدارة والسـواد والصـلابـة والصفـة ، ومن هنـا اكتسب التشبيـه قوتـه في إيجازه . وقـد يكون الغـرض من التشبيـه تحسين المشبـه أو تقبيحه كما في قول البحتري :

عَـيَّـرَتْنـي الـمـشـيـبَ وهـي رَمـنـه ... في عِـذارى بـالصـدِّ والاجتنـاب

لا تَـرَيْـه عـاراً فمـا هـو بـالشيب ... ولـكـنـه جـلاء الـشـبـاب

وبيـاضُ البـازيِّ أصـدقُ حُـسْنـاً ... إن تـأمَّلْتِ مـن سـواد الـغـراب

فقـد شبـه البحتـري المشيب ببيـاض البـازي ليحسنـه ويجمله ويـوهم

القارىء أو السامع بحبه للمشيب واعتزازه به ، وشبه سواد الشعر الذي يدل على الشباب بسواد الغراب ليقبحه ويعيبه ويوهم سامعه بأنه غير راغب فيه .

وقد يأتي الأديب بتشبيه يثير نوعاً من الغرابة أو الطرافة بما يرسمه من صورة غريبة كالتي رسمها الشاعر ابن سعيد في قوله :

والنَّخْل أمثال العرائس لُبْسها خَزٌّ وحِلْيَتُها قلائدُ من ذهب

فهو يشبه النخل بالعرائس فيعقد بذلك مقارنة بين طرفين بعيدين ، ولهذا كان جمال التشبيه في محاولة اكتشاف جوانب هذا التشابه الغريب فنجد الشاعر قد ربط بين سعف النخل الأخضر والحرير ، وبين الطلع الأصفر وقلائد الذهب .

وقد يأتي التشبيه لإثبات قضية وخصوصاً إذا كانت قضية لا يسهل التسليم بها ، كما نرى في قول ابن الرومي :

فدَعْ عنك الكثيرَ فكم كثيرٍ يُعاف وكم قليل مستطاب
وما اللُّجَجُ الملاح مُرَوِّيات ويُلْغَىٰ الريُّ في النُّطَفِ العذاب

فالناس عادة تطلب الكثرة من كل شيء وتمتدحها ، ولكن الشاعر يقرر أن العبرة ليست بالقلة أو الكثرة، ولكي يثبت هذه القضية التي لا يسلم بها الناس عادة ، شبّه الكثرة بماء البحر المالح ، والقلة بجرعات الماء العذب عند الظمآن ، فأثبتت قضيته بهذا التشبيه .

ومن أبرز عيوب التشبيه ألا تكون الضفة المراد نسبتها إلى المشبه ظاهرة في المشبه به ، فهذا ينقض الغرض الأصلي من التشبيه . ومما يستطرف من أخطاء الشعراء في التشبيه ذلك البيت الذي رواه المبرد في كتابه (الكامل) :

بل لو رأتني أخت جيْراننا إذ أنا في الدار كأني حِمارٌ

أراد أن يصف نفسه بالقوة وسلامة البدن ، فشبه نفسه بالحمار . ولو

قارنا هذا البيت بقوله تعالى في وصف اليهود الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يعملوا بما فيها بالحمار الذي يحمل فوق ظهره كتباً ، فلا تعدو أن تكون بالنسبة إليه حملاً ثقيلاً عليه . وجدنا الفرق هائلاً بين التشبيهين في الدلالة على الغرض وقوة التصوير وبلوغ الغاية من التشبيه .

وفي التشبيهات المصيبة الجافية عن الذوق لا ينفع التصريح فيها بوجه الشبه ليخفف من سوئها كما نرى في قول الشاعر وهو يمدح :

أنت كالكلب في حفاظك للود وكالتَّيس في قراع الخطوب

وقد يعيب التشبيه أن ينسب إلى المشبه به وصف غير معهود فيه وليس من طبيعته أو من وظائفه الدائمة ليُحمل هذا الوصف بعد ذلك على المشبه فتنقطع صلة المقارنة أو المشابهة كما نجد في قول الشاعر مادحاً :

كانت بنو غالب لأُمَّتها كالغَيْثِ في كل ساعة يَكِفُ

فليس من المألوف أن يسقط المطر في كل ساعة .

وربما كان الوصف في كل من المشبه والمشبه به صحيحاً إلاّ أنهما لا يتلاءمان ، فيشعر القارىء أو السامع بتقصير العبارة عن المعنى ، كالذي رُوي من أن ابن شرف القيرواني أنشد ابن رشيق قوله :

غيري جَنَىٰ وأنا المعاقَبُ فيكمُ فكأنني سبَّابةُ المُتَندِّم

وقال له : هل سمعت هذا المعنى : (وكأنما هو معجب بما اتفق له من عجيب التشبيه) فقال ابن رشيق : سمعته وأخذته أنت فأفسدته ، أما الأخذ فمن قول النابغة الذبياني :

لَكَلَّفتني ذَنْبَ امرىء وتركته لذي العُرِّ يُكْوَى غيره وهو راتع

وأما الإفساد فلأن سبابة المتندم أول شيء يتألم منه ، وهذا بخلاف بيت

النابغة فإن المكويّ من الإبل يتألم وما به عُرٌّ البتة ، وصاحب العر لا يألم جملة .

فابن رشيق يعيب بيت ابن شرف لأن المشبه به لا يطابق المشبه ، فالمشبه هو البريء المعاقب ، والمشبه به هو سبابة النادم التي يعضها حين يشعر بما وقع فيه من خطأ والسبابة هي بعض الإنسان المخطىء ، فكيف لا يكون عقابها عقاباً له ؟ أما بيت النابغة ففيه فصل واضح بين المذنب والمعاقب في كل من المشبه والمشبه به ، فلذلك تطابقا فوقع التشبيه موقعه .

ولا شك أن التشبيه وهو أحد عناصر علم البيان تؤثر فيه عوامل كثيرة كالبيئة والزمن والمستوى الثقافي ودرجة التخيل وغير ذلك من مؤثرات ، وقد لاحظ مصطفىٰ صادق الرافعي في كتابه (تاريخ أداب العرب) أن المولدين من الشعراء لم يلتزموا سنن العرب في الوصف ، بل قلبوه إلى التشبيه، وبينهما فرق عند العرب ، وهو أن الوصف إخبار عن حقيقة الشيء ، والتشبيه مجاز وتمثيل لأنه مبني على أن يوقع بين الشيئين أشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما بها ، إذ لابد أن يكون بين المشبه والمشبه به اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بها ، وافتراق في أشياء ينفرد كل منهما بصفتها فهو يدخل في الوصف وليس في الحقيقة ، ومن أجل ذلك بالغ المولدون في أوصافهم وجاءوا بالتشبيه المفرط والبعيد ، وكأن هذا الشيء اقتضته حضارتهم المبنية على الترف وتمويه الأشياء بالزخرفة .

وما يقوله الرافعي هو في الحقيقة ما يلتزمه العرب في عمود الشعر ، والتجديد الذي حدث في القرن الثاني في الصيغة يمكن عده خروجاً على ذلك العمود ، ذلك أن إدراك الشعراء للعلاقات بين الأشياء قد تطور تطوراً كبيراً بالنسبة لما كان عليه في العصر الجاهلي ، فتشبيه بشار مثلاً لحديث المرأة اللطيف ذي الأنين بقطع الرياض المتنوعة الأزهار في قوله :

وكـأن رجـع حـديـثـهـا   قِـطَعُ الـريـاض كُسين زهـرا

لا يـرتكز على تفسيـر البيئة فقط ، ولكنـه يـرتكـز أولاً على تغيـر إدراك العلاقة بين الأشياء، فالشاعر الجاهلي لم يكن يستطيع الوصول إلى إيجاد مثل العـلاقة بين حـديث المرأة وقـطع الريـاض ، إذا كان إدراكـه في هذه النـاحية محصوراً في العلاقات المتشابهة المتجاورة أو القريبة من الحقيقـة ، فإن بعـد هوناً ما عن هذا المنطق فهو لا يتعدىٰ بيئته أو الأسـاطير الشـائعة كمـا رأينا في قول امرىء القيس (ومسنونة زرق كأنياب أغوال) .

وهناك ناحية أخرىٰ نراها في التشبيهات عند المجددين من الشعراء وهي أن المحدثين قد أُتيح لهم من الثقافة وقوة التمثيل والتخيل مـا يجعلهم قادرين على التوسع حتى في الصـور القديمـة الجاهليـة وإضافـة جزئيـات كثيرة إليهـا ومحاولة تشخيص الصورة وتجسيمها .

ولا شك أن القيمة الفنيـة للتشبيه من حيث عمق المعنىٰ المـراد تصويـره واتساع رؤيته وجدته وبعث الحياة في جزئيـاته وقـدرته على التخيـل أهم بكثير من حشد التشبيهات والإشـارة بتعددهـا في البيت الواحـد ، فقد كـان إعجاب بعض البلاغيين كبيراً ببيت امرىء القيس الذي يقول فيه :

كـأن قلوب الـطيـر رطبـاً ويـابسـاً   لدىٰ وكرها العناب والحشف البـالي

لأنه شبه شيئين بشيئين مفصلاً .

كما أعجب بعضهم ببيت المرقش الأكبر :

النشـر مسـك والـوجـوه دنـا   نيـر وأطـراف الأكـف عنـم

لأنه شبه ثلاثة أشياء بثلاثة أخرىٰ .

أما بيت الشاعر :

وأسبلت لـؤلؤاً مـن نـرجس فسـقت   ورداً وعضت على العنـاب بـالبـرد

فقد بلغ الغاية عند بعض البلاغيين لأنه شبه خمسة أشياء في بيت واحد ، حتى إن أبا هلال العسكري يقول (لا أعرف لهذا البيت ثانياً في أشعارهم) . مع أن القيمة الفنية فيه محدودة .

إن الوظيفة الحقيقية للتشبيه تتجاوز كونه وسيلة للتقريب أو التعريف بشيء مجهول فإذا قلنا عن شيء شديد السخونة إنه كالنار لم نكن بعيدين عن الحقيقة بل إن (الرماني) سمى مثل هذا النوع (تشبيه حقيقة) .

وفي القرآن الكريم أمثلة رائعة للتشبيهات ذات القيمة الفنية العالية فمن ذلك قوله تعالىٰ في تصوير الصدقة : « يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذىٰ كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير » .

فالصدقة أو بذل المال في وجوه الخير له صورتان تشبيهيتان متقابلتان بحسب المتصدقين فالذين يتبعون صدقتهم بالإيذاء نتيجة حبهم للتظاهر ورقة إيمانهم يشبهون في عملهم الحجر الصلب الذي غطته طبقة خفيفة من تراب فنزل عليه المطر الغزير الذي يخصب الأرض ويمرعها ولكنه لم يفعل شيئاً بالحجر إلاَّ أن أزال عنه التراب ليعود صلداً أملس . أما عمل المؤمنين في صدقاتهم فيشبهه بالجنة فوق ربوة عالية ينزل عليها المطر المغدق فتزداد خصوبتها وتمرع ، بل إنها ليست بحاجة إلى المطر الغزير فيكفيها القليل لتزدهي بخضرتها .

ولا شك أن صدور التشبيه عن تجربة فنية صادقة يشيع في صوره قوة

الشعور وحرارة الوجدان ، ونـرى ذلك واضحـاً في صور الشعـراء الرمـانتكيين خاصة ، فإذا تأملنا قصيدة (المساء) لخليل مطران وجدنا صوره التشبيهيـة قد صاغها بـإحساسـه الحزين فـاكتست قتامـة وتغير وجـه الطبيعـة الذي نعـرفه ، يقول :

والبحـر خفـاق الجـوانب ضـائق كمـدا كصـدري سـاعة الإمسـاء
تـفشـىٰ البـريـة كـدرة وكـأنـهـا صعـدت إلى عينـي من أحـشـائي
والأفـق معـتكـر قـريـح جـفـنـه يـغضـي على الـغمـرات والأقـذاء
يـا لـلغـروب ومـابـه من عـبـرة لـلمسـتـهـام وعـبـرة لـلرائـي
أو ليس نـزعـاً للنـهـار وصـرعـة لـلشـمس بـيـن مـآتـم الأضـواء
أو ليس طمسـاً للتـعيين ومبعـثـاً لـلشـك بيـن غـلائـل الـظلمـاء
أو ليس محـواً للوجـود إلى مـدىٰ وإبـادة لـمـعـالـم الأشـيـاء



الفصل الثالث

المجاز

الدلالة اللغوية لكلمة (المجاز) تعني الانتقال من مكان إلى مكان ، أو ذات الشيء الذي نقل من موضع إلى آخر، ومن ثم الانتقال من معنى إلى معنى آخر ، وهذا المعنى الذي انتقلت منه الكلمة هو الذي يسميه البلاغيون (الحقيقة)، فكأن (المجاز) عدول عنها وانتقال من دلالة إلى أخرىٰ .

ويعرف ابن سنان الخفاجي الحقيقة بقوله (اللفظ الموصوف بأنه حقيقة هو ما أريد به ما وضع لإفادته).

ويعرفها عبد القاهر الجرجاني بقوله (كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضع ، وإن شئت قلت : في مواضعته وقوعاً لا يستند فيه إلى غيره . . مثال ذلك كلمة (الأسد) تريد به (السبع) فإنك قد أردت به ما وضعه الواضع لهذه الكلمة ، وهو الحيوان المفترس ، ولا يحتاج أن يتصور له معنىً ينتقل منه إلى السبع من أجل صلة تجمع بينهما .

وقد سبق لنا أن بينا أن (المجاز) استخدم عنواناً في كتب المتقدمين كمجاز القرآن لأبي عبيدة ولكنه لم يكن يعني (المجاز) بالمعنى الاصطلاحي البلاغي ، وقد تنبه إلى ذلك ابن تيمية في (كتاب الإيمان) فقال (أول من

عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه ، ولكنه لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة ، وإنما عني بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية).

ويحدد عبد القاهر الجرجاني المجاز بأنه (كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول) ، ويقول أيضاً (والغرض المقصود بهذه العبارة أعني قولنا المجاز أن تبين أن للفظ أصلاً مبدوءاً به في الوضع ومقصوداً ، وأن جريه على الثاني إنما هو على سبيل النقل إلى الشيء من غيره) .

ومن الواضح أن التفرقة بين الحقيقة والمجاز في اللغة ليست أمراً ميسوراً لأن دلالات الألفاظ في اللغة متغيرة ، وقد يكون استعمال الكلمة مجازياً ثم يشيع ويصبح مألوفاً فيتحول إلى استخدام حقيقي ، والأقرب الاعتماد على العرف السائد والاستخدام العام للكلمة . ويرى النقاد المحدثون الاعتماد أيضاً على الانطباع الذي تتركه الكلمة في النفس من حيث الإحساس بالدهشة إزاءها فكأن (المجاز) في (علم الدلالة) الحديث نوع من التغير الدلالي فهو لا يتسم بالثبات، بل يرتبط بالمكان والزمان .

وقد فطن علماؤنا العرب إلى التغير الدلالي وانتقال المجاز إلى الحقيقة وصعوبة التفرقة بين ما هو (حقيقي) وما هو (مجاز) ويقول السيوطي في كتابه (المزهر) : « اعلم أن الفرق بين الحقيقة والمجاز لا يعلم من جهة العقل ولا السمع ، ولا يعلم إلَّا بالرجوع إلى أهل اللغة ، والدليل على ذلك أن العقل يتقدم على وضع اللغة ، فإذا لم يكن فيه دليل على أنهم وضعوا الاسم لمسمىً مخصوص امتنع أن يعلم به أنهم نقلوه إلى غيره ، لأن ذلك فرع العلم بوضعه ، وكذلك السمع إنما يرد بعد حصول المواظبة وتمهيد التخاطب واستمرار الاستعمال وإقرار بعض الأسماء فيما وضع له واستعمال

بعضها في غير ما وضع له ، فيمتنع لذلك أن يقال إنه يعلم به أن استعمال أصل اللغة لبعض الكلام هو في غير ما وضع له لامتناع أن يعلم الشيء بما يتأخر عنه » .

ويحدد بعض الباحثين التطور الدلالي والانتقال من المجاز إلى الحقيقة في صور أربع :

أولاً : أن يغلب استعمال اللفظ في معنى على سبيل المجاز لعلاقة المشابهة أو غيرها حتى يصير المعنى المجازي هو الذي ينساق إليه الذهن عند إطلاق اللفظ . وذلك مثل كلمة (الفصاحة) فإن معناها الأصلي صفاء اللبن وذهاب رغوته ، ثم شاع استعمالها في صفاء القول وحسن بيانه لعلاقة المشابهة بين المعنيين حتى أصبح المعنى المجازي هو المتبادر من اللفظ عند إطلاقه .

وثانياً : أن يغلب استعمال اللفظ الموضوع في الأصل لمعنى كلي يتناول عدة جزئيات في جزئي خاص من هذه الجزئيات حتى يصير هذا المعنى الجزئي هو المتبادر منه عند الإطلاق وذلك مثل كلمة (الرث) فإن معناها الأصلي الخسيس من كل شيء ، ثم غلب استعمالها في الخسيس مما يلبس ويفرش حتى أصبح هذا المعنى هو الذي ينساق إليه الذهن عند أطلاقه .

وثالثاً : أن يغلب اللفظ الدال على معنى في مدلول عام على طريق التوسع حتى يصير هذا المعنى العام هو المتبادر من اللفظ عند إطلاقه وذلك مثل لفظ (البأس) فإن معناه الأصلي (الحرب)، ثم غلب استعماله في كل شدة حتى أصبح هذا المعنى الهام هو المتبادر إلى الذهن .

ورابعاً : أن ينقل اللفظ نقلاً مقصوداً من معناه الأصلي اللغوي إلى

معنى اصطلاحي لعلاقة بين المعنيين فلا ينتجه الذهن عند استخدامه إلى غير معناه الجديد ومن ذلك ألفاظ : الصلاة والصوم والزكاة عند الفقهاء ، والفاعل والمفعول والظرف والجار والمجرور والحال والتمييز عند النحاة وما إلى ذلك .

وقد رأىٰ ابن جني وتابعه في ذلك علماء آخرون أن أكثر اللغة مجاز لا حقيقة . ورأى آخرون إنكار المجاز وجدوا الكلام كله ضرباً من الحقيقة ، وكان هم أصحاب هذا الرأي نفي وقوع المجاز في القرآن الكريم وحجتهم في ذلك أن المجاز كذب والكذب محال على الله تعالىٰ ، وأن الألتجاء إلى المجاز عجز عن التعبير بالحقيقة ، والعجز محال على الله تعالىٰ . بيد أن صراحة هذا الاتجاه وصدوره عن المنطق والاستدلال العقلي ينكر الإعجاز البياني في القرآن ، والمجاز قمة التعبير البياني ويستحيل تقويمه على أساس الكذب والحقيقة .

ولا شك في وجود علاقة بين المعنى المألوف والاستعمال الجديد للكلمة الذي غير هذا المعنى المألوف . وقد أدرك علماء البلاغة العربية تنوع هذه العلاقة وانقسامها إلى قسمين :

الأول : المجاز العقلي ويكون في الإسناد ، أي في إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له .

الثاني : المجاز اللغوي وتحكمه علاقتان : الملابسة والارتباط بين المعنيين ويسمىٰ المجاز المرسل ، والعلاقة الثانية المشابهة بينهما ويسمىٰ الاستعارة .

المجاز العقلي

يعد عبد القاهر الجرجاني من البلاغيين الأوائل الذين أفردوا هذا النوع من المجاز بالتحديد وفصل فيه القول وسماه (المجاز الحكمي) ويقصد به المجاز الذي يكون في الكلمة ذاتها وفي اللفظ نفسه ، بل إن (التجوز فيه يكون في حكم يجري على الكلمة فقط ، وتكون الكلمة متروكة على ظاهرها ، ويكون معناها مقصوداً في نفسه ومراراً كقولهم : (نهارك صائم ، وليلك قائم) وقوله تعالى : (فما ربحت تجارتهم)، فأنت لم تجوز في نفس (صائم وقائم) ولكن في أن جعلتهما خبرين عن النهار والليل ، وكذلك ليس المجاز في الآية في لفظة (ربحت) نفسها ولكن في إسنادها إلى التجارة، فإنك لا ترى شيئاً منها إلاَّ وقد أريد به معناه الذي وضع له على وجهه وحقيقته ، فلم يرد بصائم غير الصوم ، ولا بقائم غير القيام ولا بربحه غير الربح ».

فكأن المجاز الفعلي كما صوره عبد القاهر في النص السابق من كتابه (دلائل الإعجاز) واقع في الإسناد لأن النهار في الإلف العادي لا يصوم ، والليل لا يقوم والتجارة لا تربح وإنما نقل ذلك كله من الإنسان .

ولا شك أن المجاز العقلي له أثر كبير في مجال التعبير الأدبي من حيث

قوة التشخيص والبعد عن المباشرة ، وقد أدرك عبد القاهر هـذا الأثر فقـال إن العـاقل لا يشتبـه عليه أن ليس حـال المعنى في قولـه (نام ليلي) كحـالـه إذا تـركت المجاز وقلت (فنمت في ليلي) ، ومن الـذي يخفي عليه مكـان العلو وموضع المزية بين قوله تعـالى : (فما ربحت تجـارتهم) وبين أن يقال (فمـا ربحوا في تجارتهم) .

ويقـول في بيـان هـــذا الفـرق في الأثـــر الأدبي بين الحقيقـة والمجـــاز العقلي : وإذا أردت أن تزداد للأمر تبينـاً فانظر إلى بيت الفرزدق :

يحمي إذا اختـرط السيـوفُ نسـاءنـا ضَرْبٌ تـطيـر لــه السـواعــدُ أرعـل

وإلى رونقه ومائـه وإلى ما عليـه من الطلاوة ، ثم ارجـع إلى الذي هـو الحقيقـة وقل : نحمي إذا اختـرط السيوف نسـاءنا بضـرب تطيـر له السـواعـد أرعل ، ثم أسبر حالك ، هل ترى مما كنت تراه شيئاً .

عبد القاهر هنا يوازن بين الإسناد الحقيقي والإسناد المجازي ، فلو قال الشاعر في الحقيقة إننا نحمي نساءنا إذا ما سللنا السيوف بضرب شديد الطعن تطير له السواعـد ، لم يكن ذلك من التعبيـر البياني الجميـل ، ولكن الشاعـر حين أسند حماية النساء إلى الضرب نفسه ارتفعت القيمـة الغنية للتعبيـر ، ولا شك أيضاً أن طيران السواعد تعبير مجـازي جميل فنقـول عن الإلف والعادة ، وقد شارك في تصـوير هـول المعركـة تصويـراً خياليـاً رائعاً ، وإن لم يكن من المجـاز اللغوي الـذي نتحدث عنـه لوجـود علاقـة مشابهـة فيـه . وقـد عـرف السكاكي المجاز العقلي بقوله : (هو الكلام المفاد به خلاف ما عنـد المتكلم من الحكم فيه لضرب من التأويل إفـادة للخلاف لا بـواسطة وضـع كقولـك : أنبت الربيع البقل ، وشفي الطبيب المـريض ، وكسا الخليفـة الكعبة ، وهـزم الأميـر الجند ، وبني الـوزير القصـر) وهو يعني بـذلك أن هؤلاء الفـاعلين لم يقوموا بأنفسهم بأداء هذه الأفعال ، فـالربيـع لا ينبت البقل ولا الـطبيب يشفي

المريض ، وإنما الفاعل الحقيقي هو الله جل وعلا ، والخليفة لا يكسو الكعبة بنفسه ، وإنما الصناع المختصون بأمر منه ، ولا الأمير يهزم الجند بنفسه بل يقوم جنوده بأداء هذه المهمة ، ولا الوزير يبني القصر بنفسه ، بل البناؤون .

ولكن لا يلبث السكاكي أن ينكر وجود ما يسمىٰ بالمجاز العقلي ويرى عده استعارة مكنية مع وجود فارق أساسي بين المجاز العقلي والاستعارة قد بيناه مَن قبل وهو أن العلاقة بين المعنى المألوف والاستعمال الجديد في الكلمة تحكمها المشابهة في الاستعارة وهي ليست كذلك في المجاز العقلي الذي يفيد إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له ، كما بيناه في الأمثلة السابقة .

وأصاب الخطيب القزويني في تعريفه المجاز العقلي بقوله : (هو إسناد الفعل أو معناه إلى مُلابس له غير ما هو له بتأوُّل)، ثم فصَّل القول في هذه الملابسات ، أو ما نسميه أنواع العلاقة في المجاز العقلي .

واتجه القزويني اتجاهاً مغايراً للبلاغيين السابقين بِعَدِّه المجاز العقلي وهو مجاز بالإسناد داخلاً في علم المعاني دون علم البيان قائلاً : إنما لم نورد الكلام في الحقيقة والمجاز العقليين في علم البيان كما فعل السكاكي ومن تبعه لدخوله في تعريف علم المعاني دون تعريف علم البيان .

ولا نرى صحة ما ذهب إليه القزويني فالمجاز العقلي جزء من المجاز في أصله ومعناه ولا ينفصل عن علم البيان .

أنواع العلاقة في المجاز العقلي

إن العلاقة بين إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له كما بينا في المجاز العقلي تعدد أنواعها كما يأتي :

١ ـ **السببية** : وهي إسناد الفعل إلى غير فاعله الحقيقي لأن المسند إليه كان سبباً في حدوث الفعل ، ومن هذا النوع قوله تعالى : (يذبح أبناءهم) فنسبة الفعل إلى فرعون على المجاز لأنه ليس الفاعل الحقيقي ، ولكنه الآمر بهذا الفعل فهو سببه . وكذلك الشأن في قوله تعالىٰ : ﴿ **يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات** ﴾ ففي إسناد بناء الصرح إلى هامان وزير فرعون مجاز عقلي علاقته السببية لأن هامان لم يبن الصرح بنفسه ولكنه كان سبباً في بنائه حين أمر عماله بهذا البناء .

٢ ـ **الزمانية** : وهي إسناد آخر للزمان لمشابهته الفاعل الحقيقي في ملابسة الفعل لكل منهما وذلك في مثل قولنا : يومه سعيد وليله شقي ونهاره حزين فاليوم لا يكون سعيداً على الحقيقة ولا يشقىٰ الليل أو يحزن النهار ولكن النسبة الحقيقية للإنسان ، وتتضح لنا هذه العلاقة أيضاً في قوله تعالىٰ (يوماً يجعل الولدان شيباً) فقد نسب الفعل إلى اليوم وهو الظرف

لـوقوعـه فيه . ويـزخر التعبيـر الأدبي بمثل هـذا النوع من المجـاز العقلي فتقـول : أفناهم الـزمـان وأكلتهم الأيـام ، وعـلاقـة هـذا المجـاز العقلي الزمانية.

٣ ـ **المكانية** : وهي إسناد الفعل للمكان لمشابهته الفاعل الحقيقي في ملابسة الفعل لكل منهما ويتضح ذلك في قولنا : جرى النهر ، فقد أسنـد الفعل إلى النهر وهو غير فاعله الحقيقي لأن الذي يجري هـو الماء المـوجود في النهر .

وإذا قلنـا : جلسنا في مشـرب عذب ، فـالمشرب وهـو مكـان الشـرب لا يكون عذباً وإنما نعني عذوبة ما فيه من ماء ، فأسندنا العـذوبة إلى مكـان الشرب مجازاً على غير الحقيقة .

٤ ـ **المفعولية** : وهي فيما بنى للفاعل وأسند إلى المفعول به ، وهـذه العلاقـة في المجاز العقلي تتردد في التعبيـر الأدبي كثيراً ، فتقـول : المنزل عـامر وهـو في الحقيقة لا يعمـر غيره ، بـل هو معمـور بغيره ، وعلى ذلـك فهو مجـاز عقلي علاقته المفعوليـة وكذلـك الأمرين نقـول إن الحجرة مضيئـة والإضـاءة لا تقع منهـا بل عليهـا ، فهي في الحقيقـة مضـاءة ، وهي على المجـاز مضيئة . ومن ذلـك النوع قـولـه تعـالىٰ : ﴿ **في عيشـة راضيـة** ﴾ والعيشة في الحقيقة مرضية أما صاحبها فهو الراضي .

٥ ـ **الفـاعليـة** : وهي فيمـا بنى للمفعـول وأسنـد إلى الفـاعـل ، وهي نقيض العلاقة السـابقة وتتضـح في قولـه تعالىٰ : ﴿ **إنـه كان وعـده مأتيـاً**) وهـذا الوعد في الحقيقة آت ومثل ذلك قولنا : سيل مفعم أي ممتلىء وهذا على المجاز إنما هو في الحقيقة مفعم أي يملأ الوديان .

٦ ـ **المصدرية** : وهي فيما بُني للفاعل وأسند إلى المصدر كما شيخ في قولـه

تعالىٰ (فإذا نفخ في الصور نفخةٌ واحدة) فالفعل (نفخ) المبني للمجهول لم يسند إلى نائب فاعله الحقيقي ، بل إلى مصدره (نفخة) وبذلك عد من المجاز الفعلي للعلاقة المصدرية .

وكذلك لو تأملنا قول الشاعر :

سيذكرني قومي إذا جد جدهم   وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدر

لوجدنا أن الفعل (جد) أسند إلى المصدر وليس إلى فاعله الحقيقي وكل هذه العلاقات في المجاز الفعلي تشترك في الإسناد إلى غير ما هو له دون وجود مشابهة ، وهذه العلاقات توجد صلة بين الصورة الفنية والتركيب النحوي في التعبير تساعد على روعة النظم وجمال التصوير .

المجاز المرسل

بينا من قبل أن المجاز اللغوي تحكمه علاقتان : الملابسة والارتباط بين المعنيين وهو ما يسمىٰ المجاز المرسل ، والعلاقة الثانية المشابهة وهو ما يسمىٰ الاستعارة . وقد سمي النوع الأول مجازاً مرسلاً لعدم تقيده بعلاقة واحدة شأن الاستعارة المحكومة بالمشابهة ، ولكن المجاز المرسل تتسع علاقاته إلى حد كبير . ولعل الخطيب القزويني هو أول من أطلق هذه التسمية ، وإن كان البلاغيون من قبله قد حددوه وذكروا أنواعاً منه كعبد القاهر الجرجاني ، وسماه السكاكي (المجاز اللغوي الراجع إلى المعنى المفيد الخالي من المبالغة في التشبيه) وهو عنده نوع من الاستعارة بدليل قوله (الخالي عن المبالغة فى التشبيه) ولو أراد إفراده عن معنى الاستعارة لقال (الخالي عن التشبيه) .

وقد جدد الخطيب القزويني أنواع العلاقة في المجاز المرسل وذكر منها تسعة أنواع ، زادها البلاغيون المتأخرون مثل بهاء الدين السبكي والتفتازاني وبلغوا بها خمسة وعشرين نوعاً . وسوف نقتصر على أنواع محددة من العلاقة في المجاز المرسل هي الأكثر استخداماً في التعبير الأدبي شعره ونثره ، بل نجدها مستخدمة أحياناً كثيرة في لغتنا اليومية .

١ ـ **الجزئية** : بمعنى تسمية الشيء باسم جزئه والمراد الحقيقي كله ، فنحن

نقول : له من العمر عشرون ربيعاً ، ولا نقصد فصل الربيع الذي هو جزء من العام ، بل نقصد العام نفسه ، فكأنا أطلقنا الجزء على الكل ، وهذا الكل هو الذي نعنيه . ومنه قولنا : أرسل العدو عيناً له ، ونقصد جاسوساً ، فالعين هو الجزء المهم منه الذي يستطلع به الأحوال ، ولهذا أطلق الجزء على الكل .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالىٰ : ﴿ فتحرير رقبة ﴾ وتحرير الرقبة مقصود به تحرير العبد من عبوديته ، فكأنه الرقبة وهي الجزء دلت على الكل المقصود وهو العبد نفسه . ويقول الشاعر : (إذا ما قلت قافية شروراً) وهو لا يعني قافية واحدة بل يقصد القصيدة بأكملها ، فدل الجزء على الكل .

ويشترط لإطلاق الجزء على الكل أن يكون الكل مركباً تركيباً حقيقياً وليس جمعاً لأمرين أو أكثر حيثما اتفق ، ولهذا يمتنع على سبيل المثال التعبير بلفظ (السماء) أو (الأرض) عن مجموع الأمرين . كذلك يشترط أن يكون للجزء المعبر به من الكل أهمية خاصة بالنسبة للكل ، وذلك إما بأن يكون للجزء مزيد اختصاص بالمعنى المقصود من الكل كما في إطلاق (العين) على الجاسوس لأنها أهم أعضاء جسمه استخداماً في عمله ، أو يكون بحيث يلزم من انعدام هذا الجزء انعدام الكل ، كما في (الرقبة) بالنسبة للإنسان . .

٢ ـ **الكلية** : وهي نقيض العلاقة السابقة بمعنى تسمية الشيء باسم كله والمقصود الجزء ، كما نجد في قوله تعالىٰ : ﴿ **يجعلون أصابعهم في آذانهم** ﴾ فذكر الكل (الأصابع) وأراد الجزء وهي (الأنامل) إذ ليس من المعقول أن يضع الإنسان إصبعه كلها في أذنه .

ومن ذلك أيضاً قولنا : شرب ماء النيل والمراد قدر ضئيل منه أو قولك : أسكن القاهرة أو الإسكندرية والمراد أنك تسكن في منزل بأحد أحيائهما . .

٣ - **السببية** : وهي تسمية المسبب باسم السبب ، كما في قولك : جلّت يده عندي وأنت تعني من الذي عظم عندك فضله وإنعامه ، فلما كانت اليد سبباً في تقديم هذا الفضل والإنعام ناب السبب عن المسبَّب .

ومن ذلك قولهم (رعينا الغيث) والغيث أي المطر لا يُرعى وإنما يرعىٰ النبات الذي سببه المطر .

ومنه قوله تعالى : ﴿ **فمن اعتدىٰ عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدىٰ عليكم** ﴾ فسمىٰ جزاء الاعتداء اعتداء لأنه مسبَّب عن الاعتداء .

٤ - **المسببية** : وهي تسمية السبب باسم المسبِّب ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامىٰ ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً** ﴾ فالنار هي المسبِّب والمراد المال الحرام الذي يكون سبباً فيها .

وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ **ويُنزل لكم من السماء رزقاً** ﴾، ولما كان المطر مسبِّباً للرزق جعل السبب نائباً عن المسبِّب .

٥ - **المحلية** : وهي إطلاق اسم المكان على من يحل فيه ، مثلما نسمع في الأنباء عن إعلان البيت الأبيض موقفه من إحدىٰ القضايا الدولية والمقصود إعلان الرئيس الأمريكي من مقره في البيت الأبيض .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **فليدع ناديه** ﴾ والمقصود أهل ناديه المجتمعون فيه ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ **واسأل القرية التي كنا فيها** ﴾ وهو يعني أهل القرية .

٦ ـ **الحالية** : وهي نقيض العلاقة السابقة أي أننا نذكر لفظ الحال ونريد المحل ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ **وأما الذين أبيضت وجوههم ففي رحمة الله** ﴾. ولما كانت الجنة هي المكان الذي تحل فيه الرحمة ، ذكرت الرحمة والمقصود بها الجنة لأن الرحمة تحل فيها . ومثله قوله تعالىٰ : ﴿ **إن الأبرار لفي نعيم** ﴾ فالنعيم لا يحل فيه الإنسان ولكن يحل في مكانه ، فأطلق الحالّ على المحل .

٧ ـ **الآلية** : وهي ذكر اسم الآلة والمراد الأثر الناتج عنها ، كما في استخدام (اللسان) بمعنى اللغة لأنه آلتها الظاهرة في الإنسان ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه** ﴾ أي بلغة قومه ، ومنه قول تعالىٰ : ﴿ **واجعل لي لسان صدق في الآخرين** ﴾ أي اجعل لي ذكراً حسناً ، واللسان أداة هذا الذكر ، فأطلق آلة القول وأراد الأثر الناتج عنها .

٨ ـ **اعتبار ما كان** : أي تسمية الشيء باسم ما كان عليه في الزمن الماضي كما في قوله تعالىٰ :﴿ **وآتوا اليتامىٰ أموالهم** ﴾ فالأمر برد مال اليتيم إليه يعني رفع الوصاية عنه فإذا وصل إلى سن البلوغ لا يسمى يتيماً . فاستخدام لفظ (اليتامىٰ) في الآية مجاز علاقته اعتبار ما كان في الزمن الماضي .

ومن ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ **إنه من يأتِ ربه مجرماً** ﴾ فسماه مجرماً باعتبار ما كان عليه في الدنيا من الإجرام .

٩ ـ **اعتبار ما سيكون** : ونعني بها تسمية الشيء بما يؤول إليه في المستقبل كما في قوله تعالىٰ : ﴿ **إني أراني أعصر خمرا** ﴾ والخمر لا تعصر وإنما هو العنب الذي سوف يتحول عصيره إلى خمر .

وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ ولا يلدوا إلّا فاجراً كفاراً ﴾ فالمولود حينما يولد لا يكون فاجراً ولا كفاراً ، ولكنه قد يكون كذلك بعد أن يتحول من مرحلة الطفولة إلى الرجولة فهذا القول مجاز مرسل علاقته اعتباراً ما سيكون في المستقبل .

١٠ ـ **المجاورة** : ونعني بها تسمية الشيء وليس هو المراد بل ما يجاوره وقد مثلوا لهذا النوع بقول عنترة في معلقته :

فشككت بالرمح الطويل ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

فالمجاز العقلي هنا في كلمة (ثيابه) وهي ليست المقصودة ، بل المقصود ما يجاورها من القلب أو غيره من مواضع الجسد التي يصيب منها الرمح ثقيلاً وهناك علاقات أخرىٰ كثيرة اكتفينا منها بما قدمنا لأنه الأكثر استخداماً في التعبير البياني .

الاستعارة

ذكرنا من قبل أن الاستعارة نوع من المجاز تقوم العلاقة فيه بين المعنى الأول للكلمة ومعناها الثاني الذي انتقلت إليه على المشابهة .

وقد التفت إليها البلاغيون منذ عهد بعيد ووضعوا تعريفات لتحديدها . فالجاحظ يقول (الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه ، وقد عرفها ابن المعتز بأنها (استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها ، وأتى بأمثلة للحسنة منها والمعيبة ، وعرفها القاضي الجرجاني بقوله (وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها) ويقول الرماني إنها (تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة إلى غيره). ويكاد أبو هلال يستخدم التعريف نفسه في قوله (الاستعارة نقل العبارة موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض) وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى بعض تعريفات هؤلاء البلاغيين الأعلام موضحاً استعمالهم لفظ (النقل) في الاستعارة . ويرى بعض الباحثين وجود تشابه بين هذا اللفظ وبين ما استخدمه « أرسطو » في تعريف الاستعارة، مما يوحي بوجود تأثير وتأثر في هذا المجال .

غير أن عبد القاهر يرى أن الاستعارة لا ينبغي تحديدها بنقل العبارة عما

وضعت لـه ويقول في ذلـك : « ومن شـأن مـا غمض من المعـاني ولـطف أن يصعب تصويره على الوجه الذي هو عليه لعامة الناس فيقع لذلك في العبارات التي يعبر بها عنه ما يدهم الخطأ ، وإطـلاقهم في الاستعارة أنهـا نقل للعبـارة عما وضعت له من ذلـك فلا يصح الأخذ بـه ، وذلك أنـك إذا كنت لا تطلق اسم الأسد على الرجل إلاَّ من بعد أن تدخله في جنس الأسود من الجهة التي بينا (يعني بها الشجاعة) لم تكن نقلت الاسم عما وضع له بالحقيقـة ، لأنك إنما تكون ناقلاً إذا أنت أخرجت معناه الأصلي من أن يكون مقصودك ونفضت به يدك ، فإما أن تكون ناقلاً له عن معناه مع إرادة معناه فمحال متناقض » ومن الأمثلة التي يسوقها عبد القاهر لتأكيد قوله بيت لبيد :

وغـداة ريـح قـد كـشـفـت وقـرة إذ أصبحت بيـد الشمـال زمـامهـا

فلا خلاف في أن اليـد استعارة، لكن لا يمكن القـول بأن لفظ اليـد قد نقل عن شيء إلى شيء، لأن هذا النقل كان يسـوغ لو أن المعنى على تشبيـه هذا الشيء باليد ، فيقال حينئذٍ إنه نقل لفظ اليد إليه ، وإنما المعنى على أنـه أراد أن يثبت للشمال تأثيراً قوياً في الغداة وتصرفاً شبيهـاً بتصرف الإنسـان في الشيء الذي يمسكه بيـده فهو يقلبـه كيفما شـاء . يقول عبـد القاهـر : « فلما أثبت لها مثل فعل الإنسان باليد استعار لها اليد ، وكما لا يمكنك تقدير النقل في لفظ اليـد كذلـك لا يمكنك أن تجعـل الاستعارة فيـه من منعة اللفظ ، ألا ترى أنه محال أن نقول إنه استعار لفظ اليد للشمال » .

ومن الأمثلة الأخرىٰ التي ساقها عبد القاهر لـلإضراب عن تحـديد معنى الاستعارة بالنقل بيت المتنبي :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه وفـي أذن الـجـوزاء مـنـه زمـازم

وفي رأيه أن الشاعر لما جعـل الجوزاء تسمـع بالـغ في ذلك وأثبت لهـا

الأذن التي بها يكون السمع من الإنسان، ولا نستطيع أن نقول إن المتنبي قد استعار لفظ الأذن لأنه يوجب أن يكون في الجوزاء شيء قد أراد تشبيهه بالأذن وذلك محال .

والنتيجة التي أراد عبد القاهر أن يصل إليها في تعريف الاستعارة أنها (ادعاء) معنى الاسم للشيء وليس (نقل) الاسم عن الشيء . كذلك أراد تصحيح ما ذكره البلاغيون السابقون وهو أن الاستعارة تعليق للعبارة على غير ما وضعت له في اللغة ونقل لها عما وضعت له ، واعتراضه على ذلك أنه إذا كانت الاستعارة ادعاء معنى الاسم ـ كما بيّن ـ لم يكن الاسم مزالاً عما وضع له بل يُقرّا عليه .

والخلاف بين عبد القاهر والبلاغيين السابقين في هذا التعريف الاصطلاحي للاستعارة هو في الحقيقة خلاف حول المفهوم التجريدي للنظر (النقل) و(الادعاء) ومحاولة لتحديد ماهية علاقة (المشابهة) التي تقوم عليها الاستعارة أساساً ، لكن إذا نظرنا في المفهوم الحقيقي للفظين وجدنا أن (نقل) اللفظ لا يوجب إخراجه عن معناه الحقيقي ، ويمكن أن تكون للكلمة المستعارة دلالتان : حقيقية ومجازية .

والتعريف الذي اختاره عبد القاهر للاستعارة (أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل عليه الشواهد على أنه اختفىٰ به حين وُضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلاً غير لازم فيكون هناك كالعارية).

ونجد عبد القاهر يقسم الاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة قبل أن يمضي إلى ذكر أقسام الاستعارة المفيدة في رأيه .

أما غير المفيدة في رأيه فهي التي لا يعدو أن يكون النقل فيها وضع لفظ مكان آخر ولعل نظرته إلى هذا النوع من الاستعارة التي تقتصر على

التبادل اللفظي وتخلو من عمق المعنى والإحساس الشعوري به هو الـذي أدىٰ به إلى رفض (النقل). فإذا استبدلنا بالشفة في الإنسان (المشفـر) وهو اسم العضو نفسه في البعير ، عد ذلـك استعارة، ولكنهـا في رأي عبد القـاهر غيـر مفيدة لأن الاسم المنقول لا يأتي بجديد نفتقده في الاسم الأصلي . ولا شـك أننا لا نوافق عبد القاهر على هذا الحكم ، وهو نفسه قد اعترف لهذا النوع من الاستعارة فضله ومزيته ولكنه قصره على مواضع الذم والعيب ، فإذا قلنا فـلان غليظ المشافر ، كان معناه أن شفتيه في الغلظ كأنهـا مشفر البعيـر ، ومنه قـول الفرزدق :

فلو كنـت ضبيـاً عـرفت قـرابـتي ... ولـكن زنـجيـاً غـليظ الـمـشـافـر

فهو يتضمن معنى قولك : ولكن زنجياً كأنه جمل لا يعرفني ولا يهتـدي لشرفي : والاستعارة هنا مفيدة تماماً في معنى الهجاء الذي أراده الفـرزدق ولا يمكن أن تخليهـا من الفائـدة ولا من التصويـر الشعـوري الـدقيق الـذي حـدا بالشاعر إلى استخدام هذه الاستعارة وما فيها من نقـل مشفر البعيـر مكان شفـة الإنسان .

وإذا تأملنا نصوص الشعر والنثر قديمهمـا وحديثهمـا فسنجد أمثلة كثيـرة تؤكد عدم صحة حكم عبد القاهر على هـذا النوع من الاستعـارة حكماً مـطلقاً بأنه غير مفيد ولعل بيت الحطيئة الذي استعطف به عمر بن الخطاب رضي الله عنه لإخراجه من سجنه يبين لنا من ما ذهبنا إليه فهو يقل :

مـاذا تقـول لأفـراخ بـذي مـرخ ... زغـب الحـواصـل لا مـاء ولا شجـر

فقد نقل الشاعر في البيت (الأفراخ) المخصصة في اللغة لصغار الـطير إلى أولاده الصغـار ليؤكد لهم معنى الضعف والعجـز عن حمايـة أنفسهم فبلغ بهذه الاستعارة ما أراد من تصوير شعوري دقيق .

وقد آثر السكاكي الأخذ باصطلاح عبد القاهر وهو (الادعـاء) حين عرف الاستعارة بقوله (هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به ،دالاً علىٰ ذلـك بإثبـاتك للمشبـه ما يخص المشبه به).

وهـذا التعريف الـذي أورده السكاكي أدق مـا وصل إلينـا من تعريفـات البلاغيين ، وقد أخذ به المتأخرون وإن كـانوا قـد فرعـوا من الاستعارة أقسـاماً كثيرة باعتبار الطرفين ، وباعتبار الجامع وباعتبار طرفيها والجامع معاً ، وباعتبار اللفظ ، وباعتبار الخارج . بينما نجد عبد القاهر قد تحدث عن الاستعـارة من حيث هي مفيـدة أو غير مفيـدة ـ كما سبق أن بينـا ـ كما تحـدث عن الاستعارة التحقيقية والتخيلية والتمثيلية . أما السكاكي فقد عرض للاستعـارة التصريحيـة والمكنية والتحقيقية والتمثيلية والأصلية والتبعية .

الاستعارة التصريحية والمكنية

لما كانت الاستعارة مبنية على التشبيه، والتشبيه له طرفان : مشبه ومشبه بـه ، اختلفت الاستعـارة عن التشبيـه بسبب مـا فيهـا من (نقـل) المعنى أو (الادعاء) وذلك بحذف أحد طرفي التشبيه . فإذا حذفنا المشبه وصرحنا بلفظ المشبه به ، أطلقنـا على هذا النـوع من الاستعارة (تصـريحية) لأننـا تناسينـا المشبه وادعينا أن المشبـه به هـو المشبه ، وصـرحنا بـه . كما نـرى في قولـه تعالىٰ : ﴿ **كتاب أنـزلناه إليـك لتخرج النـاس من الظلمـات إلى النور** ﴾ فقـد شبهت الآيـة الضلال بـالظلمـات والهدىٰ بـالنور فحـذفت المشبهين وصرحت بالمشبهين بهما ، ولابد من وجود قرينة تمنع إرادة المعنى الحقيقي ، وهي هنا قرينة حالية تفهم من سياق الكلام .

كذلك آلأمر في قول المتنبي :

وأقبـل يمشي في البسـاط فمـا دري إلى البحر يسعىٰ أم إلى البدر يرتقى

فقد أراد الشاعر تشبيه الممدوح بالبحر في التطام أمواجه وجبروته لينـزل الـرعب في قلب رسول الـروم الذي جـاء يسعىٰ إليه ، فحـذف المشبـه وهـو الممـدوح وخرج بـالمشبه بـه وهو البحـر والقرينـة التي تمنع من إرادة المعنى

الحقيقي للبحر قوله عن رسول الروم (فأقبل يمشي في البساط) وهي قرينة لفظية .

كذلك أراد الشاعر تشبيه الممدوح بالبدر فحذف المشبه وصرح بالمشبه به وهو البدر في علاه وضيائه ، والقرينة التي تمنع من إرادة المعنى الحقيقي للبدر هي نفسها القرينة اللفظية السابقة .

وهناك نوع آخر من الاستعارة لا نصرح فيه بلفظ المشبه به (المستعار منه)، بل نرمز إليه بشيء من لوازمه، أو خاصية من خواصه ، وتسمىٰ هذه الاستعارة (مكنية) لأننا حذفنا المشبه به وكنينا عنه أو رمزنا له بشيء يدل عليه. ومن ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** ﴾ فقد شبه الذل بطائر واستعار لفظ المشبه به وهو الطائر للمشبه وهو الذل ، ثم حذف المشبه به (الطائر) ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو (الجناح).

وكذلك نجدها في قول أبي ذؤيب الهذلي :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فقد شبه الموت بوحش مفترس ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الأظفار ، ونلاحظ أن المشبه في الاستعارة المكنية موجود ، ولهذا صح قول البلاغيين في الاستعارة إنها تشبيه حذف أحد طرفيه .

وإذا تأملنا في شعرنا العربي الحديث فسنجده زاخراً في صوره الغنية بالاستعارات كما نرى في أبيات إبراهيم ناجي :

والبلى أبصرته رأي العيان ويداه تنسجان العنكبوت
صحت: ويحك تبدو في مكان كل شيء فيه حي لا يموت
كل شيء من سرور وحزن والليالي من بهيج وشجي
وأنا اسمع أقوام الزمن وخطىٰ الوحدة فوق الدرج

فقد عقد الشاعر علاقة تشبيهية بين البلى والزمن والوحدة من جهة والإنسان من جهة أخرىٰ وحذف المشبه به وهو الإنسان ودل على أشياء من لوازمه في كل استعارة ، كاليدين والأقدام والخطىٰ ، وبذلك نرى في الأبيات ما سميناه بالاستعارة المكنية في ثلاثة مواضع .

الاستعارة الاصلية والتبعية

أدرك البـلاغيـون أن اللفظ المستعـار (الـدال على المشبـه بـه) في الاستعارة التصريحية تتعدد صيغه فيأتي اسماً جامداً مثل كلمة (بحر) في بيت المتنبي السابق ، أو يأتي فعلاً كما في قول المتنبي :

أمـا تـرى ظفـراً حلواً سـوى ظفـر   تصـافحت فيـه بيض الهنـد واللمم

فالاستعارة وقعت في الفعل (تصافحت) إذ شبـه التقاء السيـوف باللمم بمصافحة الأيادي فحذف المشبه وأبقىٰ المشبه به .

ويأتي في أحيان ثالثة اسماً مشتقاً كقولنا (مـاضيه نـاطق بالصـدق) فقد استعرنا لفظ النطق للدلالة الـواضحة على صـدقه واشتققنـا منه (اسم الفـاعل ناطق) بمعنى دال على سبيل الاستعارة التصريحية .

وفي ضوء إدراك البلاغيين للطبيعة النحوية للفظ الذي تقع فيه الاستعارة قسموها نوعين :

أصلية : وهي ما كـان المستعار فيهـا اسم جنس غير مشتق سـواء أكان اسم ذات أي مـا دل على شيء مجسم محسـوس مثـل : رجـل ، كتـاب ،

بيت ، أو اسم معنى وهو ما يدل على شيء معنوي ونعني بها المصادر : كالنُّطق أو الأكل أو العلم ، وسواء أكان اسم جنس حقيقة مثل : رأيت أسداً في المعركة ، أم تأويلاً كالأعلام المشتهرة بصفة مثل : رأيت حاتماً ، فالأسد اسم جنس جعلناه دالاً على الشجاعة ، وحاتم الطائي علم مشهور بالكرم جعلناه اسم جنس تأويلاً للدلالة على الكرم .

تبعية : وهي ما كان المستعار فيها فعلاً (كما في قول المتنبي « تصافحت ») أو اسماً مشتقاً (كما في قولنا « ناطق » في المثال السابق) والاسم المشتق هو ما أخذ من غيره مع الاتفاق في المعنى والمادة ويدل على ذات وصفة والمشتقات هي : اسم الفاعل واسم المفعول ، والصفة المشبهة واسم التفضيل، واسم الزمان ، واسم المكان ، واسم الآلة .

ويرجع الاهتمام بتقسيم الاستعارة إلى أصلية وتبعية إلى كون الاستعارة تتم في الأسماء الجامدة بصورة مباشرة، أما الاستعارة في الأفعال والأسماء المشتقة فتتم بصورة غير مباشرة ، إذ تجري الاستعارة أولاً في المصدر ثم في الفعل . وهذا الاختلاف أمر شكلي لا نهتم به كثيراً في تحليل الصورة الفنية المعتمدة على الاستعارة إذ نحاول معرفة الأبعاد الجمالية دون تدخل المصطلحات النحوية التي لا يؤثر اختلافها في تلك الأبعاد .

الاستعارة المطلقة والمجردة والمرشحة

إن الاستعارة ـ كما سبق أن بيّنا ـ تقوم على علاقة المشابهة بين المدلول الأصلي للكلمة والمدلول الذي أعيرت إليه ، وقد تقوي هذه المشابهة بحيث تصير ادعاء بأن المشبه واحد من أفراد المشبه به وداخل في جنسه ، ولهذا يُعبر عنه بلفظه أو بصفة من صفاته .

فإذا زاد المتكلم في مبالغته وأمعن في إرادة المعنى الأصلي للكلمة بذكر ما يتصل بالمعنى ويتناسب معه ، حتى ليخيل إلى السامع أو القارىء أن المقصود هو المعنى الحقيقي ، سمى ذلك ترشيحاً للاستعارة أي تقوية وتأكيداً لها ، كما تتمثل في قول المتنبي :

رميتهم ببحر من حديد   له في البر خلفهم عباب

فقد استعار الشاعر لضخامة الجيش وقوته لفظ (البحر) وقوى هذه الاستعارة بذكر (البر) و(العباب) وهما مناسبان لمعنى البحر حتى ليخيل للمرء أن البحر معنى حقيقي مقصود ، ومن هنا سميت هذه الاستعيارة (مرشحة) .

ومن هذه الاستعارة قوله تعالىٰ : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة

بالهدىٰ فما ربحت تجارتهم ﴾ فقد استعير (الشراء) لمعنى الإيثار والتفضيل ، ثم ذكر (الربح) و(التجارة) وهما لفظان ملائمان لمعنى الشراء حتى صار كأنه المعنى الحقيقي المقصود ، وهما تأكيد وتقوية للمعنى الاستعاري في الشراء ، ولهذا كانت الاستعارة هنا مرشحة .

فإذا حدث العكس وجردنا المشبه به مما يقويه ويؤكده ، وتضمن أسلوب الاستعارة ما يتلاءم مع المشبه ، سمىٰ تجريداً للاستعارة ، وتبين هذا في قول كثير :

غَمْرُ الرِّداء إذا تبسَّم ضاحكاً   غَلِقَتْ لضحكته رقاب المال

فقد استعار الرداء للمعروف لأنه يصون عرض صاحبه ، كما يصون الرداء ما يستره ، ووصفه بالغمر وهو وصف للمشبه (المعروف) وليس المشبه به (الرداء) ، ولهذا سميت هذه الاستعارة مجردة .

وقد تأتي الاستعارة متضمنة ما يلائم المشبه (المستعار له) والمشبه به (المستعار منه) كقول كثير :

رمتني بسهم ريشُهُ الكُحْل لم يَضِرْ   ظواهرَ جلدي وهو للقلب جارح

فقد استعار السهم لنظرة العين ، واستخدم (الريش) وهو مما يلائم المشبه به ، واستخدم (الكحل) وهو مما يلائم المشبه ، ولهذا سميت هذه الاستعارة (مطلقة).

كذلك تسمى الاستعارة مطلقة إذا خلت مما يلائم المستعار منه أو المستعار له كما في قوله تعالىٰ : **﴿ إنا لما طغىٰ الماء حملناكم في**

الجارية ﴾. ففي لفظ (طغى) استعارة تصريحية تبعية إذ شبه الزيادة في الماء بالطغيان واشتق من المصدر الفعل (طغى) ، والقرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي لفظية وهي (الماء) . والاستعارة هنا مطلقة لأنها لم تقترن بما يلائم المستعار له أو المستعار منه .

الاستعارة التمثيلية

في الأمثلة السابقة التي قدمناها نلاحظ أن الاستعارة تقع في كلمة ولهذا نسميها استعارة مفردة ، ولكن هناك نوع آخر من الاستعـارة يقع في التركيب، أي أن هذا التركيب مستعمل في غير دلالتـه الأصلية للمشـابهة بين مـوقفين ، وهذه الاستعارة تماثل التشبيه المركب ومن هنا كان اسمها الاستعارة المركبة ، أو التمثيليـة قياسـاً على تسميتنا التشبيـه المركب بـالتمثيلي . ومن الطبيعي ألا يذكر المشبه في الاستعارة المركبة وإنما يفهم من السياق ودلالة الحال .

وسميت هذه الاستعارة بالتمثيلية مع كون التمثيل عامـاً في كل استعـارة تنويهـا بعظم شأنها وكأن غيرها من الاستعارات ليس فيه تمثيل .

ومن أمثلة الاستعارة التمثيلية الشـائعة قـولك لمن يتـردد في فعل أمـر : أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، والأصل في الكلام أن تقـول : أراك في ترددك كـالذي يقـدم رجلاً ويؤخـر أخرى ، ثم اختصـر الكلام وجعـل تقديم الـرجل وتأخيرها كأنه الحقيقة .

وتقول للذي يبذل جهداً في غير طـائل : أراك تنقش على مـاء والمعنى أنك فيما تبذله من جهد دون أن تحصل على طائل كالذي ينقش على الماء .

وتقول لمن يبعثر المال الذي ورثه بيت الشاعر :

ومن ملك البلاد بغير حرب   يهون عليه تسليم البلاد

والعلاقة في هذه الاستعارة التمثيلية أنك شبهت حال الذي يبعثر المال الذي ورثه دون أن يبذل جهداً في جمعه وكسبه بحال الذي استولى على أرض بغير حرب فهان عليه التفريط فيها ، وقد استعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية والقرينة حالية تفهم من سياق الكلام .

وحين تشيع الاستعارة التمثيلية ويكثر استعمالها تصبح مثلاً وهو يتميز بأنه قول موجز يجمع معاني كثيرة في ألفاظ قليلة ، ويخاطب به المفرد والمثنى والجمع ، مذكراً أو مؤنثاً بلا تغيير . فتقول لمن يدرك أمرين بتدبير واحد : رمى عصفورين بحجر ، وتقول لمن يطلب أمراً بعد فوات الأوان : الصيف ضيعتِ اللبن بكسر تاء الفاعل لأن هذا المثل خوطبت به امرأة في الأصل ، فلا تغير صورته عند استعماله في مذكر يشابهه ، أياً يكن المخاطب به (هذه المرأة تركت زوجها وعنده لبن، وأتت بعد فراقها له تطلب اللبن منه فقال لها العبارة المشهورة).

ولا شك أن الاستعارة في جميع صورها تقرر الصفة بطريقة مؤكدة موجزة قريبة من تجربة السامع أو القارىء ، وهي تمتاز عن التشبيه بأنها أكثر إيجازاً لأنها حذفت أحد طرفي التشبيه ، كما أنها أكثر تأكيداً لأنها جعلت المشبه داخلاً في جنس المشبه به ، أو مستحقاً لأن يوصف بصفاته . وهي قادرة على التشخيص والتجسيم وإشاعة الحياة في الصورة . ويعيب الاستعارة شيوعها حتى إنها تفقد قيمتها ، وكلما كانت الاستعارة مبتكرة كانت أقدر على إشاعة الخيال والإحساس الجمالي .

الفصل الرابع

الكناية

الكنايه عن الشيء لغة ترك التصريح به، وفي اصطلاح البلاغيين : لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى ، فقديماً قالوا : فلان طويل النجاد : أي طويل القامة مع جواز أن يراد حقيقة طول النجاد أيضاً وهي حمائل السيف لأن طوله يستلزم طول القامة . وقد التفت البلاغيون الأوائل إلى الكناية فتحدث عنها أبو عبيدة في كتابه (مجاز القرآن) إذ ذكر قوله تعالىٰ (كل من عليها فان) وقوله (حتىٰ توارت بالحجاب) وقوله (كلا إذا بلغت التراقي) فقال إن الله سبحانه وتعالى كنى في الأولى عن الأرض ، وفي الثانية عن الشمس ، وفي الثالثة عن الروح من غير أن أجرى ذكرها .

وأشار الجاحظ في البيان والتبيين إلى الكناية والتعريض ، وأورد قول شريح (الحدة كناية عن الجهل) وقول أبي عبيدة (العارضة كناية عن البذاء)، وإذا قالوا (فلان مقتصد) فتلك كناية عن البخل ، وإذا قيل للعامل (مستقص) فتلك كناية عن الجور.

وجعل المبرد الكناية على ثلاثة أوجه : فهي إما للتعمية والتغطية ، وإما للرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره ، وهذا

النوع في نظره أحسن أنواع الكناية ، يقول : ويكون من الكناية وذاك أحسنها : الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره ، قال الله وله المثل الأعلىٰ ﴿ **أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم** ﴾ وقال: ﴿ **أو لامستم النساء** ﴾ والملامسة في قول أهل المدينة مالك وأصحابه غير كناية ، وإنما هو اللمس بعينه . وإما للتفخيم والتعظيم وهذا هو الوجه الثالث وذكر فيه أن الكنية اشتقت من هذا النوع .

وتحدث عنها ثعلب في كتابه (قواعد الشعر) وسماها بطانة المعنى وعرفها بقوله : هي الدلالة بالتعريض عن التصريح ، ومثل لها بقول عروة بن الورد :

اقسم جسمي في جسوم كثيرة   وأحسو قراح الماء والماء بارد

يريد : أوثر أضيافي بزادي .

وأشار ابن المعتز إلى الكناية وأتى بأمثلة لها من الشعر والنثر . وسماها قدامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر) الإرداف وعرفها بقوله (هو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى ، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له ، فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع . ومثل له بقول عمر بن أبي ربيعة :

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل   أبوها وإما عبد شمس وهاشم

فالشاعر أراد أن يصف طول جيدها فلم يذكره بلفظه الخاص به ، بل أتىٰ بمعنى دل عليه من طول مهوى القرط ، وواضح أن بعد مهواه ردف لطول الجيد .

وقد رأى ابن رشيق القيرواني أن من أنواع الإشارة (التتبيع) وذكر أن قدماً يسمونه (التجاوز) وهو أن يريد الشاعر ذكر الشيء فيتجاوزه ويذكر ما

يتبعه في الصفة وينوب عنه في الدلالة عليه ، ثم قال : وأول من أشار إلى ذلك امرؤ القيس يصف امرأة :

ويضحى فتيت المسك فوق فراشها   نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

فقوله (يضحي فتيت المسك) تتبيع ، وقوله (نؤوم الضحى) تتبيع ثان ، وقوله (لم تنتطق عن تفضل) تتبيع ثالث ، وإنما أراد أن يصفها بالترف والنعمة وقلة الامتهان في الخدمة ، وأنها شريفة مكفية المؤونة ، فجاء بما يتبع الصفة ويدل عليها أفضل دلالة . وهذا الذي شرحه ابن رشيق وسماه التتبيع أو التجاوز هو نفسه الكناية .

ويعرف عبد القاهر الكناية بقوله (أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومىء به إليه ويجعله دليلاً عليه) .

وفي هذا التعريف بيان بأن استخدام اللفظ في غير معناه الذي استقر عليه لا يتم كيفما اتفق بل على أساس علاقة تربط بين المعنيين ، وهذا قائم أيضاً في المجاز ، غير أن العلاقة في الكناية تنحصر في علاقة الردف أو التبعية ، أو هي علاقة التلازم بين المعنى الذي يدل عليه ظاهر اللفظ والمعنى الآخر المراد منه .

والتلازم القائم بين المعنيين في الكناية مصدره العرف والعادة ، فعض اليدين مثلاً يرتبط بالحسرة والندم ، ويتضح تأثير الهيئة في الكناية في قولهم (فلان كثير الرماد) للدلالة على الكرم إذ أن من تقاليد البيئة الجاهلية تقديم الطعام الذي يتم نضجه على الحطب الذي يتخلف عنه الرماد ، فكثرته دليل على كثرة الضيوف .

وفي عصرنا الحديث نستخدم كنايات فيها روح العصر كقولنا (ينظر إلى

الدنيا بمنظار أسود) كناية عن التشاؤم، أو (ينبغي للدول المستضعفة أن تتحدث بلغة (المدفع) كناية عن استخدام القوة .

ولا شك أن الكناية تمثل المعنى للخيال بإدراك حسي أو وجداني ، وتثير الذهن للبحث عن المعنى المستتر وراء الصورة ، إلى جانب ما فيها من طرافة التعبير . وقد شاع استعمال بعض الكنايات حتى في كلامنا العادي حتى فقدت قيمتها الفنية وتأثيرها النفسي كما نقول في إنسان سريع التأثر (خفيف القلب) وفي الكريم (بابه مفتوح) ولا شك أن تجريد الكناية يحرك الفكر ويبعث على التأمل ويقضي على الرتابة . وتتسم الكناية بطابع التمثيل والتشخيص للمعاني حتى لتقترب كثيراً من فن الرسم ، وربما الرسم الساخر أحياناً (الكاريكاتيري) ويتضح ذلك في قولنا عن البخيل (يده مغلولة إلى عنقه)، أو في شخص كبرت سنة (انحنى ظهره وأخذ يدب على العصا) .

وإرادة لازم المعنى في الكناية أشبه ما يكون بتأكيد إثبات الصفة ، وذلك أقوى من التعبير الصريح المباشر ، يقول عبد القاهر في ذلك (أما الكناية فإن السبب في أن كان للإثبات بها مزية لا تكون للتصريح أن كل عاقل يعلم ، إذا رجع إلى نفسه ـ أن إثبات الصفة بإثبات دليلها ، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها ، آكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا سازجاً غفلاً ، وذلك أنها لا تدعي شاهداً الصفة ودليلها إليها والأمر ظاهر معروف ، وبحيث لا يشك فيه ، ولا يظن بالمخبر التجوز والغلط) .

اقسام الكناية

تنقسم الكناية ثلاثة أنواع باعتبار المكنى عنه أي الموصوف :

فالنوع الأول يكون المكنى عنه صفة من الصفات كالكرم أو الشجاعة أو العفة ، كما نجد في قول الخنساء :

طويل النجاد رفيع العماد   كثير الرماد إذا ما شتا

فكنت عن طول قامته بطول النجاد وعن كرمه بكثرة الرماد .

وقد مر بنا قول امرىء القيس :

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها   نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفصل

ففي البيت كنايات ثلاث هي في أصلها صفة ، وتدل الثلاث على حياة الرفاهية والنعمة التي تحياها هذه المرأة ، فهي تتعطر ولا تنهض مبكرة من فراشها بل تظل فيه حتى الضحىٰ لوجود الخدم الذين يقضون عنها شئون بيتها ، وهي لا ترتدي في الكناية الثالثة ملابس الخدمة المنزلية لأنه لا حاجة بها إلى ذلك .

كما مر بنا قول عمر بن أبي ربيعة (بعيدة مهوى القرط) وهي كناية عن

صفة أراد امتداح محبوبته بها وهي طول الجيد .

ويقول المتنبي :

فمسّاهم وبسطهم حرير وصبحهم وبسطهم تراب

فكنى عن صفة النعيم والترف التي كانوا فيها بقوله (وبسطهم حرير) ثم كنى عن صفة الخراب والضنك التي حلت بهم بقوله (وبسطهم تراب) .

والنوع الثاني : يكون المكنى عنه نسبة يزاد بها إثبات الصفة للشيء بإثباتها لما يلابسه ويعد جزءاً منه كقولنا (الحزم في إهابه) فإثبات الحزم للإهاب يلزم بالضرورة إثباته للشخص نفسه .

ومثله قول أبي نواس :

فما جازه جود ولا حل دونه ولكن يصير الجود حيث يصير

فهو يثبت جود الممدوح بإثباته للمكان الذي يكون فيه .

وكذلك قول الشنفري :

يبيت بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما بيوت بالملامة حلت

فقد نفى اللوم عن بيتها وهو نفي اللوم عن شخصها . فهي تتجنب كل ما يسيء إلى بيتها ويوجه إليه اللوم .

والنوع الثالث : لا يكون المكنى عنه صفة أو نسبة بل هي كناية الموصوف بشرط أن تكون الكناية مختصة بالمكنى عنه لا تتعداه كقول الشاعر :

الضاربين بكل أبيض مُخْذَمٍ والطاعنين مجامع الأضغان

فقد كنى بمجامع الأضغان عن القلوب وهي الموصوف ولا تكون

الأضغان أو عاطفة الكره إلاَّ بها . وكذلك الشأن في بيت البحتري حين يصف قتله الذئب :

فـأتبعتهـا أخــرى فـأضللت نصلهــا بحيث يكـون اللب والرعب والحقـد

فـالقلب هـو المـوصـوف بتلك الكنــاية (حيث يكــون اللب والـرعب والحقد) وهي ثلاث كنـايات لاستقـلال كل واحـدة بإفـادة المقصود ، والقلب موضع هذه الصفات جميعاً .

ومن ذلـك قولـه تعالىٰ : ﴿ وحملنـاه على ذات ألواح ودسـر ﴾ فـذات الألواح والدسر أي المسامير كناية عن موصوف هي السفينة .

ويقول شوقي :

إن الــذي مــلأ اللغــات محاسنــا جعــل الجمـال وســره في الضــاد

فقد كنى عن اللغة العربية وهي الموصوف بالضاد بوصفها من الحـروف التي تتميز بها اللغة العربية عن سواها .

وفي كـل ما مـر بنا من أنـواع الكنايـات لا نجد لفـظاً أخـرج عن معنـاه الحقيقي إلى معنى مجـازي ، والذي يفـرق بين الكنايـة والمجاز عـدم وجـود قرينة تمنع من إرادة المعنى الحقيقي في الكناية ، بينما يشتمل أسلوب المجاز على قـرينـة تمنـع من إرادة المعنى الأصلي . فقـد ذكــرنـا قــولـه تعــالى : ﴿ يجعلون أصابعهم في آذانهم ﴾ قائلين إنه مجاز مرسل علاقته الكليـة إذ قيل الأصـابع والمـراد الأنـامـل ، ويستحيـل أن يـراد المعنى الحقيقي لـلأصـابـع لاستحالة إدخالها في الآذان.

وإذا نظرنا في مثال للاستعارة المكنية مر بنا وهو قول الشاعر :

وإذا الـمنيــة أنشبــت أظـفــارهــا ألـفيـت كــل تـميـمــة لا تـنـفـع

استحال علينا أن نصدق وجود أظافر للمنية في الحقيقة . أما في اسلوب الكناية فيمكن تصور الحقيقة فيما تكنى عنه ، فإذا تأملنا قول المتنبي (فمساهم وبسطهم حرير) أمكننا أن نتصور في الحقيقة افتراشهم بسطاً من الحرير وقوله (وصبحهم وبسطهم تراب) أمكننا أن نتصور في الحقيقة انهم افترشوا التراب بعد أن حطم سيف الدولة ما يملكونه .

القسم الثاني

نصوص بلاغية في البيان



١ ـ من كتاب (البديع) لعبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال عبدالله بن المعتزّ رحمه الله . قد قدّمنا في أبواب كتابنا هـذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلّى الله عليه وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدّمين من الكلام الّذي سمّاهُ المحدثـون البديـعَ ليُعلمَ أنّ بشّـاراً ومسلماً وأبـا نواس ومن تقيّلهم وسلك سبيلَهم لم يسبقـوا إلى هـذا الفنّ ولكنّه كثـر في أشعارهم فعُـرِف في زمانهم حتّى سُمِّيَ بهـذا الاسم فأعْرَبَ عنه ودلّ عليه ثمّ إنّ حبيب بن أوس الـطائيّ من بعدهم شُغِفَ بـه حتّى غلَب عليه وتفرّع فيه وأكثر منـه فأحسن في بعض ذلـك وأساء في بعض وتلك عقبى الإفـراط وثمرة الإسـراف وإنّما كـان يقول الشـاعـر من هـذا الفنّ البيتَ والبيتين في القصيدة وربّما قُرئت من شعر أحدهم قصائدُ من غير أن يوجدَ فيها بيتٌ بـديعٌ وكـان يُستحْسَنُ ذلك منهم إذا أتىٰ نـادراً ويزداد حِـظوةً بين الكـلام المرسَل وقد كان بعض العلماء يُشَبِهُ الطائيّ في البديع بصالح بن عبد القدّوس في الأمثـال ويقول لـو أنّ صالحـاً نثر أمثـاله في شعـره وجعل بينهـا فصولاً من كلامه لسبق أهل زمانه وغلب على مدّ ميدانه وهذا أعْدَلُ كلام سمعته في هـذا المعنىٰ .

بسم الله

من الكلام البديع قول الله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ ٱلْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾.

ومن الشعر البديع قوله [من البسيط].

. . . والصُّبْحُ بِالْكَوْكَبِ الدُّرِّيِّ مَنْحُورُ

وإنَّما هو استعارة الكلمة لشيء لم يُعْرَفْ بها من شيء قد عُرِفَ بها مثل أمّ الكتاب ومثل جناح الذلّ ومثل قول القائل الفكرة مُخُّ العَمَلِ فلو كان قال لُبُّ العمل لم يكن بديعاً .

ومن البديع أيضاً التجنيس والمطابقة وقد سبق إليهما المتقدّمون ولم يبتكرهما المحْدثون وكذلك الباب الرابع والخامس من البديع .

وقد أسقطنا من كتابنا هذا أسانيدَ الأحاديث عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وعن أصحابه إذ كان ذلك من التكثير ولم نذكرْ إلاَّ حديثاً مشهوراً . ولعلّ بعضَ مَنْ قصّر عن السبق إلى تأليف هذا الكتاب ستحدّثه نفسه وتمنّيه مشاركتنا في فضيلته فيسمّى فنّاً من فنون البديع بغير ما سمّيناه به أو يزيد في الباب من أبوابه كلاماً منثوراً أو يفسّر شعراً لم نفسّره أو يذكر شعراً قد تركناه ولم نذكره إمَّا لأنّ بعض ذلك لم يبلغ في الباب مبلغ غيره فألقيناه أو لأن فيما ذكرنا كافياً ومُغنياً . وليس من كتاب إلاَّ وهذا ممكنٌ فيه لمن أراده وإنَّما غرضُنا في هذا الكتاب تعريف الناس أنَّ المحدَثين لم يَسْبقوا المتقدّمين إلى شيء من أبواب البديع وفي دون ما ذكرنا مبلغ الغاية الّتي قصدناها وبالله التوفيق .

الباب الأول من البديع وهو الاستعارة

قال الله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ ﴾. وقال : ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾. وقال :

﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْباً ﴾. وقال : ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾. وقال : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ ٱللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾.

الأحاديث : فأمّا أحاديث النبيّ صلّى الله عليه فقوله : « خير الناس رَجُلٌ مُمسِكٌ بعنان فرسه في سبيل الله كلّما سمع هيعةً طار إليها ». وقوله : « ضمّوا ماشيتَكم حتى تذهبَ فحمةُ العشاء». وقوله : « إنّا لا نقبل زَبْد المشركين أي رفدَهم ». وقال صلّى الله عليه : « ربِّ تقبَّلْ تَوْبتي وآغسل حَوْبتي » . وقال صلّى الله عليه : « غلب عليكم داء الأُمم الذين من قبلكم الحسد والبغضاء وهي الحالقة حالقة الدين لا حالقةُ الشَّعْر ».

كلام الصحابة : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في كتابه إلى ابن عبّاس وهو عامله على البصرة في بعض كلامه «أَرْغِبْ راغِبَهم واحْلُلْ عُقَد الخوف عنهم». وسُئل عن تغيير الشيب وما رُوِي في ذلك عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في قوله : « غيّروا الشيبَ ولا تَشبَّهوا باليهود » فقال عليّ رضي الله عنه «إنّما قال ذلك والدينُ في قُلٍّ فأمّا وقد اتّسع نِطاق الإسلام فكلّ امرءٍ وما اختار لنفسه». وقال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: وذكر الملوكَ فقال «إنَّ الملوكَ إذا ملك أحدُهم زهّده الله في ماله ورغّبه في مال غيره وأشرَبَ قلبَه الإشفاقَ وهو يحسدُ على القليل ويتسخّط الكثير جَذِلُ الظاهر حَزين الباطن فإذا وَجَبَتْ نفسُه ونَضَب عمره وضحا ظلّه [حاسبه الله عزّ وجلّ] فأشدّ حِسابَه وأقلّ غَفْرَه». أراد من هذا نَضَب عمرُه وهو من الاستعارة ورَوَوْا أنَّ عليّاً رضي الله عنه سأل كبيرَ فارسَ عن أحمدِ سِيَرِ ملُوكهم عندهم فقال «لأَرْدَشِيرَ فضيلة السَّبْق غيرَ أنَّ أحمَدَهم سيرةً أنوشرْوانُ قال فأيُّ أخلاقه كان أغلبَ [عليه] قال الحلم والأناةُ قال عليٌّ رضي الله عنه هما تَوْأَمانِ يَنتِجهما علوّ الهمّة . وقال عليّ رضي الله عنه العلم قفلٌ مفتاحه السؤال . ورَوَوْا أنَّ علياً رضي الله عنه قال لبعض الخوارج في حديث طويل والله ما عُرِفْتَ حتى نَعَرَ الباطلُ فنَجَمْتَ

نجومَ قَرْنِ الماعزة . أردنا قوله نعر الباطل . ورووْا أنّ عمر رضي الله عنه لمّا حصّب المسجد قال لـه رجل لِمَ فعلتَ ذلك فقال هـو أَغْفَرُ للنُّخامَة . وقـال الشعبيّ كتب خـالِد بن الـوليد إلى مـرازبة فـارسَ عند مَقْـدَمِه العـراق أمّا بعـدُ فـالحمدُ لله الَّـذي فضَّ خَدَمَتَكم وفـرّق كلمتكم . الخَدَمـة الحَلْقة المستـديرة ومنه قيل للخلاخيل خِدامٌ . قال الشاعر [من المتقارب].

. . . وتُبْـدي لِـذاك الـعَـذارَىٰ الـخِـدامـا

وسُئلت عائشة رضي الله عنها هل كان النبيّ صلّى الله عليه يُفَضِّل بعض الأيّام على بعض قالت كان عمله ذيمةً أي دائمـاً . ولمّا قُتـل عثمانُ رضي الله عنه قال أبو موسى هذه حَيْصَة من حَيصـات الفِتَن بقيت المُثْقَلَةُ الرداح . وقـال الحجّاج يوماً في حديث ذكـره الشعبيّ دُلّوني على رجـل سمين الأمانـة . ولمّا عقدت الخوارج الرياسة لعبد الله بن وهب الراسبيّ أرادوه على الكلام فقال لا خير في الرأي الفطير والكلام القضيب فلمّا فرغوا من البيعة له قال دعوا الرأي يغِبُّ فإنَّ غُبُوبَه يكشف لكم عن فَصِّهِ . وقـال بعض الصالحين في ذمـه الدنيـا دارٌ غُرست فيها الأحزان وسكنَها الشيطان وذمّها الرحمن وعوقب بها الإنسان . وكان يقال راسُ المآثِم الكذبُ وعمودُ الكذب البهتان . وقال إبـراهيم النخعيُّ الفكرُ مُخّ العمل . وقيل لأعرابيّ إنَّك لَحَسَنُ الكِدْنَة قـال ذاك عنوان نعمـة الله عندي . ووصف أعرابيّ قوماً فقال كانوا إذا اصطفُّوا سفرت بينهم السهـام وإذا تصافحوا بالسيوف فغَر الحمام . وقـال أكثمُ الحلْمُ دعامـةُ العقل . وسُئـل آخر عن البلاغة فقال دُنُوُّ المـأخذ ونَـزْع الحجّة وقليـل من كثير . وقـال خالـد بن صفوان لرجل رحم الله أباك فإنّه كـان يَقْرى العينَ جمـالاً والأذنَ بيانـاً . وسُئل أعرابيّ عن صديق له فقال صَفِرَتْ عِيابُ الوُدِّ بيني وبينه بعد امتلائها واكْفهرَّت وجوهٌ كانت بمائها . وذكر أعرابيّ رجلاً فقال إنَّ النـاس يأكلون أمـاناتِهم لَقْمـاً وفـلان يحسوهـا حَسْـواً . وقيـل لأعـرابيّـة أين بلغَتْ قِـدْرُك فقـالت حين قـام

خطيبُها . وقال بعضهم من ركب ظهرَ الباطل نزل دار الندامة . وقيل لأعرابيّ كم أهلُك قال أبٌ وأمٌّ وثلثة أولادٍ أنا سبيلُ عيشهم . وقيل لرؤبة كيف خلّفتَ ما وراءك قال المَرَاد يابسٌ والمال عابسٌ . ومن الاستعارة قول امرء القيس [من الطويل]:

وليْلٍ كَمَوْجِ البحْرِ مُرْخٍ سُدُولَهُ عَلَيَّ بأنْواعِ الهُمومِ لِيَبْتَلِي
فَقلتُ له لمّا تمطّىٰ بِصُلْبِه وأرْدفَ أعْجازاً وَناءَ بِكَلْكَلِ

هذا كلُّه من الاستعارة لأنَّ الليل لا صُلْب له ولا عَجُز . وقال [من الطويل].

يُضِيءُ سَناهُ أوْ مَصابيحُ راهبٍ أمالَ السَّليطَ بالذُّبالِ المُفتَّلِ

أردْنا من هذا البيت قوله أمال السليط . وقال زهير [من الطويل].

إذا لَقِحَتْ حَرْبٌ عَوانٌ مُضِرَّةٌ ضَروسٌ تُهِرُّ الناسَ أنْيابُها عُصْلُ

تُهِرّ أي تحملهم على أن يكرهوا يقال هرّ فلان كذا إذا كرهه وأهررتُه أنا حملته عليه وهريرُ الكلب صوتٌ يُرَدّده إلى جوفه إذا كره الشيء أو الشتاء لشدّة البرد أو لغيره . وقال أبو سعيد القول تَهِرُّ ومن قال تُهِرُّ الناس أراد أنّها أساءت أخلاقهم لشدّتها وتَهِرّ كأنّها تَنْبح في وجوههم . وقال أيضاً [من الطويل].

صحا القلْبُ عن سَلْمَى وأقْصرَ باطِلُه وعُرِّيَ أفْراسُ الصِّبَا ورَواحِلُهُ

وقال أيضاً [من الوافر].

إذا سُدَّت به لَهَواتُ ثَغرٍ يُشارُ إليه جانِبُهُ سَقيمُ

وقال النابغة [من الطويل].

وصَــدْرٍ أراحَ اللَّيْـلُ عــازِبَ هَمِّــه
تَضاعَفَ فيهِ الحـزْنُ من كُلِّ جـانِبِ

أراد قوله أراح الليلُ عازب همّه هذا مستعارٌ من إراحة الراعي الإبلَ إلى مباءتها أي موضع تأوي إليه . وقال أيضاً [من الطويل]:

على أنَّ حِجْلَيْهــا إذا قُـلْتَ أُوسِعــا   صَمَــوتــانِ مِن مَــلْءٍ وقِـلّةِ مَنْـطِقِ

وقال الأعشي [من الكامل]:

إذْ لِـمَّـتــى سـوْداءُ أتبَـعُ ظِـلَّهــا   غَــزِلاً قَعــودَ بَـطالــةٍ أمشـي دَدَا

وقال أيضاً [من الطويل]:

سَمــا لابن هُـرٍّ في العِثــار بِـطعنــةٍ   تفــورُ على سِــرْبــالــه نَعَــراتُهــا

وقال أيضاً [من الوافر]:

فــإنَّ الـحــربَ أمسـىٰ فــحْ   ـلُهــا فـي النــاس مُغْتَبِلَمَــا

وقال أوس بن حجر [من الطويل]:

وإنّي ِآمْـرءٌ أعْدَدتُّ لِلحَـرْب بَعْـدمـا
رأيْتُ لَهـا نـابــاً مِن الشـرّ أَعْصَــلا

وقال عنترة بن معاوية العبسيّ [من الكامل]:

جــادَتْ عليـه كــلُّ بِكْــرٍ حُــرَّةٍ   فَتَــرَكْنَ كُـلَّ قَــرارةٍ كـالــدرهمِ

البكـر أوّل السحاب أراد أنّهـا لم تمطر قبـل ذلك . وقـال مُهلْهِـل [من الكامل]:

تَلْقىٰ فــوارسَ تَغْلبَ ابـنــةِ وائــلٍ
يَسْتــطْعمـون المــوتَ كـلَّ هُمــامِ

وقال الأفوه الأوْديّ [من الرمل]:

مُـلْكـنـا مُـلْكٌ لَـقـاحٌ أوَّلُ   وأبـونـا مِـن بَـنـي أوْدٍ خِـيـارْ

قال أبو سعيد اللقاح من العرب الذين لا يدينون للملوك وهو مأخوذٌ من لقاح الإبل أي هم مستغنون بما عندهم من العزّ عن غيرهم . وقال علقمة بن عبدة [من البسيط]:

بَـلْ كُلّ قَـوْمٍ وإن عَزوا وإن كـرُمـوا
عـريفُهم بـأثـافي الشـرِّ مـرجـومُ

وقال المسيّب بن علس [من المتقارب]:

وإنّـهُـمُ قـد دَعَـوْا دعـوةً   سَـيـتْـبـعُـهـا ذَنَـبٌ أهـلَبُ

وقال الأسود بن يعفر [من الوافر]:

فـأدِّ حـقـوقَ قـومِـك واجتنِبْهم   ولا يـطمَـحْ بـك العِـزُّ الفـطيـرُ

قال أبو سعيد أراد عزًّا ليس بـالمُحْكمَ كما أنَّ الفـطير من العجين ليس بمستحْكِمٍ والفـطيـر في غيـر ذا الجِلدُ الّـذي لم يُـدْبَـغْ وقـال طفيـل [من الكامل]:

وجـعـلتُ كـوري فـوق نـاجِـيَـةٍ   يَقْتـاتُ لَـحْمَ سَنـامِهـا الـرَّحْـلُ

وقال أيضاً [من الطويل]:

جَذَتْ حَوْلَ أطْنَابِ البيوتِ وسَوّفَتْ
مراداً فإنْ تُقْرَعْ عصا الحَرْب تُرْكَبِ

سوّفت شَمَّتْ مرَادَها الموضع الذي تـرود فيه . وقـال الحرث بن حِلّزة [من الكامل].

حـتَّى إذا الْتَـفَـعَ الـظِبـاءُ بِـأطْـ   ـرافِ الـظلالِ وَقِـلْنَ في الـكُـنْسِ

قال أبو سعيد التفع من اللفاع وهو اللحاف الَّذي يُلتَفَعُ به ثمَّ صار كلُّ ثوب يُجلِّلُ به الإنسان لِفاعاً . وقال عمرو بن كلثوم [من الطويل]:

ألا أبْلِغِ النُّعْمَانَ عنّي رسالَةً فمجْدُكَ حَوْلِيٌّ ولُؤْمُك قارِحُ

وقال النابغة الجعديّ [من المتقارب]:

إذا أغلَقَ الأمرُ أبْوابَه وعَيّ ذَوُو الحزْم بالمَذْهَبِ
علا بهم لُجَّةً مَهْلِكاً وإنْ يَطْفُ أصْحابُه يَرْسُبِ

وقال الحطيئة [من الطويل]:

ألا مَن لِقَلْبٍ عارِمِ النظَراتِ يُقطِّعُ طولَ اللَيْلِ بالزفَراتِ

وقال أبو ذؤيب الهذليّ [من الكامل]:

وإذا المنيَّةُ أنْشَبَتْ أظْفارَها ألْفَيْتَ كلَّ تَميمةٍ لا تَنْفَعُ

وقال أبو خراش الهذليّ [من الطويل]:

أرُدُّ شُجاعَ البَطْنِ قد تَعْلمينَهُ
وأُوثِرُ غَيْري من عِيالِك بالطُّعْمِ

وقال لبيد [من الكامل]:

فبِتِلْك إذْ رقص اللوامعُ بالضحى
واجتابَ أردِيَةَ السرابِ إكامُها

وقال أيضاً [من الكامل]:

وغداة ريحٍ قد كشفتُ وقِرَّةٍ إذْ أصْبَحَتْ بِيَد الشَّمالِ زِمامها

وقال أوس بن مغراء يهجو بني عامرٍ [من الطويل]:

يشيبُ على لُؤْم الفعال كبيرُها
ويُغْذَى بِثَدْي اللُّؤْمِ فيها وَليدُها

وقال مُزرِّد [من الطويل]:

عَسوفُ السرى خَبّازةٌ في عَشائها
رُؤوسَ الأفاعي بَيْنَ خُفٍّ ومَنْسِمِ

هو ضربُها بيدها ومنه أُخِذ الخبزُ لإلصاقِه بالتّنور . وقال الأخطلُ [من الطويل]:

وَأهْجُرُ هجراناً جميلاً وينتحي لنا من لَياليـنا الأوائل أوّلُ

وقال جرير [من الطويل]:

لحقْتُ وأصْحابي على كُلّ حُرَّةٍ مَروحٍ تُباري الأخْنَسِيَّ المُكارِيا

وقال المرّار الفقعسيّ [من البسيط]:

والقومُ قد طَلَحوا والعيسُ رازحةٌ
كأنَّ أعْيُنَها نُزْحُ القَواريرِ

وقال الفرزدق [من الطويل]:

لِيَغْمِزَ عِزًّا قَد عَسا عَظْمُ رأسِهِ قُراسِيَةً كالفَحْل يَصْرِفُ بازِلُهْ

ومن البديع والاستعارة من كلام المحْدَثين وأشعارهم قول مالك بن دينار القلب إذا لم يكن فيه فكرة خرب . ورأى المأمون بعض ولده وفي يده دفتر فقال ما هذا يا بُنَيَّ فقال بعض ما يَشْحَذ الفطنة ويُؤنس في الوحدة ، فقال المأمون الحمد لله الّذي أراني من ذرّيّتي من ينظر بعين عقله. وقال المنصور لمحمّد بن عمران التيميّ قاضي المدينة بلغني أنّك بخيل قال والله ما أجمُدُ في حقّ ولا أذوبُ في باطلٍ . وقال اسحق بن إبراهيم الموصلّي حدّثني أبو دُلَف قال دخلت على الرشيد وهو في طارمة وإذا بباب الطارمة شيخ جليل على طنفسة فلمّا سلّمت قال لي الرشيد كيف أرضُك قلت خرابٌ يبابٌ خَرّبَها الأعرابُ والأكرادُ فقال قائل هذا آفة الجبل هو أفسده فقلت فأنا أُصلحه فقال الرشيدُ وكيف ذاك قلت أفسدتُه وأنت عليَّ فأُصلحُه وأنت معي فقال الشيخ إنَّ هِمَّتَه لَتَرْمِي به من وراء سِنّه مَرْمىً بعيداً فسألتُ عنه فقيل لي العبّاسُ بن

الحسن العلويُّ . ووقع بين أحمدَ بن يوسفَ وبين رجل شرٌّ بين يدي المأمون فقال أحمدُ للمأمون قد والله رأيته يا أميرَ المؤمنين يَسْتَمْلِي من عَيْنَيْكَ ما تَلْقاني به . وقال الرشيد وقد أنشده النَّمَري [من البسيط]:

مـا كُنْتُ أُوفي شبـابي كُنْـهَ غِـرَّتـه   حتَّى انقضىٰ فـإذا الـدنيـا لـه تَبَـعُ

ومـا خيرُ الـدنيا لا يُخْـطَر فيهـا بِـرِثـاء الشبـاب. وكتب خـالـد بن بـرمـك إلى ابنه يحيى لعمرو بن عثمان التيميّ عافانا الله وإيّاك من السوء برحمته قد عرفت حال عمرو بن عثمان التيميّ وتقادُمَ وُدِّهِ وانخراطَه في سِلْكنـا فتوَلَّ من أمـرِه ما يُشْبهُك أو يُشبهُهُ فـأمر لـه يحيى بألف ألف درهـم . وقـال إسحق قُلتُ للعبّاس ابن الحسن إنِّي لَأُحِبُّك فقال رائدُ ذاك معي وذكرت له رجلاً فقال دَعْني أَتَذَوَّق طَعم فراقه فهـو والله لا تُشْجَى به النفس ولا تُكْثِـر في أثره الالتفـاتَ . وكتبتُ إلى بعضهم إنَّمـا قلبي نَجيُّ ذِكرِك ولِسـاني خـادم شُكـرِك . وكتبتُ في بعض الكتاب قد طالت عِلَّتك أو تعالُلُكَ واشتدَّ شوقُنا إليـك فعافـاك الله ممّا بـك من مرض في بدنك أو إخائك ولا أعْدَمَناك . وقال عبدالله بن إدريس قال كـان لي جارٌ معتوهٌ فقلت لـه يومـاً ما أجـودُ الشعر فقـال ما لم يَحْجُبْـه عن القلب شيء انْظُرْ إلى قوله [من الطويل]:

ألا أيُّهـا الـنُّـوامُ وَيْـحَـكُـمُ هُـبُّـوا. . .

وأنشده بصوت جهير ثمَّ قال أعرابيٌّ استأذن على القلب فلم يُؤْذَنْ لـه ثُمَّ أنشد [من الطويل]:

. . . أُسائِلُكُمْ هـل يـقـتل الـرجُـلَ الـحُـبُّ

بصوت لَيِّن ثمّ قال هـذا مخنَّثٌ استأذن على القلب فـأُذِنَ له . وقـال أبو عبـدالله الزُّبَيْـرِيّ ما سمِـع النبيُّ صلّى الله عليـه أحـداً يحمَـدُ الله إلَّا جـاذَبَـهُ الحَمْدَ . وقال عمـر بن عبد العـزيز وجبت حُجَّـة الله على ابن الأربعين وأنشد [من الطويل]:

إذا المرءُ وفَّى الاربعين ولم يكنْ ... له دون ما يأتي حَياءٌ ولا سِتْرُ
فدَعْه ولا تَنْفَسْ عليه الَّذي مضى ... وإن مَدَّ أسبابَ الحياةِ له العُمْرُ

يقال نَفِسْتُ بالشيء على فلان أَنْفَسُ إذا بخلتُ به عليه . وكان رجلٌ من أهل الأدب له أصحابٌ يشربُ معهم ويناديِمُهم فَدَعوْه فلم يُجبهم فقالوا ما منعك قال دخلتُ البارحة في الأربعين وأنا أستحي من سنّي . وحجّ المهديّ فمرّ ببلاد بني جعفر فقالت امرأة منهم أيُّ شرفٍ وجمال لو أنَّ الله دَعَمَه بأمٍّ جعفرية . وقال يحيى بن خالد العقلُ خادمٌ للجهل . وقال بعضهم في رسالة وحصّن الله وَلِيّه وأوْقع بأسه بجُرْثومَة الضلال ومُناخ الشرك ومَرْكز الظُّلم بعد طول الإملاء وقِلَّة المراقبة والارعواء . وقال آخر الاستطالة لسان الجهالة . وقال ذو الرياستين الطِبُّ استدامة الصِّحّة ومَرَمة السقْم . وكتب ابن مُكْرِم في تعزيته أحمدَ بن دينار بأخيه ليس لأهله وولده مرجعٌ إلى غيرك ولا مَقيلٌ إلاَّ في ظِلِّك فأنْشُدُك اللهَ فيهم فإنَّه خَرَّبهم بعمارة مروّته . ولإبراهيم بن العباس في بعض كتبه إنَّ أحقَّ مَن أشادَ بنعمةٍ ناطقاً بلسان شُكْرها مَن أُلْبِسَ من نعمةٍ أعزَّ مَلابِسِها وحُبِيَ أفضلَ مواهِبِها كتبتُ إليك وأمير المؤمنين مِن لين الطاعة واتّساق الكلمة مِمَّن في بُلدانه وحواشي سلطانه على ما يَحْمد الله عليه ويستزيدُه منه . وقال يحيى بن خالد الشكرُ كفاءُ النعمة . وَلِبعضهم فأتيتُك حين أنْفد الصبرُ مدَّتَهُ وبلغ المكروهُ غايَتَه ولم يَبْقَ مِن الستر إلاَّ ما يَشِفُّ دونه . ولبعضهم في رسالة إنَّ شدّة الحجاب تُنْغِل أديمَ المودَّة . ودخل أبو سعيد المخزوميّ على إسحق بن إبراهيم المُصْعَبِي فأنشده قصيدة وكان حَسَنَ الإنشاد ثمّ دخل بعده الطائيّ فأنشده وكان رَدِيء الإنشاد فقال المصعبيّ للطائيّ لو رأيتَ المخزوميّ وقد أنشدَنا آنفاً فقال الطائيّ أيّها الأمير نشيد المخزوميّ يُطَرِّقُ بين يدي نشيدي . وحدثني أبو عبد الله قال قال الحسن بن سهل خرير الماء لحنُ العمارة . ولأعرابي في البرق [من الطويل]:

إذا شيمَ أنفُ الليلِ أوْمَض وسْطَهُ ... سنًا كابتسام العامريّة شاعِفُ

وقال أبو نواس [من الكامل]:

صهباءُ تَفْتَرِسُ العُقولَ فما تَرى ... منها بِهِنّ سِوى السُّباتِ جِراحا

وقال آخر [من الكامل]:

أمَّا الطُّلولُ فَمُخْبِرَاتٌ ... أنَّهم ظَعَنوا قريبا

أحْذَتْنِيَ الأحْزَانَ حينَ ... وقفتُ فيها والكُروبا

فَتَرَكْنَ في قلبي النُّدوبا ... وزرعْنَ في رأسي المَشيبا

وقال أبو الشيص [من الخفيف]:

رَبْعُ دارٍ مُدَرَّسِ العَرَصات ... وطُلولٍ مَمْحُوَّةِ الآياتِ

خَفَق الدهرُ فوقها بجَنَاحَيْنِ ... مَريشَيْنِ بالبِلى والشَّتاتِ

وقال سليمان بن أبي الجنوب بن مروان بن أبي حفصة [من الكامل]:

يَتْبَعْنَ جاهِلَةَ الزِمام كأنَّها ... إحدىٰ القناطر وَهْيَ حَرْفٌ ضامِرُ

وقال أبو نواس [من الكامل]:

في مَجْلِس ضَحِكَ السرورُ به ... عن ناجِذَيْه وحَلَّتِ الخَمْرُ

وقال مسلم [من الطويل]:

فأقسمتُ أنسَى الداعياتِ إلى الصِّبا ... وقدْ فاجَأتْها العَيْنُ والسِتْرُ واقِعُ

قطَفْتُ بِأَيْديها ثِمَارَ نُحورِها ... كأيْدي الأسارَىٰ أثْقَلَتْها الجوامِعُ

وقال أشجع [من الطويل]:

وجارِيَةٍ لَمْ تَسْرُقِ الشمْسُ نَظْرَةً ... إليها ولم يَعْبث بأيَّامها الدهْرُ

وقال العتّابيّ [من الطويل]:

وَمُعْضِلَةٍ قام الربيعُ إزاءها ... لِيَعْمِدَ رُكْنَ الدين لمّا تهدَّما

غـداةَ عُدَاةُ المُلْكِ شـاجِـذَةُ المُدَىٰ		عليـه وغـولُ الحــرب فـاغــرةٌ فمـا

وقال [من البسيط]:

إنَّ البــرامِــكَ لا تنْفَــكُّ أَنْجِيَــةً		بصفحة الدين من نجـواهُمُ نَدَبُ
تَجَزَّمَتْ حِجَـجٌ عَشْــرٌ ومُنْصُلُهُمْ		مُضَــرَّجٌ بِـدَم الإســلام مُخْتَضَبُ

وقال [من الطويل]:

ومِن فــوق أكْـوارِ المــطايـا لُبــانـة		أُجِـلَّ لهـا أكْلُ الـذُّرَى والغــوارب
فَتىً ظفِــرَتْ مِنــه الليــالي بــزلّــة		فــأقْلَعْنَ عَنــه داميــاتِ المخــالِبِ

وقال [من الكامل]:

نـاهَضتُّ بالحسَنِ بن عِمـران العُلَى		وتــنـبّــهــتْ لِــذكــائـهِ آمــالــي
سَـكَتــاتُــه عِــدَّةٌ وفـي نــطقــاتــه		تـفــريـقُ بــيـن قَــرائــن الأمْــوالِ
لــمّــا لَجــأْتُ إلـى ذُراك وأشْـرفت		عُنُقٌ مـن الحــدثــان قـلْتُ نَــزالِ

وقال النَّمري للرشيد [من الوافر]:

مَنَنْتَ عَلَى ابـن عبــدالـله يحيـى		وكــان من الحتُــوفِ على شَـفيـرِ
وقـد سَخِـطَتْ بسُخْـطَتِكَ المنــايـا		فـظلّتْ فَـهْيَ حــائـمـةُ النُّسُــور
لـهُـمْ رَجِـمٌ تـصــورُكُــمْ عـليــهـم		وتَـكْسِــرُ عَـنْكُـمُ حُـمَــةَ الـنكـيــرِ

وقال يصف بغداد [من البسيط]:

تَحيـا النفـوسُ إذا أرواحُهــا نفحتْ
وحَرَّشَتْ بيـن أوراق الــريــاحيـنِ

وقال العبّاس بن الأحنف [من البسيط]:

قـد سَحّب الناسُ أذْيـالَ الظُّنـون بنا		وفــرّق النـاسُ فينــا قَـولَهمْ فـرَقــا
فكــاذِبٌ قـد رَمىٰ بــالـظّن غَيْــرَكُمُ		وصــادِقٌ ليس يَـدْري أنّــه صَـدَقــا

وقال محمود الورّاق [من الوافر]:

أ إن نـاصى سـوادَ الـرأس شَيْـبٌ فَـزِعْتَ إلى التعـلُّلِ بـالخِـضـابِ
ألـم تَعْـلَمْ وفَـرْطُ الـجـهْـلِ أَوْلَىٰ بِـمـثـلك أنّـه كَـفَـنُ الـشـبـاب

وقال أشجع [من الطويل]:

تَعَضُّ بـأنْيـاب المَنـايـا سيـوفُـه وتَشْـرَب مِن أخْـلاف كُـلِّ وَريـدِ

وقال بشّار [من الطويل]:

تَـبِـعَـتْ عَـطايـاهُ مـواهِـبَـة كـالسَّيْـلِ مُـتَّبِعـاً قَفـا مَـطَرِهْ

وقال [من المتقارب]:

صَـبَـبْـتِ هَـوَاكِ عـلى قَـلْبِـه فَـضـاقَ وأعْـلَنَ مـا قَـدْ كُـتِـمْ
وَبَـيْـضـاءَ يَـضْحَـكُ مـاءُ الـشـبـاب فـي وَجْـهِـهـا لَـكَ أوْ يَبْـتَسِـمْ
ألا أيُّـهـا الـسـائـلي جـاهـلاً لِـيَـعْـرفـنـي أنـا أنْـف الـكَـرَمْ
نَـمَتْ فـي الـكِـرام بـنـي عـامـرٍ فُـروعـي وأصْلِي قُـرَيْشُ الـعَـجَـمْ

وقال [من الوافر]:

شـرِبْـنـا مِـنْ فُـؤادِ الـدن حـتـى تَـرَكْـنـا الـدنَّ لـيس لـه فُـؤادُ

وقـال محمّـد بن أحمـد من ولـد طبـاطبا العلويّ الإصفهـاني [من الـمـنـسـرح]:

رُبَّ نَـهـارٍ أمـسـتْ أصـائـلُهُ تَـرْشُفُ من شَـمْسِهِ صُـبـابـاتِ

وقال محمّد بن يزيد من ولـد مَسْلمة بن عبـد الملك يصف فرسـه [من الكامل]:

عَـوَّتُـه فـيـمـا أزورُ حَـبـائِـبـي إهمـالَـهُ وكـذاك كـلُّ مُخـاطِـرِ
فـإذا احْتَبَى قَـرَبـوسَـهُ بِعِـنـانـه عَلَكَ الشكيمَ إلى انصرافِ الـزائِـرِ

وقال أبو العتاهية [من المديد]:

راكِبُ الأيَّامِ يَجْري عَليْها ... وَلَهُ مِنْهنَّ يومٌ حَرونُ

وقال أبو نواس السابق في ميدان الشعراء [من الرجز]:

يَغْتال خِزّانَ الصحارَى الرُّقْطا ... يَلْقَيْنَ مِنه حاكماً مُشتَطاً

للعَظْم حَطْماً والأديم عَطّا

وقال [من الكامل]:

عَرَمَ الزمانُ على الّذين عهِدتُّهُمْ ... بك قاطِنينَ وللزَّمانِ عُرامُ

وقت [من الخفيف]:

إسقني الراحَ في شبابِ النهارِ ... وانْفِ هَمِّي بالخَنْدَريس العُقار

فكأنَّ الربيعَ يجلو عَروساً ... وكأنّا مِن قَطْره في نِثارِ

وقال أبو الشيص [من الطويل]:

سقاني بها والليلُ قدْ شاب راسهُ ... غزالٌ بحِنَّاءِ الزجاجة مُخْتَضِبْ

وقال الخرَيْمِي يذكر الإبل [من الطويل]:

وكمْ خَبَطَتْ مِن فَحْمَةٍ لِدُجُنَّةٍ

وحُمْرةِ وَهَّاجٍ عَن الصيفِ جاحِمِ

وقال أبو نواس [من الكامل]:

عينُ الخليفة بي موكَّلَةٌ ... عَقَد الحِذارُ بِطَرْفِها طَرْفِي

صحَّتْ عَلانِيَتي له وأرىٰ ... دينَ الضمير له على حَرْفِ

فَلَئِنْ وَعَدتُّكَ تَرْكَها عِدَةً ... إنِّي عليكَ لَخائف خُلْفي

سَلبُوا قِناع الطين عن رَمَقٍ ... حَيّ الحياةِ مُشارِفِ الحَتْفِ

فتنفَّسَتْ في البيتِ إذْ مُزِجَتْ ... كَتنفُّسِ الريحانِ في الأنْفِ

وقال في الفرس [من الكامل]:

يَبْنِي العَجاجَ على مفارِقِهِ بِمُقَعَّبٍ لَمْ يَعْدُ أن وَقَحا

وقال العلويّ الإصفهاني ابن طباطبا [من الخفيف]:

صَدَفٌ شُقَّ عن لآلِىءِ غُرّ

أمْ كتابٌ قدْ فُضَّ عن نَظْمِ شِعْر

وَقَوافٍ مُقوَّماتٌ لَدىٰ الأبياتِ

مَوْزونةٌ بِقِسْطاسِ فِكْرِ

وقال الطائيّ [من الكامل]:

مَطَرٌ يذوبُ الصحْوُ منه وبعدَهُ صحوٌ يكادُ مِن النَّضارةِ يُمْطِرُ

وقال [من البسيط]:

أمطرْتَهم عَزَماتٍ لو رَمَيْتَ بها

يومَ الكَريهةِ رُكْنَ الدهْرِ لانْهَدَما

حتّىٰ انتهكْتَ بحَدِّ السيفِ هامَهُمُ

جزاءَ ما انتهَكوا مِن قَبْلِكَ الحرُمَا

وقال يخاطبُ منزلاً [من الكامل]:

يا منزلاً أعْطىٰ الحوادثَ حُكْمَها لا مَطْلَ في عِدَةٍ ولا تَسْويفا

أرْسىٰ بِناديك النَدىٰ وتنفّست نَفَساً بعَقْوتك الرياحُ ضَعيفاً

ولَئِنْ ثَوى بك مُلْقِياً بِجِرانِه ضَيْفُ الخُطوب لقد أصاب مَضيفاً

المعنى أنَّه أصاب موضعاً يضيف إليه فيه أي يميل إليه لأنَّ أهله قد فارقوه ومُضيفٌ مُحالٌ لأنَّ البلد لا يُضيف ولأنَّ الزمانَ لا يحتاج وإنَّما المعنى أنَّ الزمان مال عليك فأصاب موضع محلٍّ ومنزلٍ .

وقال [من الكامل]:

يـا سهمُ كيف يُفيق من سُكر الهـوىٰ
حَـرَّانُ يُصْبَــحُ بـالـفِـراق ويُغْبَق

عمـري لقـد نَصَـحَ الـزمـانُ وإنَّـهُ   لَمِنَ العجـائِبِ نـاصِـحٌ لا يُشْـفِقُ

نصح الزمـان أي أدّبك بمـا يُريـك من غِيَرِه واخْتِـلافِه والـزمان لا يُشْفِقُ على أحـدٍ لأنَّـه يـأتي على الإنسـان بمـا يُقْضَىٰ عليـه فقــال من العجـائب أن يضحك الدهر وهو لا يُشْفِقُ . وقال [من الطويل]:

كُلوا الصبـرَ غضّـا واشـربـوه فـإنَّكم
أثـرْتُمْ بَعيـرَ الـظُلْمِ والـظُلْمُ بــارِكُ
مَتىٰ يـأتِكَ المقـدارُ لا تَـكُ هـالكـاً
ولكن زمــانٌ غــالَ مثلَك هــالــكُ

وقال العبّاس بن الأحنف [من البسيط]:

ولي جُفـون جفَاهـا النـومُ فـاتّصلتْ
أعجـازُ دَمْعٍ بـأعناقِ الـدمِ السـرِبِ

وهـذا وأمثالـه من الاستعارة ممّـا عُيِّبَ من الشعـر والكـلام وإنَّمـا نُخْبِـرُ بالقليل ليُعرف فيُتَجَنَّبَ . قال المهلّب لرجل من الأزد متى أنت قـال أكلتُ من حياة رسـول الله صلّى الله عليـه سنتين فقـال أطْعَمَــك الله لحمـك . وقــال عبيد الله بن زياد يوماً وكانت فيه لُكْنَةٌ افتَحوا سيفي يـريد سُلُّوه فقـال يزيـد بن مُفَرِغ [من الوافر]:

ويــومَ فتحـتَ سيـفـك من بعيــد   أضـعْـتَ وكــلُّ أمـرِك لـلضَّيــاعِ

وقـال عبيد الله أيضـاً لسويـد بن منجوف اقعُـدْ على اسْتِ الأرض فقال سويد ما أعلم للأرض استاً . وقال الجاحظ رأى قومٌ مـع رجلٍ خُفـاً فقالـوا ما هذا فقال قلنسوة فضحكوا منه فقال عياض صدق هـذه قلنْسُوَةُ الرِّجْل . وقـال

بعضهم في يومٍ مطر شديدٍ قد انقطع شُرَيان الغمام . وقال بعض أهل زَماننا في مخاطبته لصاحبه يا إمامَ الخُطَباء ويا عُنْصرَ الخُلَصاء ومولى الأُدباء .

ولعليّ بن عاصم العبديّ الإِصْفهانيّ [من الكامل]:

زُمَّ العَزاءُ غداةَ زُمَّ جِمالُهم فحدَا الحُداةُ بهِ معَ الأجمالِ
والحادِثاتُ متى فَغَرْنَ بِغُصَّتِي لقَّمتُهُنَّ شجاً بوَخْدِ جِمالِ

وقال آخر [من الطويل)

خُطوبُ المنايا صرّحتْ عن مواهبٍ
مواهبِ أجرٍ من نِتاجٍ المصائبِ

وقال الطائيّ [من الخفيف]:

فضرَبتَ الشِّتَاءَ في أخْدَعِيْه ضَرْبَةً غادَرَتْهُ عَوْداً رَكوبا

ومن عجيب هذا الباب قول الكميت [من الطويل]:

ولمّا رأيتُ الدهرَ يقلب ظهره
على بطنه فِعْلَ المُمَعِّكِ في الرملِ
كما طعنتْ عنّا قضاعةُ طَعْنَةً
هي الجِدُّ مأدومُ النحيزةِ بالهزْلِ

٢ ـ من كتاب (التشبيهات من أشعار أهل الأندلس) لأبي عبد الله محمد بن الكتاني المتوفي سنة ٤٢٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب :

١ ـ باب من التشبيهات في السماء والنجوم والقمرين

قال عبادة بن ماء السماء الانصاري :

كأنَّ السماءَ قبةٌ من زُمرُّدٍ ... وفيها الدراري من عقيقٍ مَسامرُ

وقال عباس بن ناصح يصف مغيب الشمس :

وشمسُ النهارِ قد هَوَتْ لمغيبها ... كعذراءَ تبغي في الحجالِ التواريا

وقال سعيد بن عمرون في الهلال[1] :

والبدرُ في جوِّ السماءِ قد انطوىٰ ... طرفاهُ حتّى عاد مثلَ الزورقِ

فتراهُ من تحتِ المُحَاقِ كأنما ... غرقَ الجميعُ وبعضُهُ لم يَغرَقِ

وقال محمد بن خطّاب النحوي :

ربَّ ليلٍ جُبْتُهُ في فتيةٍ ... كسيوفِ الهندِ أو زُهْرِ النجومِ

طلع البدرُ به في صورةٍ ... تشبهُ التاجَ على الشَّعْرِ البهيم

(١) ورد البيتان في اليتيمة ٢ : ٤٥ ، والنفح ٥ . ١٢٩ لسعيد بن محمد المرواني ، وهما شخص واحد ، انظر التراجم في آخر الكتاب .

وقال يحيى بن هذيل في الهلال :

يحكي من الحاجبِ المقرون شُقْرَتَهُ   فانظرْ إليه فما أخطا ولا كادا
لو التقىٰ لحكي حِجْلاً ولو قطعوا   من دارةِ الحجلِ ما أربىٰ ولا زادا

وقال جعفر بن عثمان في الثريا[1] :

سألتُ نجومَ الليل هل ينقضي الدجىٰ   فخطَّتْ جواباً بالثريا كخطِّ « لا »
وما عن جوىً[2] سامرتها غير أنني   أنافسها المجرىٰ إلى رُتَبِ العلا

وقال عبادة :

ربَّ ليلٍ سهرتُ في قمرٍ   مدَّ مِن فَرْحةٍ عليه حُلَى
والثريا كأنها سُئِلَتْ   فأجابتْ عن الحبيبِ بلا

وقال جعفر بن عثمان :

صفِ الثريا بمثلها صفةً   فقلتُ : قرطٌ فصولُهُ العنبرْ
سماؤها في اعتدالِ خضرتها   زمرُّدٌ والنجومُ فالجوهر

وقال أيضاً :

وكأنَّ أثناءَ الثريَّا إذْ بَدَتْ   قرطٌ طريحٌ في بساط زمرُّدِ
وكأنما لَبِسَ السماء ملاءةً   خضراءَ تُرْصف من جمال العَسجدِ

وقال عيسىٰ قرلمان ، وكان القمر على الجوزاء :

أرىٰ أرْجُلَ الجوزاءِ غيرَ بوارحٍ   وأيدي الثريا كالسقيم صحيحُها
وهمَّتْ ولم تمضِ السبيلَ كأنها   من الأينِ صَرعى أثخنتها جروحها
وللبدر إشراقٌ عليها كأنه   رقيبٌ على ألَّا يتمَّ جنوحها

---

(١) البيتان في الحلة ٩ : ٢٥٩ وبينهما بيت .

(٢) الحلة : هوى .

وقال محمد بن الحسين :

والـجـوُّ أزرقُ والنـجـومُ كـأنـهـا ... ذَهَـبٌ تـسـربـلَ[1] لازوردا أزرقـاً
وكـأنـمـا الجـوزاء فيـه تقـلَّدتْ ... سيفاً ، حمائلُهُ المجـرةُ، مُعْـرَقـاً

وقال طاهر بن محمد يذكر جملة من النجوم :

ولـيـلٍ بـتُّ أكـلؤُهُ بـهـيـمٍ ... كـأنَّ عـلى مـفـارقـه غـرابـاً[2]
كـأن سـمـاءَهُ بـحـرٌ خـضـمٌّ ... كساهُ المـوجُ ملتـطمـاً حبـابـا
كـأن نجـومَـهُ الـزُّهْـرَ الهـوادي ... وجـوهٌ أخْـضَلَت تـبـغـي الـثـوابـا
كـأن الـمـسـتـتـسـرة فـي ذراه ... كـمـائـنُ غـارةٍ رَقَـبَـتْ نـهـابـا
كـأن الـنـجـمَ مُـعـتـرضـاً وُشـاةٌ ... تُـسـارقُ فيـه لـحـظاً مسـتـرابـا
كـأن كـواكـبَ الـجـوزاءِ شَـرْبٌ ... تـعـاطيـهمْ ولائـدُهـمْ شـرابـا[3]
كـأن الـفَرْقَـدَيـنِ ذوا عِـتـابٍ ... أجـالاَ طـولَ لـيلهـمـا العـتـابـا
كـأن الـمـشـتـري لـمـا تـعـالىٰ ... طليعـةُ عسكـرٍ خَنَسُـوا ارتقـابـاً[4]
كـأن الأحـمـر المـريـخَ مُـغْـضٍ ... عـلى حَنَـقٍ يـشـبُّ بـه شـهـابـا
كـأن بـقـيـةَ الـقـمـرِ الـمـولِّي ... كئيبٌ مـدنـفٌ يشكـو اجتـنـابـا

وقال يوسف بن هارون:

وآنسني فيـك الـنجـومُ بـرعيهـا ... فـدرِّيُّهـا حَلْيٌ وبـدر الـدجىٰ إلفي
كـأن سمـاءَ الأرضِ نِـطْعُ زُمُـرُّدٍ ... وقـد فُرِشَتْ فيـه الـدنـانيـرُ للصـرف

وقال المهزله :

وكـأنـمـا زُهْـرُ الـنـجـوم كـواعبٌ ... حَسَرَتْ فأبـدتْ في الشعور بيـاضَها

(١) في هامش النسخة : تسربل الرجل أي لبس القميص .

(٢) أكلؤه : أرعاه .

(٣) الولائد : الأماء والجواري .

(٤) الأصل : حبسوا ارتعاباً .

وكــأنــمــا فيــهــا الـخـفـيــةُ أعـيـنٌ نَـظَرَتْ[1] وسابقَ فتحُها إغمـاضَهـا

وقال محمد بن إبراهيم بن الحسين :

وسعىٰ علينــا بــالـكؤوسِ مُـنَـطَّقٌ أجـرىٰ دمي فـأعـاضَ راحـاً من دمِ
حتى بــدا لي المشتــري وقــرينُـهُ المـريخُ يـرفـلُ في غـلالـةِ عَنْدَم[2]
قـال النديمُ فصفهمـا قلت : استمعْ رمـحـانِ فـي كـفَّيْ كـمِّي مُـعْـلَم
تبــعَ الكميُّ بــذا فــأخــطأ طعنَـهُ وأصــابــهُ هــذا ففيــه دمُ الـكمـي

المعلم : الذي لبس من السلاح وغيره ما يعلم به .

وقال ابن هذيل :

وكــأن الـمقــاتــلَ اغـتــاظ حـتـى أنفــذَ الصُّبْـحَ بــالتقحم طعنــاً[3]
والسهى في بنــاتِ نعشٍ ضميرٌ[4] بـيـن أضــلاعــهــا تــبــوَّأ كِـنّــا

السهى : الكوكب الخفي في بنات نعش .

وقال سعيد بن عمرون في النجوم :

وكـأنهـا في الحسنِ روضـةُ نَـرْجِسٍ تـفـتــرُّ فـي رَوْضٍ مـن الـنـمّــامِ
وكــأنَّمــا أعلى البــروجِ هيــاكــلٌ مـحفــوفــةٌ بـمـصــابـح الإظــلام
وكــأنمـا صغــرىٰ النجـومِ يــواقتٌ يجــري بهـنَّ عُبــابُ بـحــرٍ طــام

وقال أحمد بن درَّاج[5] :

---

(١) الأصل : قطرت .

(٢) العندم : صبغ أحمر وقيل هو دم الغزال أو دم الأخوين .

(٣) المقاتل هنـا : صفة لنجم ولعله السمـاك الرامـح ، أو هو سهيـل كما صـوره المعري من بعـد « مستبد كأنه الفارس المعلم »

(٤) الأصل : صهير .

(٥) ديوان ابن دراج . ٣٠٠ والأبيات من رائيته التي اشتهرت عند المشارقة وفيها يعارض أبا نواس ، ومطلعها =

وقد حوَّمتْ زُهْرُ النجومِ كأنها   كواعبُ في خُضْرِ الحدائقِ حُوْرُ
ودارتْ نجومُ القطبِ حتى كأنها   كؤوس مهاً وافى بهنّ مديرُ[1]
وقد خَيَّلَتْ زُهْرُ المجرَّةِ أنها   على مَفْرِقِ الليلِ البهيمِ قتيرُ[2]

وقال سعيد بن عمرون:

والليلُ في لونِ الغرابِ كأنه   مُتَدَرِّعٌ بمدارعٍ مِنْ قارِ
وكأنما ذاتُ الخضابِ وقد هَوَتْ   رامشنةٌ رُصِدَتْ مِنَ النوار[3]
وكأنما الشعري العبورُ وراءَها   ذَهَبٌ تدحرجَ فهو كالدينارِ
وكأنما أشخاصها قد أُفرِغَتْ   في الماءِ ياقوتاً على بُلَّارِ[4]

٢ - باب في انبلاج[5] الصبح

قال يوسف بن هارون[6]:

وكم ليلة قد جمَّعَتْنا وأدْبَرتْ   تنوحُ على تفريقنا وَتَلَهَّفُ
إلى أن بدا وجهُ الصباحِ كأنَّما   تَحَمَّلَ لقمانُ وأقبلَ يوسف[7]

وقال المهند:

وكأنَّ وَجْهَ الفجرِ وَسْطَ سمائِهِ   من سودِ أرديةِ الظلام أعاضَها

= دعي عزمات المستصام تسير   فتنجد في عرض الفلا وتغور

(١) المها: البلور.

(٢) القتير: الشيب.

(٣) الرامشنة: ورقة آس لها رأسان.

(٤) البلار: أراه لغة في البلور ولم يثبته صاحب اللسان.

(٥) الأصل: ابلاج.

(٦) لعلّ البيتين من قصيدته «على كمدي تهمي السحاب وتذرف» وهي من قصائد السجن، انظر المطمح: ٧٣ والنفح ٥: ١٨٣.

(٧) ذكر لقمان لطول العمر والسواد فشبه بذلك الليل، وذكر يوسف لجماله وقرن به طلوع الصبح

خـودٌ ألـمَّ بها الأسـىٰ في أزرقٍ بـرزت فَشَقَّقَ حُـزْنُهـا فضفـاضهـا

وقال علي بن ابي الحسين :

لاحظ ظـلام الدجىٰ والصبح يُخفِرَهُ كـأنـه جيشُ رومٍ يهـزِمُ الحَبَشـا

وقال حبيب بن أحمد:

قـد أغتـدي والـظلامُ منـتشـرٌ عـلى جـميـع البـلادِ عـسكَـرُهُ
والـصبـحُ حيـرانُ فيـه مسـتتـرٌ كـمـجـرمٍ هَـمُّـهُ تَـسَـتُّـرُهُ

وقال يوسف بن هارون :

بـدا الصبحُ من تحتِ الـظلام كـأنـه
خـوافي[1] جَنـاحَي هَيْقَـلٍ[2] بـاتَ حاضناً

وإلاَّ فكـالثوبِ السمـاويِّ مُعْلَمـا شقيقـاً بدا في أسفـلِ الثـوب بـائنـاً

وقال أحمد بن عبد ربه :

حـتـى إذا مـا الـليـلُ قَـوضَ راجـلاً عـنـد الغَـلَسْ
ويـدا الـصـبـاحُ كـغـرَّةٍ تـبـدو عـلى وجـه الـفـرس

وقال عباس بن فرناس :

فبتـنـا وأنـواعَ النـعيـم ابتـذالـنـا ولا غيـرَ عينيهـا وعينيَ كـالـي[3]
إلى أن بـدا وجـهُ الصبـاحِ كـأنـه جـبيـنُ فتـاةٍ لاحَ بيـن حـجـال[4]

---

(١) الأصل : مخافي .
(٢) الأصل : هيق ـ وهو ساكن الياء ـ ولا يصح به الوزن ، والهيقل كالهيق : وهو ذكر النعام .
(٣) كالي : مراع مراقب .
(٤) الحجال : جمع حجلة وهي مثل القبة تتخذ للعروس .

٣ ـ باب في الريح

قال وهيب بن البديهي[1]:

وريحٍ جربياءٍ[2] صاحبتنا ... لها في الوجه رَشْقٌ كالنبالِ
تغوص على البراقع والحشايا ... كغَوْصِ الطيفِ في سِترِ الحجال

وقال الحسن بن حسان:

فجبتُ بَساطَ الأرض لم أكُ سامعاً ... به عند شدوِ الجنِّ هتفاً إلى هتفِ
كأن حنينَ الريحِ في جَنَباتِه ... حنينُ المثاني والمثالثِ في العزف

وقال ابن هذيل أيضاً:

وَدَنَتْ في هبوبها مشيةَ النشوانِ حيرانَ بالمدامِ الشَّمْولِ
لصقتْ بالثرىٰ كما يخضعُ العاشقُ ذلّاً إلى الحبيب المَطول
واختفت عن فواطنِ[3] الخلق حتى شبهوها ضآلةً بنحول[4]

وقال ابن هذيل:

للصَّبا منّةٌ على الروضِ هادته ... بطيبِ الحبيبِ أيَّ ذمام
وجرتْ بينه رواحاً ليرتاحَ ... ويبقىٰ على رضى والتئام
كالشفيقِ الذي يؤلف ما بين ... حبيبين بَعْدَ قَطْعِ الكلام

---

(١) في اليتيمة شاعر اسمه محمد بن وهيب البدسمي (٢ : ٦٠).

(٢) الأصل : حربتا ؛ والجربياء : الريح التي تهب بين الجنوب والصبا ، وقيل هي الشمال وقيل هي النكباء التي تجري بين الشمال والدبور .

(٣) الأصل : قواطن .

(٤) كذا ولعله : بنحيل .

وقال أيضاً :

وَمُــرِنَّــةٍ بــعــد الــرواح كــأنــمــا ... في نحرهـا صوتُ القـريـع الهـادرِ
قــربت من الأسمــاع وهي بـعيــدةٌ ... منهـا وغـابتْ في الهبـوبِ الحـاضـر
فــإذا التقىٰ جمهـورهــا في دوحــةٍ ... فكــأنَّ فيـهــا كــلَّ ليـثٍ هــاصــر
وإذا استقــلَّ قتــامهــا[1] فكــأنمــا ... فيــه التفــافُ عســاكــرٍ بعســاكــر

القريع : الفحل من الإبل ، والقريع أيضاً سيد القوم .

وقال علي بن أبي الحسين :

خليليَّ مــا لي كلَّمــا هَبَّتِ الصَّبــا ... أحـنُّ إلى الأُفـق الــذي تـتـيـمَّــمُ
أكلِّفهــا حَـمْــلَ الســلامِ اليكُــم ... فـإن خـطرتْ يـومـاً عليكمْ فسلمــوا
كــأنَّ الصَّبــا عنــدي رســولٌ مُبَلِّغٌ ... أبــوح بــأســراري إلـيــه فيـكـتـم
إذا كــدتُ أن أسلو أجــدَّ صبــابتي ... كـتــابُ حبيـبٍ أو خيــالٌ مـسـلّم

وقال أيضاً :

غَــزَتْنَــا المُــزْنُ والــرايــاتُ دَجْنٌ ... بــأجــنــادٍ عــلـيـهــا قــائــدانِ
شــمــالٌ قــد تــبــاريــهــا قَبــولٌ ... كــأنــهــمــا مــعــاً فــرســاً رهــان

وقال أحمد بن فرج[2]:

ورُبَّتَ ريــحٍ امتــزجـتْ بنـفـسي ... مــزاجَ الــمــاءِ بــالــراحِ الــزُّلالِ
وجــدتُ لهــا وبي للشــوقِ مــا بي ... كمــا وَجَـدَ المهجِّــرُ بــالــظلال[3]
وبــات ثــرى الـعقـيقِ ينمُّ عـنهــا ... إلـيّ بمـثــل أنفــاسِ الـغــوالي[4]

---

(١) الأصل : قيامها ، والقتام : الغبار .
(٢) الأصل : فرح ـ بالمهملة .
(٣) المهجر : الذي يسير في الهاجرة .
(٤) الغوالي : جمع غالية وهي نوع من الطيب مركب من أخلاط .

فقــلْ في نشــوةٍ من نـفــحِ ريـحٍ ... سُقيتُ بهـا الشَّمـولَ من الشمـال[1]

ســرى في نــارِ أشــواقي ســراهــا ... إلى جَـذْبِ الثـرى بحيـا العَـزالي[2]

٤ ـ باب في البرق والرعد

وقال أحمد بن فرج:

ولـيـلـتـنــا بــالـغَــوْرِ أوْمضَ بــارقٌ ... حثيثُ الجنـاحِ مثلُ مـا نَبَضَ العِرقُ

سرى مثلما يسري الهوىٰ فيجوانحي ... بثنتين من أحــوالــه النــارُ والخـفق

ولاح كـأمثـالِ البُــرَىٰ خُـطِمَتْ بــه ... من الغَيْم في ليـل السُّـرَى أيْنُقٌ ورْق

وبـاتت ديـاجي الليــل منه كــأنهـا ... أحـابيش في أيـديهمُ الأَسَـلُ الـزُّرْقُ

البُرَىٰ . جمع برة ، وهي الحلقة التي تجعل من الوبر أو من الجلد ، يقال أبرى البعير يبريه ابـراء وهو بعيـر مبري ، والبـرى أيضاً : الخـلاخل، واحـدتهـا بـرة ، وتجمـع بـرين وبـرين. (٣) والورق : جمع أورق ، و هو لون بين الخضرة والسواد، يقال : جمل أورق بَيِّنُ الـورقة ، وهـو اتم الوان الإبل عند العرب واطيبها لحماً .

وقال سليمان بن بطال المتلمس:

وأرى خــلالَ الليــلِ مَبْـسِمَ بــارقٍ ... كـالزَّنْـدِ يُقْـدَحُ أو ضِـرامِ العـرْفَـجِ

فـكــأنَّــه مِـنْ أضـلعـي مُـتَـوَقِّـدٌ ... فـي الـجـوِّ إلَّا أنـه لـم يُـوهَـجِ

وكــأنَّ مـحبــوبـي تَـبَـسَّـمَ فَـوقــه ... ليزيدَ بـالإيماضِ في شَجْـوِ الشَّجي

وقال يوسف بن هارون:

كــأن انـدفــاعَ البــرقِ بين رعــوده ... تــطايـرُ نــارٍ لاصـطكــاكِ جنــادِلِ

---

(١) الشمول : الخمر .

(٢) الحيا : المطر ؛ العزالي : جمع عزلاء ، وهي فم المزادة من أسفلها .

(٣) أي بضم الباء وكسرها .

أو آسْدُ الشَّرَى في مُذْهَباتِ سلاسلٍ
إذا هي دارت نُهْنِهَتْ في السلاسل[١]

كأنَّ بناتِ الزنجِ[٢] فيها مشيرةٌ إلى الأرضِ عن أكمامِ حُمْرِ الغلائل

وقال أحمد بن درّاج[٣]:

يحدو ويَبْسِمُ بَرْقُهُ فتخالُهُ مَلكاً سطا بالرَّعْدِ والإيعادِ
تَمْري البوارقُ وَبْلَهُ فكأنها رَشْقٌ أُصيبَ به ذوو إمْراد

وقال مروان بن عبد الرحمن[٤]:

فكأنَّ الغمامَ صبٌ عميدٌ أنَّ بالرَّعْدِ حُرْقَةً واشتكاءَ
وكأنَّ البروقَ نارُ جواهُ والحيا دَمْعُهُ يسيلُ بكاء

وقال المهند:

أقلوبُ العشّاقِ ذاك الوميضُ أم عروقٌ يجولُ فيها نُبُوضُ
أم جنودٌ دُكْنُ السرابيل سُلَّتْ للقاء فيها سيوفٌ بيض
نشأتْ مثلما جرى الماءُ من شَتّى فَغَصَّت ـ لما تلاقَىٰ ـ الأروضُ[٥]
وأضاءت والرعدُ فيها كما أجلَبَ موْجٌ فلاح فيه وميض

وقال ابن هذيل[٦]:

---

(١) نهنهت : زجرت وصيح بها .

(٢) الأصل : الريح .

(٣) لم يردا في ديوانه .

(٤) الأصل : عبد الملك ، وهو خطأ ، ومروان بن عبد الرحمن هو الملقب بالطليق ، انظر التعليقات ؛ والبيتان في الحلة ١ : ٢٢٤ ، نقلاً عن كتاب التشبيهات لابن ابي الحسين .

(٥) شتى : يعني مصادر شتى ، إلاَّ أن تكون الكلمة مصحفة ؛ الأروض : جمع أرض .

(٦) البيتان في اليتيمة٢ : ١٤ من قطعة فيها سبعة أبيات .

ولقد شَفَّني فأسهَر طرفي　لَمْعُ برقٍ يرفُّ[1] في لمعانه
شمْتُهُ والظلامُ يفترُّ عنه　كافترارِ الزنجيّ عن أسنانه

وقال أيضاً :

كلَّفْتُها طولَ السُّهادِ فراقَبَتْ
برقاً يلوحُ وتارةً يتستَّرُ
وكأنَّ ليلي فارسٌ في كفِّه
رُمْحٌ يُقَلِّبُهُ، عليه مِغْفَرِ
تبدو له شُعَبٌ ، تطيرُ أمامها
شُعَلٌ ، تطيرُ لها القلوبُ وتُذْعَرُ
ويروغُ عن قَبْضِ السحابِ وميضُهُ
فكأنَّه فَرَسٌ مُعَارٌ أَشْقَرُ

وقال حسب بن أحمد :

ألا هَلْ رأتْ عيناك إيماضَ بارقٍ
بدا مَوْهناً في الجوِّ بين سحابِهِ
كما قَلَّبَ القَينُ الحسامَ وردَّه
على عَجَلٍ في جَفْنِهِ وَقِرَابه
كأنَّ التي من أرضها لاحَ وَكَّلَتْ
به بُخْلَها في جَيْئِهِ وذهابه

وقال المهند :

تكشَّفَ كالأبلقِ الطَّافرِ　وَهَمْهَمَ كالبازلِ الهادرِ
كأنَّ فؤادِيَ في خَفْقِهِ　وعينيَّ في عينهِ الماطر

وقال ابن الخطيب :

(١) اليتيمة : يزف .

يا هَلْ ترى البرقَ بَدا كالمُنْصُلِ
هَزَّتْهُ بالخبرةِ كفُّ الصيقل
أو كسنانٍ في عَجاجٍ[1] القَسْطل
أو كضرامِ جَمْرِ نارِ المصطلي
أضرمها في جُنْحِ ليلٍ ألْيَلِ
أو مثل ما لَوَّحْتَ بالسَّجنجل[2]
مقابلاً للشمسِ غيرَ مُؤْتَلِ[3]
أو كابتسامِ لكعابٍ عَيْطَلِ[4]
عن واضحٍ أشْنَبَ عذبِ المنهلِ
أو مثلها في جيدها من الحلي
أو نحوها لاح لِعَيْنِ[5] المجتلي
بدا[6] يُنيرُ كشهابٍ مُشعل

٥ ـ باب في السحاب والمطر

قال يوسف بن هارون :

وَسُفْحٍ كأكبادِ العدا أو كأنها
كتائبُ زَنْجٍ فَوْقَ أَدْهَمِ[7]
كأنَّ سلوكَ الغيثِ عند اتصالِهِ
بأسفلَ مِنْ أعلىٰ سَدَىً غير ملحم

---

(١) الأصل : حجاج .

(٢) السجنجل : المرآة .

(٣) غير مؤتل : غير مقصر .

(٤) العيطل : المرأة الطويلة أو الطويلة العنق الحسنة الجسم .

(٥) الأصل : لغير .

(٦) كذا ولها وجه ، ولعلها « بَدْراً » .

(٧) السفع : يشير إلى لون السحائب .

سُلُوكٌ كـذَوْبِ الـدرِّ تُعنى بفتلهـا الريـاحُ
ولـكـن فَـتْـلُهـا غـيـرُ مُـبْـرَمِ

وقال عبد الرحمن بن المنذر في الطل :

ألـستَ تـرى حُسْنَ الـزمـانِ ومـا يُبـدي
وَحُسْنَ انـتـشـارِ الـطلِّ فـي وَرَقِ الـوَرْدِ
كـأنَّ حَـبـابَ الـمـاءِ فـي جَـنَـبَـاتِـهِ
تـنـاثُـرُ دمـعٍ جـالَ في صـفحـةِ الـخـدِّ

وقال يوسف بن هارون(1) :

نـورٌ وَغَـيْـثٌ مُـسْـبَـلُ وقـهـوةٌ تُـسَـلْسَـلُ
فـالغيثُ(2) من سحـابِـهِ طـلٌّ ضـعـيـفٌ يـنـزل
كـأنـه بُـرادةٌ مـن فِـضَّـةٍ تُـغَـرْبِـلُ

وقال أيضاً في سحابة :

وَمُـشْـتَـمَّـةٍ لـلأرضِ حـتـىٰ كـأنـهـا
تَقُصُّ محـولاً في البِطَاحِ (3) المـواحـل(4)
فَـجَـنَّـتْ كـمـا جَـنَّ الـظلامُ وأفـرَغَـتْ
عـلـينـا كـإفـراغ الـدِّلاء الـحـوافـل(5)
أطـلَّتْ غـديـراً فـي الـهـواء كـأنـه
هـو البحـرُ يجـري بـالسفيـنِ الحـوامـل

---

(1) الأبيات في النفح ٥ : ٢١٤.

(2) النفح : والأفق .

(3) الأصل : النفاح .

(4) المشتمة : التي تشم الأرض أي دانية تكاد تلامسها ؛ تقص : تتبع الأثر .

(5) الحوافل : الممتلئة .

فلو أنها صَبَّتْ جميعاً لَغَرَّقَتْ
ولكنما[1] أرواحُها كالمناخل
كأنَّ غديرَ الماءِ بين حبابه
وبين شخوصٍ قُمْنَ مثلَ الأنامل
مساميرُ درٍّ تعتلي برؤوسها مراراً ، وطوراً تعتلي بالأسافل

وقال المهند :

وساريةٍ طوعَ إعصارها محملةٍ ثقلَ أوقارها
مَخَايلها[2] بالحيا جَمَّةٌ فإصهارها مثلُ إضمارها
طَوَتْ صِفَةَ[3] الأرض أحشاؤها كطيٍّ الجفونِ لأبصارها
نأى غَيْمُها ودنا غَيْثها دُنُوَّ الشموس بأنوارها

وقال ابن هذيل :

وَحَنَّانَةٍ في الجوِّ كدراءَ أَقْبَلَتْ
تبسَّمُ عن وَمْضٍ منَ البرقِ خاطفِ
تزفُّ بها ريحُ الصَّبا، غير أنها
تهادى تهادِي الخودِ بين الوصائف

وقال محمد بن مطرف بن شخيص :

فكأنَّ السحابَ في الأُفقِ رَكبٌ زَمَّ أحداجه وَصفَّ قِطَارَهْ[4]
يُذْكرُ الغيثُ والرعودُ حجيجاً عَجَّ أصواتَهُ وبَثَّ جِمارَهْ[5]

---

(١) الأصل : ولكنها .

(٢) الأصل : محايلها .

(٣) الأصل : صعة .

(٤) الاحداج جمع حدج وهو الجمل عليه هودج ، والقطار : قافلة الابل .

(٥) الأصل : ولث خماره .

وقال يوسف بن هارون:

وجـارية جَـرْيَ السفين تسـوقُهـا الرياح ولـكـنْ فـي الـهـواءِ غَـديـرُهـا
رأيتُ بـأحشـاءِ البحـورِ سفينـهـا وتلكَ سفينٌ في حشاهـا بُحـورهـا

وقال أيضاً[1]:

وسـاريـةٍ كـالليـلِ لكن نجـومُهـا
على إثـر مـا يَـطْلُعْنَ فيهـا غـوائـرُ
فلمـا استـدارتْ في الهـواءِ كـأنّهـا
عُقابٌ ، متى ما يخفقِ البرقُ، كاسرُ
وَشَمَّتْ[2] دوانيهـا الـرُّبىٰ بـأُنـوفهـا
كما شمَّ أكفالَ العذارىٰ[3] الضفائـر
هَـوَتْ مثلما تهـوي العُقـابُ كـأنّهـا
تخـافُ فـواتَ المحـلِ فهي تبـادر
كـأن انتشـارَ القـطرِ فيـه ضـوابط
تُـدارُ على الغُـدْرانِ منـه دوائـر[4]

وقال أحمد بن فرج :

يـا غـيـمُ أكـبـرُ حـاجـتـي سَقْيُ الحمى إنْ كنتَ تُسْعِفْ
رَشِّـفْ صـداه فـطالـمـا رَوَّى الصَّـدىٰ فيـه التـرشُّف

---

(١) في المرقص والمطرب : ١٤ منها البيت الرابع والثالث والخامس؛ وانظر مسالك الأبصار ١١: ١٧٦ والدرة المضيئة ٦: ٥٧٥.

(٢) المرقص : تشم .

(٣) المرقص : أذيال العروس .

(٤) المـرقص : انتشار القـطر منها . . . تـدور ؛ قال ابن سعيـد : اسم البيكار عنـد أهل الأنـدلس « الضابط ».

وآخلعْ عليه من الربيع ووشيه ثوباً مُصَنَّف
حتى ترى أنهاءَهُ[1] وكأنَّها أعشارُ مُصْحَف
وتخالُ مُرْفَضَّ النَّدى في رَوْضِه شَكْلاً وأَحْرُف

الانهاء : جميع نهي ويقال نهي ـ بالكسر ـ

(1) في الأصل : ازهاره ، وهو لا يوافق شرحه بعد الأبيات للفظة « الإنهاء ».

٣ ـ من كتاب (أسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجاني المتوفي سنة ٤٧١ هـ

فصل

« الفرق بين الاستعارة[١] والتمثيل »

اعلم أن من المقاصد التي تقع العناية بها أن نبين حال الاستعارة مع التمثيل أهي هو على الإطلاق حتى لا فرق بينِ العبارتين أم حدها غير حده ، إلَّا أنها تتضمنه وتتصل به ، فيجب أن نفرد جملة من القول في حالها مع التمثيل .

قد مضىٰ في الاستعارة أن حدها أن يكون للفظ اللغوي أصل ثم ينقل عن ذلك الأصل على الشرط المتقدم . وهذا الحد لا يجيء في معنىٰ التمثيل الذي تقدم[٢] من أن الأصل في كونه مثلاً وتمثيلاً هو التشبيه المنتزع من مجموع أمور ، والذي لا يحصله لك إلَّا جملة من الكلام أو أكثر ؛ لأنك[٣] قد تجد الألفاظ في الجمل التي يعقد منها جارية على أصولها وحقائقها في اللغة .

وإذا كان الأمر كذلك بان أن الاستعارة يجب أن تفيد حكماً زائداً على

---

(١) الاستعارة التي يعنيها هي الاستعارة المفردة إذ من رأيه أن الاستعارة التمثيلية التي أثبتها القوم من فروع التمثيل .

(٢) أي في قوله إن المثل الحقيقي والتشبيه الذي هو أولىٰ الخ . .

(٣) علة لقوله لا يجيء .

المراد بالتمثيل إذ لو كان مرادنا بالاستعارة هو المراد بالتمثيـل لوجب أن يصـح إطلاقها في كل شيء يقال فيـه إنه تمثيـل ومثل . والقـول فيها أنهـا دلالة على حكم ثبت للفظ وهو نقله عن الأصل اللغوي وإجراؤه على مـا لم يوضـع له . ثم إن هذا النقل يكون في الغالب[1] من أجـل شبه بين مـا نقل إليـه وما نقـل عنه .

وبيان ذلك ما مضىٰ من أنك تقول رأيت أسداً ـ تريد رجلاً شبيهاً بـه في الشجاعة ، وظبية ـ تريد امرأة شبيهة بالظبية فـالتشبيه ليس هـو الاستعارة ولكن الاستعارة كانت من أجـل التشبيه وهـو كالغـرض فيها ، أو كـالعلة والسبب في فعلهـا . فإن قلت كيف تكـون الاستعارة من أجـل التشبيه والتشبيـه يكـون ولا استعارة ؟ وذلك إذا جئت بحرفه الظاهر فقلت : زيـد كالأسـد . فالجـواب أن الأمـر كمـا قلت ولكن التشبيـه يحصـل بـالاستعـارة على وجـه خـاص وهـو المبـالغـة . فقـولي « من أجـل التشبيــه » أردت من أجـل التشبيــه على هـذا الشرط . وكما أن التشبيه الكائن على وجه المبالغة غرض فيها وعلة ، كذلـك الاختصار والإيجاز غـرض من أغراضهـا . ألا ترى أنـك تفيد بـالاسم الواحـد الموصوف والصفـة والتشبيه والمبـالغة لأنـك تفيد بقـولك « رأيت أسـداً » أنك رأيت شجاعاً شبيهاً بالأسد وأن شبهه به في الشجاعة على أتم ما يكـون وأبلغه حتى إنه لا ينقص عن الأسد فيها . وإذا ثبت ذلك فكمـا لا يصح أن يقـال إن الاستعـارة هي الاختصـار والإيجـاز على الحقيقـة وإن حقيقتهـا وحقيقتهمـا واحـدة ، ولكن يقال إن الاختصـار والإيجاز يحصـلان بها ، أو همـا غرضـان فيها ، ومن جملة ما دعا إلى فعلها ، كذلك حكم التشبيه معها . فإذا ثبت أنها ليست التشبيه على الحقيقة كذلك لا تكون التمثيل على الحقيقة ، لأن التمثيل تشبيه إلاَّ أنه تشبيه خاص ، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً .

---

(١) بناء على ما تقدم له من تقسيم الاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة .

وإذ قد تقرر هذه الجملة فإذا كان الشبه بين المستعار منه والمستعار له من المحسوس والغرائز والطباع وما يجري مجراها من الأوصاف المعروفة كان حقها أن يقال إنها تتضمن التشبيه ولا يقال إن فيها تمثيلاً وضرب مثل وإذا كان الشبه عقلياً جاز إطلاق التمثيل فيها وأن يقال ضرب الاسم مثلاً لكذا كقولنا ضرب النور مثلاً للقرآن ، والحياة مثلاً للعلم . فقد حصلنا من هذه الجملة على أن المستعير يعمد إلى نقل اللفظ عن أصله في اللغة إلى غيره ويجوز به مكانه الأصلي إلى مكان آخر لأجل الأغراض التي ذكرنا من التشبيه والمبالغة والاختصار . والضارب للمثل لا يفعل ذلك ولا يقصده ولكنه يقصد إلى تقرير الشبه بين الشيئين من الوجه الذي مضىٰ . ثم إن وقع في أثناء ما يعقد به المثل من الجملة والجملتين والثلاث لفظة منقولة عن أصلها فذاك شيء لم يعتمده من جهة المثل الذي هو ضاربه . وهكذا كل متعاط لتشبيه صريح[1] لا يكون نقل اللفظ من شأنه ولا من مقتضىٰ غرضه ، فإذا قلت : زيد كالأسد ؛ وهذا الخبر كالشمس في الشهرة ، وله رأي كالسيف في المضاء ، لم يكن منك نقل للفظ عن موضوعه . ولو كان الأمر على خلاف ذلك لوجب ألا يكون في الدنيا تشبيه إلاّ وهو مجاز ، وهذا محال لأن التشبيه معنى من المعاني وله حروف وأسماء تدل عليه فإذا صرح بذكر ما هو موضوع للدلالة عليه كان الكلام حقيقة كالحكم في سائر المعاني فاعرفه .

واعلم أن اللفظة المستعارة لا تخلو من أن تكون اسماً أو فعلاً ، فإذا كانت اسماً كان اسم جنس أو صفة ، فإذا كان اسم جنس فإنك تراه في أكثر الأحوال التي تنقل فيها محتملاً متكفئاً[2] بين أن يكون للأصل وبين أن يكون للفرع الذي من شأنه أن ينقل إليه . فإذا قلت رأيت أسداً ، صلح هذا الكلام

(١) يعني به ما قابل الاستعارة لا ما عناه فيما سبق من جعله مقابلاً للتمثيل .

(٢) المتكفىء في الأصل المتمايل إلى الأمام كما تتكفأ السفينة في جريها ويراد به هنا الصالح للأمرين على السواء .

لأن تـريد بـه أنك رأيت واحـداً من جنس السبع المعلوم وجـاز أن تريـد أنـك رأيت شجاعاً باسلاً شـديد الجـرأة وإنما يفصـل لك أحـد الغرضين من الآخـر شاهد الحال[١] وما يتصل به من الكلام من قبل وبعد . وإن كان فعلاً أو صفة كان فيهما هذا الاحتمال في بعض الأحوال، وذلك إذا أسندت الفعل وأجريت الصفة على اسم مبهم يقع على ما يكون أصلاً في تلك الصفة وذاك الفعل وما يكون فرعاً فيهما نحو أن تقول : أنار لي منير ، فهذا الكلام يحتمـل أن يكون « أنـار » و« منير » فيـه واقعين على الحقيقة بـأن يُعنىٰ بـالشيء بعض الأجسـام ذوات النور . وأن يكونا واقعين على المجاز بـأن تريـد بالشيء نـوعاً من العلم والرأي وما أشبه ذلك من المعاني التي لا يصح وجـود النور فيهـا حقيقة وإنمـا توصف به على سبيل التشبيه . وفي الفعل والصفة شيء آخر وهو أنـك كأنـك تدعي معنى اللفظ المستعار[٢] له . فإذا قلت : قد أنارت حجته ، وهذه حجة منيرة ، فقد ادعيت للحجة النور ولذلك تجيء فتضيفه إليه كما تضاف المعاني التي يشتق منها الفعل والصفـة إلـى الفاعـل والموصـوف[٣] فتقول : نـور هذه الحجـة جلا بصـري وشرح صـدري ، كما تقـول : نور الشمس . والمثـل لا يوجب شيئاً من هذه الأحكام فلا هو يقتضي تـردد اللفظ بين احتمال شيئين ولا أن يدعىٰ معناه للشيء ولكنه يدع اللفظ مستقراً على أصله .

وإذْ قـد ثبـت هذا الأصـل فاعلم أن ههنـا أصلاً آخـر يبنى عليه وهـو أن الاستعـارة وإن كانت تعتمـد التشبيه والتمثيـل[٤] وكـان التشبيـه يقتضي شيئين مشبهـاً ومشبهاً بـه وكذلـك التمثيل لأنـه كما عـرفت تشبيه إلاَّ أنـه عقلي ـ فإن

---

(١) المناسب أو بدل الواو ليكون إشارة إلى القرينتين الحالية والمقالية

(٢) الصواب للمستعار له إلاَّ إذا قيل إنه متعلق بتدعي والضمير يعود إلى الشيء من أسند إليه الفعل وأجريت عليه الصفة .

(٣) أي الحقيقيين .

(٤) الأظهر أو بدليل ما بعده .

الاستعارة من شأنها أن تسقط ذكر المشبه من البين وتطرحه وتدعي له الاسم الموضوع للمشبه به كما مضىٰ من قولك : رأيت أسداً تريد رجلاً شجاعاً ووردت بحراً زاخراً تريد رجلاً كثير الجود فائض الكف ، وأبديت نوراً تريد علماً ، وما شاكل ذلك . فالاسم الذي هو المشبه غير مذكور بوجه من الوجوه كما ترىٰ . وقد نقلت الحديث إلى اسم المشبه به لقصدك أن تبالغ فيه فتضع اللفظ بحيث تخيل أن معك نفس الأسد والبحر والنور كي تقوي أمر المشابهة وتشدده ويكون لها هذا الصنيع حيث يقع الاسم المستعار فاعلاً أو مفعولاً أو مجروراً بحرف الجر أو مضافاً إليه ، فالفاعل كقولك : بدا لي أسد ، وانبرىٰ لي ليث ، وبدا نور ، وظهرت شمس ساطعة ، وفاض لي بالمواهب بحر ، وكقوله[1] :

وفي الجيرة الغادين من بطن وَجْرَة[2] غـزال كحيل المقلتين ربيب

والمفعول كما ذكرت من قولك رأيت أسداً . والمجرور نحو قولك لا عار إن فر من أسد يزأر ، والمضاف إليه كقوله[3] :

يا بن الكواكب من أئمة هاشم والرُّجَّح الأحساب والأحلام

وإذا جاوزت هذه الأحوال كان اسم المشبه مذكوراً وكان مبتدأ واسم المشبه به واقعاً في موضع الخبر ، كقولك زيد أسد ، أو علىٰ هذا الحد . وهل يستحق الاسم في هذه الحالة أن يوصف بالاستعارة أم لا ؟ فيه شبهة وكلام سيأتيك إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) نسبه في الأمالي نقلاً عن الرياشي لأعرابي وقيل إنه للأحوص الأنصاري من شعراء العصر الأموي وبعده :

فلا تحسبي أن الغريب الذي نأى ولكن من تنأين عنه غريب

(٢) وجرة موضع بين مكة والبصرة .

(٣) هو أبو تمام من قصيدة يهنىء بها الواثق ويعزيه في أبيه المعتصم ومطلعها :

ما للدموع تروم كل مرام والجفن ثاكل هجعة ومنام

وإذ قد عرفت[1] هـذه الجملة فينبغي أن تعلم أنه ليس كـل شيء يجيء مشبهاً به بكاف أو بإضـافة « مثـل » إليه يجـوز أن تسلط عليه الاستعـارة وينفذ حكمها فيه حتى تنقله عن صـاحبه وتـدعيه للمشبـه على حد قـولك . أبـديت نوراً ، تريد علماً ، وسللت سيفاً صارماً ، تريد رأياً نافذاً . وإنمـا يجوز ذلـك إذا كان الشبه بين الشيئين مما يقرب مأخذه ويسهل متناوله ، ويكون في الحال دليل عليه وفي العرف شاهد له حتى يمكن المخـاطب إذا أطلقت له الاسم أن يعرف الغرض ويعلم ما أردت فكل شيء كـان من الضرب الأول الـذي ذكرت أنك تكتفي فيه بإطلاق الاسم ، داخـلاً عليه حـرف التشبيه نحـو قولهم : هـو كالأسد ، فإنك إذا أدخلت عليه حكم الاستعارة وجـدت في دليل الحـال وفي العرف ما يبين غرضك ، إذ يعلم إذا قلت رأيت أسداً ـ وأنت تريـد الممدوح ـ أنك قصدت وصفه بالشجـاعة ، وإذا قلت طلعت شمس ـ وأنت تـريد امـرأة ـ عُلم بأنك[2] تريد وصفها بالحسن وإن أردت الممدوح علم أنك تقصـد وصفه بالنباهة والشرف .

فأما إذا كان[3] من الضرب الثاني لا سبيل إلى معرفة المقصود من الشبه

= يـا تـربـة المعصـوم تـربـك مـودع   مـاء الـحـيـاة وقـاتـل الإعـدام

وقبله :

لله أي حـيـاة انـبـعـثـت لـنـا   يـوم الـخـمـيس وبـعـد أي حـمـام

أودي بـخـيـر إمـام اضـطـربـت لـه   شـعـب الـرجـال وقـام خـيـر إمـام

تـلـك الـرزيـة لا رزيـة مـثـلـهـا   والـقـسـم لـيس كـسـائـر الأقـسـام

(١) هذا تقييد لما فهم مما سبق من أن الاستعارة من شأنها أن تسقط المشبه إلى آخـر إذ يفهم منه التعميم وأن كل تشبيه يمكن تحويله إلى استعارة .

(٢) المناسب أنك بحذف الباء إلاّ إذا ضمن معنى تعلق كقول الحماسي :

واعـلـم بـأن الـضـيـف يـو   مـا سـوف يـحـمـد أو يـلـوم

(٣) اسم كان يعود إلى الشيء ومن الضرب الثاني خبرها وجملة الخ لا سبيل . . . جملة حـالية من الضمير المستكن في الخبر أو سقطت كلمة (الذي) من الجملة .

فيه إلاَّ بعد ذكر الجمل التي يعقد بها التمثيل فإن الاستعارة لا تدخله لأن وجه الشبه إذا كان غامضاً لم يجز أن تقتسر الاسم وتغصب عليه موضعه وتنقله إلى غير ما هو أهله من غير أن يكون معك شاهد ، ينبىء عن الشبه فلو حاولت في قوله « فإنك كالليل الذي هو مدركي » أن تعامل الليل معاملة الأسد في قولك : رأيت أسداً ـ أعني أن تسقط ذكر الممدوح من البين ـ لم تجد له مذهباً في الكلام ولا صادفت طريقة توصلك إليه ، لأنك لا تخلو من أحد أمرين إما أن تحذف الصفة وتقتصر على ذكر الليل مجرداً فتقول : إن فررت أظلني الليل . وهذا محال لأنه ليس في الليل دليل على النكتة التي قصدها من أنه لا يفوته وإن أبعد في الهرب ، وصار إلى أقصىٰ الأرض ، لسعة ملكه وطول يده ، وأن له في جميع الآفاق عاملاً وصاحب حبس ومطيعاً لأوامره ، يرد الهارب عليه ، ويسوقه إليه ، وغاية ما يتأتىٰ في ذلك أنه يريد إن هرب عنه أظلمت عليه الدنيا وتحير ولم يهتد فصار كمن يحصل في ظلمة الليل ، وهذا شيء خارج عن الغرض ، وكلامنا على أن تستعير الاسم لتؤدي به التشبيه الذي قصد في البيت ولم أرد أنه لا تمكن استعارته على معنى ما ولا يصلح في غرض من الأغراض ؛ وإن لم تحذف الصفة وجدت طريق الاستعارة فيه يؤدي إلى تعسف إذ لو قلت : إن فررت منك وجدت ليلاً يدركني وإن ظننت أن المنتأى واسع والمهرب بعيد ـ قلت ما لا تقبله الطباع ، وسلكت طريقة مجهولة لأن العرف لم يجر بأن تجعل الممدوح ليلاً هكذا .

فأما قولهم إن التشبيه بالليل يتضمن الدلالة على سخطه فإنه لا يفسح في أن يجري اسم الليل على الممدوح جرى الأسد والشمس ونحوهما ، وإنما تصلح استعارة الليل لمن يقصد وصفه بالسواد والظلمة ؛ كما قال ابن طباطبا :

* بعثت معي قطعاً من الليل مظلماً *

يعني زنجياً قد أنفذه المخاطب معه حين انصرف عنه إلى منزله ، هذا ـ

ويماثله كلما[1] وجدت ما إن رمت فيه طريقة الاستعارة لم تجد[2] فيه هذا القدر من التمحل والتكلف أيضاً ، وهو كقول النبي صلّى الله عليه وسلم « الناس كابل مائة لا تجد فيها راحلة » قل الآن من أي جهة تصل إلى الاستعارة ههنا ، وبأي ذريعة تتذرع إليها ؟ هل تقدر أن تقول رأيت إبلاً مائة لا تجد فيها راحلة ، في معنى رأيت أناساً والإبل المائة التي لا تجد فيها راحلة تريد الناس ، كما قلت رأيت أسداً ، على معنى رجلاً كالأسد وأطلقت[3] عليه الأسد على معنى الذي هو الأسد[4] ؟ وكذا قول النبي صلّى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن كمثل النخلة أو مثل الخامة »[5]؟ لا تستطيع أن تتعاطى الاستعارة في شيء منه فتقول رأيت نخلة أو خامة على معنى رأيت مؤمناً . إن من رام مثل هذا كان كما قال صاحب الكتاب ملغزاً تاركاً لكلام الناس الذي يسبق إلى أفئدتهم . وقد قدمت طرفاً من هذا الفصل فيما مضى ولكنني أعدته ههنا لاتصاله بما نريد ذكره .

فقد ظهر أنه ليس كل شيء يجيء فيه التشبيه الصريح بذكر الكاف ونحوها يستقيم نقل الكلام فيه إلى طريقة الاستعارة وإسقاط ذكر المشبه جملة والاقتصار على المشبه به . وبقي أن يتعرف الحكم في الحالة الأخرى[6]

---

(١) الصواب أن نفصل (ما) من كل وتكون كل فاعل يماثل وما نكرة موصوفة وظرف وجدت الأولى محذوف تقديره فيه وما الثانية مفعول وجدت وهي نكرة موصوفة بجملتي الشرط والجواب ويصح أن تكون ما الثانية فاعل يماثل وتكون وكلما وجدت اعتراضية وبعد فهي عبارة ركيكة.

(٢) الصواب وجدت بدليل ما بعده من قوله ملغزاً وقوله تاركاً كلام الناس.

(٣) الصواب وأطلقت .

(٤) الصواب كالأسد .

(٥) الخامة الغضة الرطبة من النبات ولفظ الحديث مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع تميلها الريح مرة هكذا ومرة هكذا ونحوه قول الطرماح :

إنما نحن مثل خامة زرع ... فمتى يأن يأت محتصده

(٦) وهي الحال التي يكون الطرفان فيها موجودين في الكلام على جهة التشبيه البليغ .

وهي التي يكون كل واحد من المشبه والمشبه به مذكوراً فيها نحو : زيد أسد ووجدته أسداً ، هل تساوق[1] صريح التشبيه حتى يجوز في كل شيئين قصد تشبيه أحدهما بالآخر أن تحذف الكاف من الثاني وتجعله خبراً عن الأول أو بمنزلة الخبر ؟ والقول[2] في ذلك أن التشبيه إذا كان صريحاً بالكاف و« مثل » كان الأعرف الأشهر في المشبه به أن يكون معرفة كقولك : هو كالأسد وهو كالشمس وهو كالبحر وكليث العرين وكالصبح وكالنجم وما شاكل ذلك ، ولا يكاد يجيء نكرة مجيئاً يرتضىٰ ، نحو هو كأسد وكبحر وكغيث ، إلَّا أن يخصص بصفة نحو كبحر زاخر ، فإذا جعلت الاسم المجرور بالكاف معرباً بالإعراب الذي يستحقه الخبر من الرفع والنصب كان كلا الأمرين ـ التعريف والتنكير ـ فيه حسناً جميلاً ـ. تقول زيد الأسد والشمس والبحر ، وزيد أسد وشمس وبدر وبحر .

وإذ قد عرفت[3] هذا فارجع إلى نحو :

* فإنَّك كالليل الذي هو مدركي *

واعلم أنه قد يجوز فيه أن تحذف الكاف وتجعل المجرور (الليل) خبراً فتقول : فإنك الليل الذي هو مدركي . أو أنت الليل الذي هو مدركي . وتقول في قول النبي صلّى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع » ألمؤمن الخامة من الزرع . وفي قوله عليه الصلاة والسلام : « الناس كإبل مائة » الناس إبل مائة . ويكون تقديره على أنك قدرت مضافاً محذوفاً على حد (واسئل القرية) تجعل الأصل فإنك مثل الليل ثم تحذف مثلاً .

---

(١) تساوقت الغنم تزاحمت في السير .

(٢) يؤخذ من هذا أنهما يتساوقان تعريفاً ولا يتساوقان تنكيراً .

(٣) فيه بيان الفرق بين التشبيه الذي لا تأول فيه وما فيه التأول من جهة المعنى عند تحويلهما إلى تشبيه بليغ وبعبارة أخرىٰ إن المشبه إذا كان مفرداً ساغ تحويله إلى تشبيه بليغ وإلَّا لا يمكن كما في التمثيل المركب .

والنكتة في الفرق[1] بين هذا الضرب الذي لابد للمجرور بالكاف ونحوها من وصفه بجملة من الكلام أو نحوها وبين الضرب الأول الذي هو نحو زيد كالأسد، أنك إذا حذفت الكاف هناك فقلت: زيد الأسد فالقصد أن تبالغ في التشبيه فتجعل المذكور كأنه الأسد وتشير إلى مثل ما يحصل لك من المعنى إذا حذفت ذكر المشبه أصلاً فقلت: رأيت أسداً أو الأسد فأما في نحو « فإنك كالليل الذي هو مدركي » فلا يجوز أن تقصد جعل الممدوح الليل ولكنك تنوي أنك أردت أن تقول : فإنك مثل الليل ثم حذفت المضاف من اللفظ وأبقيت المعنى على حاله إذا لم تحذف . وأما هناك فإنه وإن كان يقال أيضاً إن الأصل زيد مثل الأسد ثم تحذف ، فليس الحذف فيه على هذا الحد بل على أنه جعل كأن لم يكن لقصد المبالغة . ألا تراهم يقولون جعله الأسد وبعيد أن تقول جعله الليل لأن القصد لم يقع إلى وصف في الليل كالظلمة ونحوها وإنما قصد الحكم الذي له من تعميمه الآفاق وامتناع أن يصير الإنسان إلى مكان لا يدركه الليل فيه .

وإن أردت أن تزداد علماً بأن الأمر كذلك أعني أن ههنا ما يصلح فيه التشبيه الظاهر ولا تصلح فيه المبالغة وجعل الأول الثاني فاعمد إلى[2] ما تجد الاسم الذي افتتح به المثل فيه غير محتمل لضرب من التشبيه إذا أفرد وقطع عن الكلام بعده كقوله تعالىٰ : ﴿ **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء** ﴾ الآية لو قلت : إنما الحياة الدنيا ماء أنزلناه من السماء أو الماء ينزل من السماء فتخضر منه الأرض ، لم يكن للكلام وجه ، غير أن تقدر حذف « مثل » نحو إنما الحياة الدنيا مثل ماء ينزل من السماء فيكون كيت وكيت ، إذ لا يتصور بين الحياة الدنيا والماء شبه يصح قصده وقد أفرد كما قد يتخيل في البيت أنه قصد تشبيه الممدوح بالليل في السخط . وهذا موضع في الجملة

---

(١) وهذا ما فهم من قوله ويكون تقديره الخ . . .

(٢) أي إلى تركيب .

مشكل ولا يمكن القطع فيه بحكم على التفصيل ، ولكن لا سبيل إلى جحد أنك تجد الاسم في الكثير وقد يوضع موضعاً في التشبيه بالكاف لو حاولت أن تخرجه في ذلك الموضع بعينه إلى حد الاستعارة[1] والمبالغة ، وجعل هذا ذاك ، لم ينقد لك كالنكرة التي هي « ماء » في الآية وفي الآي الآخر نحو قوله تعالىٰ : ﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ﴾ ولو قلت : هم صيب ولا تضمر مثلاً البتة على حد « هو أسد » لم يجز لأنه لا معنىٰ لجعلهم صيباً في هذا الموضع ، وإن كان لا يمتنع أن يقع صيب في موضع آخر ليس من هذا الغرض في شيء استعارة[2] ومبالغة كقولك ، فاض صيب منه تريد جوده ، وهو صيب يفيض ، تريد يتدفق في الجود ـ فلسنا نقول إن هاهنا اسم جنس واسماً صفة لا يصلح للاستعارة في حال من الأحوال .

وهذا شَعب من القول[3] يحتاج إلى كلام أكثر من هذا ويدخل فيه مسائل ولكن استقصاءه يقطع عن الغرض . فإن قلت فلابد من أصل يرجع إليه في الفرق بين ما يحسن أن يصرف وجهه إلى الاستعارة[4] . والمبالغة وما لا يحسن ذلك فيه ، ولا يجيبك المعنى إليه ، بل يصد بوجهه عنك متى أردته عليه . فالجواب أنه لا يمكن أن يقال فيه قول قاطع . ولكن ههنا نكتة يجب الاعتماد عليها ، والنظر إليها ، وهي أن الشبه إذا كان وصفاً معروفاً في الشيء قد جرىٰ العرف بأن يشبه من أجله به ، وتعورف كونه أصلاً فيه يقاس عليه ، كالنور والحسن في الشمس أو الاشتهـ \ 3 ،لظهـور وأنها لا تخفي فيهـا[5] أيضاً وكالطيب في المسك والحلاوة في العسل والمرارة في الصاب والشجاعة في الأسد والفيض في البحر والغيث والمضاء والقطع والحدة في السيف والنفاذ

(١) الصواب أو المبالغة بدليل ما بعده .

(٢) الصواب أو مبالغة .

(٣) أي قبيلة وطائفة .

(٤) الصواب أو المبالغة .

(٥) فيها مرتبط بالاشتهار والظهور .

في السنان وسرعة المرور في السهم وسرعة الحركة في شعلة النار وما شاكل ذلك من الأوصاف التي لكل وصف منها جنس هو أصل فيه ، ومقدم في معانيه - فاستعارة الاسم للشيء على معنى ذلك الشبه تجيء سهلة منقادة ، وتقع مألوفة معتادة ، وذلك أن هذه الأوصاف من هذه الأسماء قد تعورف[1] كونها أصولاً فيها وأنها أخص ما توجد فيه بها ، فكل أحد يعلم أن أخص المنيرات[2] بالنور الشمس ، فإذا أطلقت ودلت الحال على التشبيه لم يخف المراد . ولو أنك أردت من الشمس الاستدارة ، لم يجز أن تدل عليه بالاستعارة ، ولكن إن أردتها من الفلك جاز ، فإن قصدتها من الكرة كان أبين لأن الاستدارة من الكرة أشهر وصف فيها . ومتى صلحت الاستعارة في شيء فالمبالغة فيه أصلح ، وطريقها أوضح ، ولسان الحال بها أفصح ، أعني أنك إذا قلت : « يا بن الكواكب من أئمة هاشم » و« يا بن الليوث الغرّ » فأجريت الاسم على المشبه إجراءه على أصله الذي وضع له . وادعيته له كان قولك : هم الكواكب وهم الليوث ، أو هم كواكب وليوث ، أحرى أن تقوله ، وأخف مؤنة على السامع في وقوع العلم له به .

واعلم أن المعنى في المبالغة - وتفسيرنا لها بقولنا جعل هذا ذاك وجعله الأسد وادعىٰ أنه الأسد حقيقة - أن المشبه الشيء بالشيء من شأنه أن ينظر إلى الوصف الذي يجمع بين الشيئين وينفي عن نفسه الفكر فيما سواه جملة ، فإذا شبه بالأسد ألقىٰ صورة الشجاعة بين عينيه ، وألقىٰ ما عداها فلم ينظر إليه ، فإن هو قال : زيد كالأسد كان قد أثبت له حَظاً ظاهراً في الشجاعة ولم يخرج عن الاقتصاد ، وإذا قال هو الأسد ، تناهىٰ في الدعوىٰ إما قريباً من المحق لفرط بسالة الرجل ، وإما متجوزاً[3] في القول فجعله بحيث لا تنقص

(١) أي تعورف كون الأسماء أصولاً في هذه الأوصاف .

(٢) المناسب النيرات أي الكواكب .

(٣) متوسعاً فيه .

شجاعته عن شجاعة الأسد ولا يعدم منها شيئاً وإذا كان بحكم التشبيه وبأنه مقصوده من ذكر الأسد في حكم من يعتقد أن الاسم لم يوضح على ذلك السبع إلاّ للشجاعة التي فيه ، وأن ما عداها من صورته وسائر صفاته عيال عليها وتبع لها في استحقاقه هذا الاسم ، ثم أثبت لهذا الذي يشبهه به تلك الشجاعة بعينها حتى لا اختلاف ولا تفاوت فقد[1] جعل الأسد له لا محالة لأن قولنا « هو هو » على معنيين:

(أحدهما) أن يكون للشيء اسمان يعرفه المخاطب بأحدهما دون الآخر فإذا ذكر باسمه الآخر توهم أن معك شيئين ، فإذا قلت : زيد هو أبو عبدالله ، عرفت أن هذا الذي تذكر الآن هو الذي عرفه بأبي عبد الله .

و(الثاني) أن يراد تحقيق التشابه بين الشيئين وتكميله لهما ، ونفي الاختلاف والتفاوت عنهما ، فيقال « هو هو » أي لا يمكن الفرق بينهما لأن الفرق يقع إذا اختص أحدهما بصفة لا تكون في الآخر . وهذا المعنى الثاني فرع على الأول وذلك أن المتشابهين التشابه التام لما كان يحسب أحدهما الآخر ويتوهم الرائي لهما في حالين أنه رأى شيئاً واحداً صاروا إذا حققوا التشبيه بين الشيئين يقولون « هو هو »، والمشبهُ إذا وقف وهمه[2] كما عرفتك على الشجاعة دون سائر الأمور ثم لم يثبت بين شجاعة صاحبه وشجاعة الأسد فرقاً فقد صار إلى معنى قولنا « هو هو » بلا شبهة .

وإذا تقررت هذه الجملة فقولنا ، فإنك كالليل الذي هو مدركي ، إن حاولت فيه طريقة المبالغة فقلت : فإنك الليل الذي هو مدركي ـ لزمك لا محالة أن تعمد إلى صفة من أجلها تجعله الليل كالشجاعة التي من أجلها جعلت الرجل الأسد . فإن قلت تلك الصفة الظلمة وأنه قصد شدة سخطه

(١) جواب قوله وإذا كان بحكم التشبيه الخ . . .

(٢) الصواب همه .

وراعى حال المسخوط عليه ، وتوهم أن الدنيا تظلم في عينيه حسب[1] الحال في المستوحش الشديد الوحشة كما قال[2]:

* أعيدوا صباحي فهو عند الكواعبِ *

قيل لك هذا التقدير إن استجزناه وعملنا عليه فإنا نحتمله والكلام على ظاهره ، وحرف التشبيه مذكور داخل على الليل كما تراه في البيت ، فأما وأنت تريد المبالغة فلا يجيء لك ذلك ، لأن الصفات المذكورة لا يواجه بها الممدوحون ، ولا تستعار الأسماء الدالة عليها لهم إلاَّ بعد أن تتدارك وتقرن إليها أضدادها من الأوصاف المحبوبة كقوله : « أنت الصاب والعسل » ولا تقول وأنت مادح : أنت الصابُ ، وتسكت ، وحتى إن الحاذق لا يرضىٰ بهذا الاحتراز وحده حتى يزيد ويحتال في دفع ما يغشىٰ النفس من الكراهة بإطلاق الصفة التي ليست من الصفات المحبوبة فيصِل بالكلام ما يخرج به إلى نوع من المدح كقول المتنبي[3].

حسن في وجوه[4] أعدائه أقبح من ضيفه رأته السوام

بدأ فجعله حسناً على الإطلاق ثم أراد أن يجعله قبيحاً في عيون أعدائه على العادة في مدح الرجل بأن عدوه يكرهه فلم يقنعه ما سبق من تمهيده[5]

---

(١) الذي في القاموس استعماله مجروراً بالباء وهو بفتح السين وسكونها ومعناه العدد والقدر .

(٢) هو أبو الطيب يمدح أبا القاسم طاهر بن الحسين العلوي بمصر وهو مطلع القصيدة :

أعيدوا صباحي فهو عند الكواعب ... وردوا رقادي فهو لحظ الحبائب

فإن نهاري ليلة مدلهمة ... علي مقلة من فقدكم في غياهب

بعيدة ما بين الجفون كأنما ... عقدتم أعالي كل جفن بحاجب

(٣) يمدح علي بن أحمد المزني الخراساني وقد تقدم والسوام والسائمة الإبل الراعية وجمع السائم والسائمة سوائم .

(٤) رواية الديوان في عيون أعدائه .

(٥) بقوله حسن على الإطلاق .

وتقدم من احترازه في تلافي ما يجنيه إطلاق صفة القبح حتى وصل به هذه الزيادة من المدح وهي كراهة سوامه لرؤية أضيافه وحتى حصل ذكر القبح مغموراً بين حسنين ، فصار كما يقول المنجمون : يقع النحس مضغوطاً بين سعدين فيبطل فعله وينمحق أثره . وقد عرفت ما جناه التهاون بهذا النحو من الاحتراز على أبي تمام حتى صار ما ينعى عليه منه أبلغ شيء في بسط لسان القادح فيه والمنكر لفضله ، وأخصر حجة للمتعصب عليه ، وذلك أنه لم يبال في كثير من مخاطبات الممدوح بتحسين ظاهر اللفظ واقتصر علىٰ صميم التشبيه وأطلق اسم الجنس الخسيس كإطلاق الشريف النبيه كقوله[1] :

فإذا ما أردت كنت رشاء   وإذا ما أردت كنت قليباً[2]

فصك وجه الممدوح كما ترى بأنه رشاء وقليب ولم يحتشم أن قال[3] :

---

(١) من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري ومطلعها :

من سجايا الطلول ألا تجيبا   فصواب من مقلتي أن تصوبا
فاسألنها واجعل بكاك جوابا   تجد الدمع سائلاً ومجيبا

إلى أن قال :

لو رأى الله أن في الشيب خيراً   جاورته الأبرار في الخلد شيبا
كل يوم تبدي صروف الليالي   خلقاً من أبي سعيد غريباً

ثم قال :

أنضرت أيكتي عطاياك حتى   صار ساقا عودي وكان قضيباً
ممطراً إلى بالجاه والمال ما ألـ   ـقاك إلا مستوهباً أو وهوبا

(٢) الرشاء حبل الدلو ، والقليب البئر .

(٣) يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبابة من القواد ومطلعها :

أسقى طلولهم أجش هزيم   وغدت عليهم نضرة ونعيم

وقبله :

لمحمد بن الهيثم بن شبابة   مجد إلى جنب السماء مقيم
لله كف محمد وولادها   بالبذل إذ بعض الأكف عقيم
غيث حوى كرم الطبائع دهره   والغيث يكرم مرة ويلوم

مـــا زال يهـذي بـــالمكـــارم والعلي   حـــتـى ظـنــنـــا أنـــه مـــحـــمـــوم

فجعله يهذي وجعل عليه الحمىٰ ، وظن أنه إذا حصل له المبالغة في إثبات المكارم له وجعلها مستبدة بأفكاره وخواطره حتى لا يصدر عنه غيرها ، فلا ضير أن يتلقاه بمثل هذا الخطاب الجافي ، والمدح المتنافي ، فكذلك أنت هذه قصتك ، وهذه قضيتك ، في اقتراحك علينا أن نسلك بالليل في البيت طريق المبالغة على تأويل السخط .

(فإن قلت) افترى أن تأبىٰ هذا التقدير[1] في البيت أيضاً حتى يقصر التشبيه على ما تفيده الجملة الجارية في صلة الذي ؟ (قلت) فإن ذلك الوجه فيما أظنه فقد جاء في الخبر عن النبي صلّى الله عليه وسلم « ليدخلنَّ هذا الدينُ ما دخل عليه الليل » فكما تجرد المعنى للحكم الذي هو الليل من الوصول إلى كل مكان ، ولم يكن لاعتبار ما اعتبروه من شبه ظلمته وجه كذلك يجوز أن يتجرد في البيت له ويكون ما ادعوه من الإشارة بظلمة الليل إلى إدراكه له ساخطاً ضرباً من التعمق والتطلب لما لعل الشاعر لم يقصده . وأحسن ما يمكن أن ينتصر به لهذا التقدير أن يقال : إن النهار بمنزلة الليل في وصوله إلى كل مكان فما من موضع من الأرض إلاَّ ويدركه[2] كل واحد منهما فكما أن الكائن في النهار لا يمكنه أن يصير إلى مكان لا يكون به ليل كذلك الكائن في الليل لا يجد موضعاً لا يلحقه فيه نهار ، فاختصاصه الليل دليل على أنه قد روَّى في نفسه فلما علم أن حالة إدراكه وقد هرب منه حالة سخط رأى التمثيل بالليل أولىٰ ، ويمكن أن يزاد في نصرته بقوله[3] :

---

(١) وهو معنى السخط مصموماً إلى معنى الإدراك .

(٢) لا يجيز النحويون هذا إد الجملة في متل هذه الحال يجب فيها حذف الواو .

(٣) هو العباس بن الأحنف بن الأسود ينتهي نسبه إلى بني حنيفة من بكر من وائل وهو من أحذق الناس وأشعرهم وأوسعهم كلاماً وخاطراً ولزم فناً واحداً فأحسن فيه وما هجا ولا مدح ولا تكسب بشعره

نعمــة كــالشمس لـمــا طلعـت بـثـت الإشــراق فــي كــل بـلد

وذاك أنه قصد ههنا نفس ما قصـده النابغـة في تعميم الأقطار والـوصول إلى كـل مكـان ، إلاّ أن النعمـة لمـا كـانت تسـر وتؤنس أخـذ المثـل لهـا من الشمس ، ولو أنه ضرب المثل لوصول النعمة إلى أقاصي البـلاد ؛ وانتشارهـا في العباد ؛ بالليل ووصولـه إلى كل بلد ، وبلوغـه كل أحـد ، لكان قـد أخطأ خطأً فاحشاً إلاّ أن هذا وإن كان يجيء مستوياً في الموازنـة ففرق بين مـا تكره من الشبـه وما تحب ، لأن الصفـة المحبوبـة إذا اتصلت بالغـرض من التشبيـه نالت من العناية بها والمحافظة عليها قريبـاً مما ينـاله الغـرض نفسه . وأمـا ما ليس بمحبوب فيحسن أن تعرض عنها صفحاً وتدع الفكر فيها جانباً .

وأما تركـه أن يمثل بـالنهار وإن كـان بمنزلـة الليل فيمـا أراده فيمكن أن يجاب عنه بأن هذا الخطاب من النابغة كان بالنهار لا محالة ، وإذا كان يكلمه وهو في النهار بَعُدَ أن يضرب المثل بإدراك النهـار له ، وكـان الظاهـر أن يمثل بإدراك الليل الذي إقباله منتظر ، وطريانه[1] على النهار متوقع ، فكأنه قال وهو في صدر النهار أو آخره : لو سرت عنك ، لم أجد مكاناً يقيني الطلب منك ، ولكان إدراكك وإن بعدت واجباً كإدراك هذا الليل المقبل في عقب نهاري هذا إياي ، ووصوله إلى أي موضع بلغت من الأرض .

وههنا شيء آخر وهـو أن تشبيه النعمـة في البيت بالشمس وإن كـان من حيث الغرض الخاص وهو الدلالـة على العموم فكـان الشبه الآخـر من كونهـا مؤنسة للقلوب وملبسة العـالم البهجة والبهـاء كما تفعـل الشمس حاصـلاً على سبيل العرض وبضرب من التطفل ، فإن تجريد التشبيـه لهذا الـوجه الـذي هو الآن تابع وجعله أصلاً ومقصوداً على الانفراد مألوف معروف كقـولنا : نعمتـك شمس طالعة ، وليس كذلك الحكم في الليل ، لأن تجريده لوصـف الممـدوح

---

(١) مصدر طرأ : الطرو ، ولا يوجد في القاموس هذا المصدر .

بالسخط مستكره حتى لـو قلت : أنت في حال السخط ليـل وفي الرضىٰ نهـار فـطفقت هكذا تجعله ليـلاً بسخطه ، لم يحسن ، وإنمـا الـواجب أن يقـول : النهار ليل على من يغضب عليه ، والليل نهار لمن يرضىٰ عنه ، وزمان عـدوك ليل كله ، وأوقات وليك نهار كلها ، كما قال[1] :

أيـامنـا مصـقـولـة أطـرافهـا   بـك والليـالي كـلهـا أسحـار

وقد يقول الرجل لمحبـوبه : أنت ليلي ونهـاري . أي بك تضيء الـدنيا وتـظلم ، فإذا رضيت فـدهري نهـار ، وإذا غضبت فليل ، كمـا تقـول : أنت دائي ودوائي وبرئي وسقامي ولا تكاد تجد أحداً يقول « أنت ليـل » على معنى أن سخطك تظلم به الدنيا ، لأن هذه العبارة بالذم وبالـوصف بالـظلمة وسـواد الجلد وتجهم الـوجه أخص ، وبـأن يراد بهـا أخلق ، وهـذا المعنى منهـا إلى القلب أسبق ، فاعرفه .

---

(١) هو أبو تمام يمدح أبا سعيد التعري ومطلعها :

لا أنـت أنـت ولا الـديـار ديـا ۔   حـف الـهـوىٰ وتـولـت الأوطـار

وقبله :

وأرى الـريـاض حـوامـلاً ومـطافـلا   مـذ كـنت فينـا والـسحـاب عشـار

٤ ـ من كتاب (البديع في نقد الشعر) لأسامة بن منقذ الكناني المتوفي سنة ٥٨٤ هـ

باب الاستعارة

أعلم أن الاستعارة هو أن يستعار الشيء المحسوس للشيء المعقول ، كما قال الله عزّ وجل : ﴿ لا تُظلمون فتيلا ﴾ و ﴿ ولا تظلمون نقيرا ﴾ و ﴿ وما يملكون من قطمير ﴾ .

والاستعارة أوكَدُ في النفس من الحقيقة ، وتفعلُ في النفوس مالا تفعله الحقيقة ، وقوله : فتيلاً ، أنفى للكثير والقليل من قوله : شيئاً . وقوله تعالى : ﴿ واخفض لهما جَنَاحَ الـذُّلّ من الرحمة ﴾، و﴿ إنَّه في أمّ الكتاب ﴾ ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ ﴿ نسلخ منه النهار ﴾، ﴿ عذاب يوم عقيم ﴾.

وقال النبي صلّى الله عليه وسلم: (ضُمُّوا ماشيتكم حتى تذهبَ فحمةُ العِشاء) وقال عليه الصلاة والسلام لبعض عماله : (أرغب راغبهم ، واحلل عقدة الخوف) وقال عليه الصلاة والسلام : (اتسع نطاق الإسلام ، فلا حاجة إلى الكحل والخضاب). كتب عليٌّ عليه السلام[1] إلى الخوارج : (الحمد لله الذي فض حزمتكم ، وفرّق كلمتكم) وقال عبدالله بن وهب[2] الخارجي

(١) في الصناعتين : كتب خالد بن الوليد رضي الله عنه . انظر الصناعتين ٢١٣ .

(٢) من الأزد ، كان ذا علم ورأى وشجاعة وفصاحة ، أحد أئمة الخوارج ، أمروه عليهم وقاتلوا علياً ، وقتل عبد الله سنة ٣٨ هـ.

في كـلامه : لا خيرَ في الرأي الفـطير[1] ، والكـلام القَضيب[2]، إنَّ غُبـوب الرأي يكشفُ عن محضه ، والفكرة مخُّ العمل . فأبـدع عليه السـلام في هذه الكلمات الأربع ، ولو قال : لبّ العمل ، لم يكن بديعاً .

وأحسن الاستعارات قولُ ذِي الرمَّة :

أوردتُــه وصـدورُ الليــل مُسْنِفَةٌ[3] والليـلُ بالكـوكبِ الدُّرّي منحـورُ[4]

وقول ذي الرمَّة أيضاً :

أقامت به حتى ذوى العود في الثرى ولفّ الثُّـريَّـا في مُـلاءتـه الفَجـرُ

وقال أبو تمام[5] :

لا تَسقـني مـاء الـمـلام؛ فـإنَّـني صبّ قـد استعـذبتُ مـاءَ بُكـائي

وقال أيضاً فيها :

فسقـاهُ مسـكُ الـطَّلِّ كـافـورَ النَّـدى وانـحـلَّ فيـه خيطُ كـل سَمـاءِ

ومـنـه :

فقلت لهـا : يـا أمَّ بيضـاءَ، إنَّـه أريق شَبـابي واسْتَشَنَّ[6] أديمُـه[7]

إذا مـا هبَطَن المحَـلَ قد مـات عودُه بـكَيـن بـه حتى يَعيش هَشِيمُـه

---

(١) الفطير · كل شيء أعجلته عن إدراكه فهو فطير يقال . (إياك والرأي المطير)

(٢) اقتصاب الكلام . ارتحاله وبعده كما في الصاعتين . « فلما بايعوه قال . دعوا الرأي يغب ، فإن غنوبه يكشف لكم عن محضه » الصناعتين ٢١٤

(٣) أسنفت الناقة : نقدمت الإبل .

(٤) نحره . وضع على نحره .

(٥) البيت من قصيدة له بديوانه (٣١٥) مطلعها .

قـدك ، أتئب ، أربيت في الهـواء كم تعـدلـون، وأنـتم سـحـراتي

(٦)استتس . هزل

(٧) الأديم · الحلد

ومـنه :

نُـطَارِدُهُـم فَنُـودِعُ[1] البيضَ هـامهم ويستـودعون السَّمهـريَّ[2] المقـوَّمـا

ومـنه :

تحيي الـرَّوامسُ[3] ربعَهـا فتُجِـدُّه بـعـد البـلى ، وتُـمـيتُـه الأمـطارُ

هذا بيتٌ قد جُمـع فيه الاستعـارةُ والمطابقـة ، لأن فيه البلى والجـدة ، والإماتَةَ والحياةَ . ومن المعلقات لطرفة[4]:

ووجــهٍ كـأنَّ الشمس حلَّت رداءهــا عـليـه نـقيٌّ الـلَّونِ لـم يتـخـدَّدِ

امرؤ القيس[5] :

وقـد أغتـدي والـطَّيـرُ في وُكُنـاتِهـا بمنجـردٍ قيـدِ الأوابـد هيكـلِ[6]

وتقول العرب : صاحَ الشحم إذا طال . وشجرٌ واعِدٌ إذا اخضـرَّ ، كأنَّـه يَعِدُ بالثمر .

وقال العجَّاج[7] : كالكرْمِ إذ نادَى من الكافُورِ[8] .

وأنشدوا :

---

(١) البيض : السيوف .

(٢) السمهري : الرمح الصلب .

(٣) الروامس : الرياح.

(٤) هو طرفة بن العبد المعروف بالمتلمس ، شاعر جاهلي له معلقة ، توفي سنة ٥٥٠ م.
« ووجه كأن الشمس » من قصيدته : « لخولة أطلال »، والرواية في الديوان : « ألقت رداءها ؛
ووجه : مبتدأ حذف خبره : أي لها وجه . والتخدد : التشنج والتغضن واسترخاء اللحم .

(٥) انظر البيت ٤٩ من القصيدة الأولى ص ٣٠ من ديوانه .

(٦) الـوكنات : جمـع وكنة : المـوضع الـذي يأوي إليـه الطائـر . المنجـرد : الفـرس القصيـر الشعر . الأوابد : واحـدة آبدة : الـوحش ، قيل لهـا ذلك لأنهـا تعمر على الأبـد ، الهيكل : الفرس الضخم .

(٧) راجز مجيد من الشعـراء ، ولد في الجـاهلية وقـال الشعر فيهـا وعاش إلى أيـام الوليـد بن عبد الملك .

(٨) الكافور : نبت طيب نوره كنور الأقحوان.

إن دهـراً يَـلُفُّ شَـمـلي بسَـلْمَى ‏ ‏ لَـزَمـانٌ يَـهُـمُّ بـالإحـسـان

وقال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام لبعض الخوارج : لمَّا فُغِر[1] فمُ الباطل ، نجمت نجوم الحق.

وقال يصف الدنيا : لم يُمْسِ أحدٌ منها على جَناح أمن إلاَّ أصبح منها على قوادم[2] خَوف .

ومن بديع الاستعارة في المنثور قولُ بعض العربِ : خرجتُ في ليلةٍ حندسٍ[3] قد ألقت على الأرض أكارِعَها[4] فجمحت صورةُ الأبدان، فما كدنا نتعارف إلاّ بالآذان .

وقال بعض العرب : جعلنا أرشية[5] الموت سيوفَنا فاستَقينا ، بها أرواحهم .

ومدح أعرابي قوماً فقال : أولئك غُررٌ تُضيء في المشكلات ، وتُصْغي إليهم آذان المجد ، يصومون عن الفحشاء ، ويُفطرون على المعروف .

ووصف آخر روضةً فقال : جرّت بها الريح أذيالها ، وحطّت بها السَّحابُ أثقالَها .

ووصف أعرابي قومه فقال : إذا اصطفُّوا تحت القتام[6] ، سفرت بينهم السهام ، وإذا تصافحوا بالسيوف ، فُغِرَتْ أفواهُ الحتوف .

وقال آخر :

(١) فغرفاه : فتحه .

(٢) القوادم أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح

(٣) الحندس : الليل المظلم .

(٤) أكارعها . أطرافها القاصية . وقيل الكراع : ركن من الجبل يعرض في الطريق

(٥) انظر الصناعتين ٢١٤ والأرشية : جمع رشاء ، وهو الحبل .

(٦) القتام · الغبار .

سـأبكيـك للدنيـا ولـلدين؛ إنَّـني رأيت يـدَ المعـروفِ بعـدك شَلَّت

وقال آخر:

وجيشٍ تضلّ البُلْقُ[1] في حَجَراتِه[2] تـرى الأكم فيها[3] سجَّداً للحـوافـر

وقال أبو تمام[4]:

لـيـاليَ نـحنُ فـي غَـفَـلات عـيش كـأنَّ الـدَّهـر عـنَّـا فـي وَثـاقِ[5]

العباس بن الأحنف[6]:

قـد سحب النـاسُ أذيـالَ الظنـون بنا وفـرَّق النـاسُ فينـا قـولَهم فِـرقـاً
فكـاذِبٌ قـد رمى بـالـظَّنِّ غيـرَكـمُ وصـادقٌ ليس يـدري أنَّـه صـدقـا

آخر[7] :

بكفّ أبي أيـوب يُستمـطر الـغني وتُستنزل النعمىٰ ، ويُستعمل النَّصـلُ
تُسـاقِط يُمنـاه النـدىٰ وشِمـالـه الـرَّ دى ، وعيونُ القولِ منـطقهُ الفَصـلُ

ومـنه :

سـلامــة بــنُ نَـجـاحِ يُـجـيـد حــثَّ الـرَّاحِ

---

(١) البلق : خيل ذات سواد وبياض .

(٢) حجراته : نواحيه. والأكم: جمع أكمة.

(٣) في الصناعتين ٢٢١ : « فيه ».

(٤) البيت من قصيدة بديوانه (٢١٤) مطلعها :

ذريـنـي مـنـك سـافـحـة الـمـآقـي ومـن سفـحـات عـبـرتـك الـمـراق

والرواية فيه :

سـنبـكـي بـعـده غـفـلات عـيش كـأن الـدهـر مـنـهـا فـي وثـاق

(٥) الوَثَاق بالفتح ويكسر : ما يشد به .

(٦) شاعر لم يتكسب بالشعر ، وأكثر شعره في الغزل ، توفي سنة ١٩٢ ، وترجمته في ابن خلكان ج١ ص ٢٤٥ ، والشعر والشعراء ص ٥٢٥ .

(٧) ينسب لمسلم . (الصناعتين).

إذا تـغـنّـى زَمـرنـا عـليـه بـالأقـداحِ

ومـنه :

تشـدُو ، فـزمـر بـالكئـو س لهـا ، ورقص بـالـرؤس

ومـنه :

قـيـل : مـا أعـددتَ للبـر د فَـقَـدْ جـاء بـشـدَّة

قـلت: دُرَّاعـةُ عُـريٍ تـحـتـهـا جُـبَّـة رِعـدَة

ومـنه :

يـا من بـدائـعُ حسنِ صـورتـه تـثنـى إليـه أعـنَّـةَ الحَـدقِ

لي مِنـكَ مـا للنـاس كلِّهم : نـظرٌ وتـسليـمٌ على الـطرقِ

لـكنـهم سَـعِـدُوا بـأمـنـهُـم ومُنيتُ حين أراك بـالفَـرَقِ[1]

ومـنه :

غفـلاتٌ كنَّ حُلْمـاً فـانقضى وشبـابٌ كـان ظـلاًّ فـانتقَـلْ

لـو أراني الـدَّهـرُ مـا أخَّـرَ لي لـتـعـلَّقـتُ بـأيـامـي الأُوَلَ

ليت شعري عنِّيَ اعتاض بمَن هَـل لِكَفٍّ فـارقت زنـداً بـدل

إنَّ جِيـداً اسقـطتْ من عِقْـده دُرَّةٌ مـثلي حـقيـقٌ بـالعَـطَلْ

ابن المعتزّ[2] :

وابَـلائي من محضَري ومغيبِ وحبيـبٍ منّي بعيـدٍ قـريبِ

لم تَـرِد ماءَ وجهِـه العينُ حتى شِـرقت قبـل رِيّهـا بـرقيبِ

---

(١) الفرق : الفزع .

(٢) سبقت ترجمته ، راجع ديوانه ص ٦٥.

٥ ـ من كتاب (حسن التوسل في صناعة الترسل) لشهاب الدين محمود الحلبي المتوفي سنة ٧٢٥ هـ

الحقيقة والمجاز

فصل : الحقيقة في اللغة فعيلة بمعنى مفعولة من حق الأمر حقه ، بمعنى أثبته أو من حققته إذا كنت على يقين والمجاز مفعل من جاز الشيء يجوزه إذا تعداه فإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز على أنهم قد جازوا به موضعه الأصلي أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أو لأنه ليس بموضع أصلي لهذا اللفظ ولكنه مجازه ومتعداه يقع فيه ، كالواقف بمكان غيره ، ثم يتعداه إلى مكانه الأصلي وحدهما في المفرد إن كل كلمة أريد بها ما وضعت له فهي حقيقة كالأسد للحيوان المفترس واليد للجارحة ونحو ذلك ، وإن كان أريد بها غيره لمناسبة بينهما ، فهي المجاز كالأسد للشجاع واليد للنعمة أو القوة ، فإن النعمة تعطي باليد ، والقوة تظهر بكمالها في اليد ، وحدهما في الجملة : إن كل جملة كان الحكم الذي دلت عليه كما هو في العقل فهي حقيقة كقولنا : « خلق الله الخلق » وكل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه في العقل بضرب من التأويل فهي مجاز كما إذا أضيف الفعل إلى شيء يضاهي الفاعل كالمفعول به في قوله تعالىٰ : ﴿ عيشة راضية﴾ و﴿من ماء دافق﴾ أو المصدر كقولهم : «شعر شاعر» أو الزمان كقول النعمان بن بشير لمعاوية :

ألم تبـدركم يـوم بـدرٍ سيـوفنـا   وليلُكِ عمًّـا نـابَ قـومَـك نـائم

أو المكان كقولـك : « طريق سـائر » أو المسبب كقـولهم : « بنى الأمير المـدينـة »، أو السبب كقـولـه تعـالىٰ : ﴿ **وإذا تُليت عليهم آيـاتـه زادتهم إيماناً** ﴾ .

فمجاز المفرد لغوي ويسمىٰ مجازاً في المثبت ، ومجاز الجملة عقلي ، ويسمىٰ مجـازاً في الإثبات وإذا عـرفت هـذا فنقـول المجـاز : قـد يكـون في الإثبات وحده ، وهو أن تضيف الفعل إلى غير الفاعل الحقيقي كما ذكرنا .

وقـد يكون في المثبت وحـده كقولـه تعالىٰ : ﴿ **فـأحيينا بـه الأرض بعد مـوتها** ﴾، جعـل خضرة الأرض ونضـرتهـا حيـاة ، وقـد يكـون فيهمـا جميعـاً كقولك : « أحيتني رؤيتك »، تريـد سرتني ، فقـد جعلت المسرة حيـاة ، وهو مجاز في المثبت واسندتها إلى الرؤية ، وهو مجاز في الإثبات .

والمجاز أعم من الاستعارة والتمثيـل والكنايـة ، فهو جنس لهـا ، واعلم أنهم تعرضوا في اعتبار كون اللفظ مجازاً إلى اعتبار شيئين :

الأول : أن يكون منقولاً عن معنى وضـع اللفظ بإزائـه وبهذا يتميـز عن اللفظ المشترك .

الثـاني : أن يكون ذلـك النقل لمنـاسبة بينهمـا ، فـلا تـوصف الأعـلام المنقولة بـأنها مجـاز إذ ليس نقلها لتعلق نسبـة بين المنقول عنـه ومن له العلم وإذا تحقق الشرطان سمي مجازاً ، وذلك مثـل تسمية النعمـة والقوة بـاليد لمـا بين اليـد وبينمهما من التعلق ، وكمـا قالـوا : (رعينا الغيث) يـريـدون النبت الذي الغيث سببه وأصابتنا السماء ، يريدون المطر .

والمجـاز قد يكـون بـزيـادة كقـولـه تعـالى : ﴿ **وكفى بـالله شهيـداً** ﴾ ، وبنقصان كقوله تعالى : ﴿ **واسأل القريـة** ﴾، وإنما يكـون كل منهـا مجازاً إذا

تغيرت بسببه حكم ، فأما إذا لم يتغير كقولك : « زيد منطلق وعمرو » فيحذف الخبر فلا يكون مجازاً إذا لم يتغير حكم ما بقي من الكلام .

التشبيه

القول في التشبيه وهو الدلالة على اشتراك شيئين في وصف هو من أوصاف الشيء في نفسه كالشجاعة في الأسد والنور في الشمس ، وهو ركن من أركان البلاغة ، لإخراجه الخفي إلى الجلي وادنائه البعيد من القريب وهو حكم إضافي لا يوجد إلاَّ بين الشيئين بخلاف الاستعارة وليس الحكم إنه إذا صحت الاستعارة حسن التصريح بالتشبيه ، فإن المشابهة إذا قرنت بين الشيئين بالاستعارة قبح التصريح بالتشبيه فلا تقول كأنك في ظلمة ، إذا أوقعك في شبهة ، ولا فهمت المسألة فكأنه انشرح صدري ، أو كأن نوراً حصل في قلبي لتمكن هذه الأشياء حتى صارت كأنها حقيقة .

ثم التشبيه على أربعة أقسام ، الأول : تشبيه محسوس بمحسوس لاشتراكهما إما في المحسوسات الأولىٰ وهي مدركات السمع والبصر والذوق والشم واللمس « كتشبيه الخد بالورد ، والوجه بالنهار ، والشعر بالليل ، والوجه بالنهار وأطيط الرجل بأصوات الفراريج » والفواكهة الحلوة بالسكر والعسل ، ورائحة بعض الرياحين بالكافور والمسك ، واللين الناعم بالخز ، والخشن بالمسح .

أو في المحسوسات الثانية : وهي الأشكال المستقيمة والمستديرة والمقادير والحركات « كتشبيه المستوي المنتصب بالرمح ، والقد اللطيف بالغصن ، والشيء المستدير بالكرة والحلقة ، وعظيم الجثة بالجبل ، والذاهب على الاستقامة بنفوذ السهم . أو في الكيفيات الجسمانية كالصلابة والرخاوة ، وفي الكيفيات النفسانية كالغرائز والأخلاق ، أو في حالة إضافية كقولك : هذه حجة كالشمس والجامع إن كل واحد منهما مزيل للحجاب

وكقولك : ألفاظه كالماء في السلاسة وكالنسيم في الرقة وكالعسل في الحلاوة ، والجامع سرعة وصوله إلى النفس واهتزازها به ، وربما كان التشبيه بوجه عقلي كقول فاطمة بنت الخرشب الانمارية حيث وصفت بنيها الكملة : « هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها ؟ » فإنه لا يفهم المقصود إلاّ من له ذهن يرتفع عن طبقة العامة ، بخلاف ما سبق ومن الفرق الظاهر بينهما إن جعل الفرع أصلاً والأصل فرعاً يجيء فيما تقدم مجيئاً واسعاً كقولهم في النجوم كأنها مصابيح ، وفي المصابيح كأنها نجوم ، وإن حاولت ذلك في الثاني لم يكد ينقاد انقياد الأول .

الثاني : تشبيهه المعقول بالمعقول كتشبيه الوجود العاري عن الفوائد بالعدم ، وتشبيه الفوائد التي تبقىٰ بعد عدم الشيء بالموجود كقول الشاعر :

ربَّ حيٍّ كميتٍ ليس فيه أملٌ يرتجىٰ لنفعٍ وضرْ
وعظامٍ تحتَ التُرابِ وفوقَ الأرضِ منها آثار حمدٍ وشكر

الثالث : تشبيهه المعقول بالمحسوس كقوله تعالى : ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة** ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ **مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف** ﴾ .

الرابع : تشبيه المحسوس بالمعقول وهو غير جائز ، لأن العلوم العقلية مستفادة من الحواس ومنتهية إليها ، ولذلك قيل : من فقد حساً فقد علماً فإذا كان المحسوس أصلاً للمعقول فتشبيهه به يكون جعلاً للفرع أصلاً ، والأصل فرعاً ولذلك حاول محاول المبالغة في وصف الشمس بالظهور ، والمسك بالثناء ، فقال : الشمس كالحجة في الظهور ، والمسك كالثناء في الطيب كان سخفاً من القول .

فأما ما جاء في الأشعار من تشبيه المحسوس بالمعقول فوجهه أن يقدر

المعقول محسوساً ويجعل كالأصل المحسوس على طريق المبالغة ، فيصح التشبيه حينئذٍ وذلك كما قال الشاعر :

وكأن النجوم بين دجاها ... سننٌ لاحَ بينهنَّ ابتداعُ

فإنه لما شاع وصف السنة بالبياضِ والإشراقِ على ما قال ـ صلّى الله عليه وسلم ـ « أتيتكم بالحنيفية البيضاء ليلها كنهارها » ، واشتهرت البدعة ، وكل ما ليس بحق بالظلمة تخيل الشاعر إن السنن كأنها من الأجناس التي لها إشراق ونور وإن البدع نوع من الأنواع التي بها اختصاص بالسواد والظلمة صار ذلك عنده كتشبيه محسوس بمحسوس فجاز له التشبيه وبالجملة فهذا التشبيه لا يتم إلاَّ بتخييل ما ليس بمتلون متلوناً ثم يتخيله أصلاً فيشبه به ، وهذا هو التأويل في قول أبي طالب الرقي :

ولقد ذكرتُكِ والفؤادُ كأنَّهُ ... يوم النوى وفؤادُ مَنْ لَم يعشقِ

فإنه لما كانت الأوقات التي تحدث فيها المكاره توصف بالسواد يقال : اسودت الدنيا في عينه ، جعل يوم النوى كأنه أعرف وأشهر بالسواد من الظلام فعرفه به وشبهه ، ثم عطف عليه فؤاد من لا يعشق تظرفاً ، لأن الظريف يدعي القساوة على من لم يعشق والقلب القاسي يوصف بشدة السواد فصار هذا القلب عنده أصلاً في السواد . فقس عليه ، وهكذا الكلام في قول الشاعر :

كأن انتضاءَ البدرِ من تحت غيمةٍ
نجاةٌ من البأساء بَعْدَ وقوعِ

وفي قول القاضي التنوخي :

أما ترىٰ البردَ قد وافت عساكره
وعسكر الحر كيف انصاعَ منطلقاً
فانهض بنار إلى فحم كأنهما
في العين ظلم وإنصاف قد اتفقا

جـاءت وقلب الصبّ حين سـلا

بـردا فصرنـا كقلب الصب إذْ عشقـا

وكذلك قول الصاحب بن عباد حين أهدىٰ للقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز عطرا :

يـا أيُّهـا القـاضي الـذي نفسي لـه   في قـربِ عهـدِ لقـائـهِ مشتـاقـه
أهـديتُ عـطراً مثـلَ طيبِ ثنـائـه   فكـأنـمـا أهـدي لـه أخـلاقـه

والمعتاد تشبيه الثناء بالعطر وهو عكس الأمر على جهة المبالغة كما بينا وذلك قول جحظة :

ورَقَّ الـجـو حـتـى قـيـلَ هـذا   عـتـاب بـيـنَ جـحـظةَ والـزمـانِ

وقلت في تشبيه حصن :

كـأنـهُ وكـأنَّ الـجـو يـكـنـفـه   وهـمٌ تمثله في طـيـهـا الـفـكـرُ

لأنه لما أرتفع في الجو خفي حتى صار كالوهم فيكون تشبيه المحسوس بما يخيل أنه محسوس ، لاطلاعه في العين أو فرض له الخفاء حتى صار تشبيه معقول بمعقول ، وقال أبو اسحق الصابي في بعض رسائله :

(وهو في نشوزه عنا ، وطلبنا أياه كالضالة المنشودة ، وما نرجوه من الظفر به كالظلامة المردودة) . ويقرب من هذا النوع تشبيه الموجود بالمتخيل الذي لا وجود له في الاعيان كتشبيه الجمر بين الرماد ببحر من المسك موجه الذهب وذلك إنما يتم إذا فرض المتخيل من أمور كل واحد منهما موجود في الاعيان فحينئذ يكون التشبيه حسناً لطيفاً كقول الشاعر في النرجس :

كـأن عيـونِ النـرجسِ الغَضِّ بيننـا

مـداهـنُ دُرٍّ حشـوهـن عـقـيـقُ

وكقول الآخر في تشبيه الشقائق :

وكــأَنَّ مُــحْــمَــرَّ الــشَّــقــيــقِ إذا تَــصــوبَ أو تــصــعــدْ
أعْــلاَمُ يــاقــوتٍ نُــشــر نَ عــلى رمــاحٍ مــن زبــرجــدْ

ويقرب من هذا الجنس قول امريء القيس :

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعي ومسنونةٌ زرقٌ كأنياب أغوالِ

فإنهم لم يشاهدوا أنياب الأغوال ، بل اعتقدوا أنها في غاية الحدة فحسن التشبيه وعليه جاء قوله تعالىٰ : ﴿ **طلعها كأنه رؤوس الشياطين** ﴾ لتناهي رؤوس الشياطين في الكراهة ، ولاعتقادهم في قبح الشيطان وكراهيته وشره ، يشبهون به الوجه القبيح ، ولاعتقادهم الغاية في خير الملك وأنه لا شر فيه يشبهون به الصور الحسنة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ **ما هذا بشرا إن هذا الا ملك كريم** ﴾ .

واعلم أن ما به المشابهة قد يكون مقيداً بالانتساب إلى شيء وذلك أما إلى المفعول به كقولهم : « أخذ القوس باريها » وإلى ما يجري مجرى المفعول به وهو الجار والمجرور كقولهم لمن يعمل ما لا يفيد : « كالراقم على الماء » وأما إلى الحال كقولهم : « كالحادي وليس له بعير » الواو للحال والجار والمجرور كقولهم ؛

« هو كمن يجمع السيفين في غمد » ، و« كمبتغي الصيد في عريسة الأسد » ومن ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً** ﴾ فإن التشبيه لم يحصل من مجرد الحمل بل لامرين آخرين معه تعديته إلى الأسفار ، واقتران الجهل بما فيه لأن الغرض توجيه الذم إلى من أتعب نفسه في حمل ما يتضمن المنافع العظيمة ثم لا ينتفع به لجهله وكقول لبيد :

ومـا الناسُ إلاَّ كـالـديـارِ وأهلُها بها يومَ حلوها وغُدواً بلاقـعْ

فإنه لم يشبه الناس بالديار وإنما شبه وجودهم في الدنيا وسرعة زوالهم بحلول أهل الديار فيها ، ووشك رحيلهم منها . وكلما كانت التقييدات أكثر كان التشبيه أوغل في كونه عقلياً ، كقوله تعالى : ﴿ **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازَّيَنَتْ وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً، فجعلناها حصيداً، كأن لم تغن بالأمس**﴾. فإذن الشبه منتزع من مجموع هذه الجمل من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض ، فإنك لو حذفت منها جملة واحدة من أي موضع كان أخل ذلك بالمغزىٰ من التشبيه ثم ما به المشابهة إن كان مركباً فإنه على قسمين :

الأول : ما لا يمكن أفراد أحد أجزائه بالذكر ، كقول القاضي التنوخي :

كأنما المريخ والمشتري قدامه في شامخ الرفعة
منصرف بالليل عن دعوة قد أسرجت قدامه شمعة

فإنك لو اقتصرت على قوله : « كأنما المريخ منصرف عن دعوة أو كأن المشتري شمعة » لم يحصل ما قصده الشاعر ، فإنه إنما قصد الهيئة التي تلبسها المريخ من كون المشتري أمامه ، ولي في مثل ذلك :

كأنَّ سهيلاً والنجومُ وراءَه صفوف صلاةٍ قام فيها امامها

فإنه لا يمكن افراد أحد أجزاء هذا التشبيه إذ لو قلت كأن سهيلاً امام أو كأن النجوم صفوف صلاة ، ذهبت فائدة التشبيه .

الثاني : ما يمكن إفراده بالذكر ويكون إذا أزيل منه التركيب صحيح التشبيه في طرفيه إلاّ أن المعنى يتغير كقول أبي طالب الرقي :

وكأَنَّ أجْرَامَ النجومِ لوامعاً دُرر نُثرنَ على بِساط أزْرَقِ

« فلو قلت كأن النجوم درر وكأن السماء بساط أزرق وجدت التشبيه مقبولاً ولكن المقصود من الهيئة المشبه بها قد زال ، وربما كان التشبيه في أمور كثيرة لا يتقيد بعضها ببعض وإنما يكون مضموماً بعضها إلى بعض ، وكل واحد منهما منفرد كقولك : « زيد كالأسد بأساً والبحر جوداً والسيف مضاء والبدر بهاء » وكقولك : « هو يصفو ويكدر ويحلو ويمرّ » وله خاصيتان ، أحداهما : إنه لا يجب فيه الترتيب .

والثاني : إذا اسقط البعض لا يتغير حكم الباقي ومنه قول الشاعر :

سفرن بدوراً وانتقبن أهلةً　　　ومِسنَ غصوناً والتفتنَ جآذرا

وقول امرىء القيس :

كأنَّ قلوبَ الطيرِ رطباً ويابساً

لدى وكرِها العنّابُ والحشفُ البالي

وقد ذكر بعض المتأخرين في التشبيه سبعة أنواع ، ونحن نوردها وإن لم يكن كلها منه :

الأول : التشبيه المطلق وهو أن تشبه شيئاً بشيء من غير عكس ولا تبديل كقوله تعالىٰ : ﴿ **والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وله الجواري المنشآتُ في البحرِ كالأعلامِ** ﴾ وقوله : ﴿ **كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية** ﴾ وقول النبي ـ صلّى الله عليه وسلم ـ : « الناس كأسنانِ المشطِ » .

الثاني : التشبيه المشروط وهو أن تشبه شيئاً بشيء لو كان بصفة كذا أو لولا أنه بصفة كذا كقول : « أشبه وجه مولانا بالعيد المقبل لو كان العيد تبقىٰ ميامنه وتدوم محاسنه » وكقوله : « وجه هو كالشمس لولا كسوفها والقمر لولا خسوفه » .

وكقول البديع الهمداني :

قد كان يحكيه صوب الغيث منسكباً

لـو كان طلقُ المحيـا يمـطر الـذهبـا

والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت

والليثُ لو لم يصد والبحـر لو عـذبا

وكقول الآخر :

عــزمـاتــه مثـل النجــومِ لـوامعــاً ... لــو لـم يـكـنْ لـلشـاقبــاتِ أفــولُ

الثـالث : تشبيه الكنـاية وهـو أن يشبه شيئـاً بشيء من غيـر أداة التشبيـه كقول المتنبي :

بــدتْ قمـراً ومــاستْ خــوطَ بــانٍ ... وفــاحــتْ عـنـبــراً ورنَـتْ غَــزالاً

وقول الوأواء الدمشقي :

فـأمـطَرَت لؤلؤاً من نـرجسٍ فَسَقتْ

ورداً وعضّتْ على العُنّــابِ بـالبَــرَد

الرابع : تشبيه التسوية وهو أن يـأخذ صفـة من صفات نفسـه وصفة من الصفات المقصودة ويشبهها بشيء كقوله :

صـــدغُ الـحـبـيـبِ وحــالـي ... كــلاهُــمــا كــالــلـيــالــي

وثــغــره فــي صــفــاءٍ ... وأدمــعــي كــالــلآلــي

وقلت في هذا التشبيه :

أسـرّوا إلى لَيْلي سُراهُم فمـا انجلىٰ

وبـاتَ كـطرفي نجمـه وهـوَ حَيـران

كلانا غريقٌ في الدموعِ وفي السُّرىٰ

كـأن دمـوعَ العينِ والليــل طـوفــان

الخامس : التشبيه المعكوس وهو أن يشبه شيئين كل واحد منهما بالآخر

كقول بعضهم في النثر : « كم من دم أهرقناه في البر وشخص أغرقناه في البحر فأصبح البر بحراً من دمائهم والبحر براً بأشلائهم » وكقول الشاعر :

الخمر تفاحُ جرى ذائباً   كذلكَ التفاحُ خمرٌ جَمَد
فاشرب على جامدِ ذَوبه   ولا تبعْ لذةَ يوم لِغَد

وكقول الصاحب بن عباد :

رقَ الزجاجُ وراقتِ الخمرُ   فتشابها فتشاكلَ الأمر
فكأنَّهُ خمرٌ ولا قدَحُ   وكأنَّهُ قَدَحٌ ولا خَمْرُ

وقول منصور الهروي :

الراحُ مثلُ الماءِ في كاساتها   والماءُ مثلُ الراحِ في الغدران

السادس : تشبيه الاضمار وهو أن يكون مقصوده التشبيه بشيء فدل ظاهر لفظه على أن مقصوده غيزه كقول المتنبي :

ومن كنتَ جاراً لَهُ يا عليّ   لمْ يقبلِ الدرَّ إلاَّ كباراً

فيدل ظاهره على أن مقصوده الدر وإنما غرضه تشبيه الممدوح بالبحر وكقول الشاعر :

إن كانَ وجهُكَ شمعاً   فما لجسمي يَذُوب

السابع : تشبيه التفضيل وهو أن تشبه شيئاً بشيء ثم ترجع فترجع المشبه على المشبه به كقوله :

حَسِبت جَمَالَه بدراً مضيئاً   وأينَ البدرُ من ذاكَ الجمال

وكقول ابن هندو :

من قاسَ جدواكَ بالغمام فما   أنصفَ في الحُكمِ بينَ شيئين
أنتَ إذا جُدتَ ضاحك أبداً   وذاك إن جادَ دامع العين

وقد تقدم تشبيه شيء بشيء فأما تشبيه شيء بشيئين فكقول امرىء القيس :

وتعطو بِرخْصٍ غير شَثْنٍ كأنّه
أساريعُ رملٍ أو مساويك إسْحِلِ

وأما تشبيه شيء بثلاثة أشياء فكقول البحتري :

كأنّما تبسمُ عن لؤلؤ منضّدٍ أو بَرَدٍ أو أقاح

وأما تشبيه شيء بأربعة أشياء فكما قلت :

يفتر طِرسُكَ عن سطورٍ جادها الـ
ـفكرُ السليمُ بصوبِ مسكٍ أذفر
فكأنّما هُوَ روضةٌ أَوْ جَدولٌ
أَوْ سِمط دُرّ أو قِلادة عَنبر

وأما تشبيه شيء بخمسة أشياء فكقول الحريري :

تفتر عن لؤلؤٍ رطبٍ وعن بَرَدٍ
وعن أقاحٍ وعن طلعٍ وعن حَبَبِ

وأما تشبيه شيئين فكما مر من قول امرىء القيس :

كأنّ قلوبَ الطيرِ رطباً ويابساً
لدى وكرها العنّابُ والحشَفُ البالي

وأمّا تشبيه ثلاثة بثلاثة فكقول الآخر :

لينٌ وبدرٌ وغصنٌ شعرٌ ووجهٌ وقدٌّ
خمرٌ ودرٌ وورد ريقٌ وثغرٌ وخَدٌّ

وأما تشبيه أربعة بأربعة فكقول امرىء القيس :

لَهُ أيْطلاً ظبيٍ وساقا نعامة وارخاءُ سرحانٍ وتقريب تَتفلِ

وكقول أبي نواس :

تبكي فتُذري الدرَّ من نرجسٍ وتلطِمُ الوردَ بعُنّابِ

وأما تشبيه خمسة بخمسة أشياء فكقول أبي الفرج الوأواء الدمشقي وقد مر :

قالت متى البينُ يا هذا فقلتُ لها
اما غَداً زعموا أو لا فبَعْدَ غَدِ
فأمطرتْ لؤلؤاً من نرجسٍ فَسَقتْ
ورداً وعضّتْ على العنّابِ بالبَرَدِ

ولي تشبيه أربعة أشياء بأربعة أشياء وهو :

كأن الدراري والهلالَ ودارةً حَوَتْهُ
وقد زانَ الثريا التئامُها
حبابٌ طفا من حولِ زورقِ فضةٍ
بكفّ فتاةٍ طافَ بالراح جامُها

وقال الشيخ بدر الدين الحموي النحوي : أنشدني شيخنا القاضي قاضي القضاة نجم الدين البارزي سبعة أشياء بسبعة أشياء لنفسه :

يقطعُ بالسكين بطيخةً ضُحىً على طَبَقٍ في مجلسٍ لأنَ صاحبُ
كشمس ببرقٍ قَدّ بدراً أهلةً لدىٰ هالةٍ في الأُفقِ شتىٰ كواكبُه

ومن أنواع التشبيه التمثيل : وهو الذي يكون تشبيهاً واحداً مقيداً بقيود ويظن أنه تشبيهات مجموعات كقوله :

كما أبرقَت قوماً عِطاشاً غمامةٌ فلما رجوها أقشعَتْ وتجلَّت

فإن مجرد قوله : « أبرقت قوماً عطاشاً غمامة » ليس تشبيهاً مستقلاً بنفسه لأن مقصود الشاعر أن يصف ابتداء مطمعاً أدىٰ إلى انتهاء مؤيس ، ومن ذلك

لا يتم إلاَّ بجملة البيت فإن تأدية الشيء إلىٰ غيره حكم زائد على ذاته .

فصل :

الغرض من التشبيه قد يكون بيان إمكان وجود الشيء عند ادعاء ما لا يكون إمكانه بيناً كقول ابن الرومي :

وكم أبٍ قَدْ علا بابن ذرى شَرَفٍ
كما علا برسولِ الله عدنان

وكقول المتنبي :

فإن تفقِ الأنامَ وأنتَ منهم   فإنَّ المِسكَ بعض دمِ الغزال

أو بيان مقداره كما إذا حاولت نفي الفائدة عن فعل إنسان قلت : هو « كالقابض على الماء » لأن لخلو الفعل عن الفائدة مراتب مختلفة في الإفراط والتفريط والوسط فإذا مثل بالمحسوس عرفت مرتبته ، وكذلك لو أردت الإشارة إلى تنافي الشيئين فأشرت إلى ماء ونار فقلت : هذا وذاك هل يجتمعان ؟ كان تأثيره زائد على قول : هل الماء يجتمع والنار ؟ وكذلك إذا قلت في وصف طول يوم : كأطول ما يتوهم ، أو أنشدت قوله :

في ليلِ صول تناهى العرضُ والطولُ
كَأنَّما ليلُهُ بالليلِ موصولُ

لم تجد فيه من الأنس ما تجده في قوله :

ويومٍ كظلِّ الرمحِ قصَّر طُولَهُ   دمُ الزق عنّا واصطفاقُ المزاهرِ

وما ذاك إلاَّ للتشبيه بالمحسوس وإلاَّ فالأول أبلغ لأن طول الرمح متناه ، وفي الأول حكمت أن ليله موصول بالليل .- وكذلك لو قلت : في قصر اليوم يوم كأنه ساعة وكلمح البصر لوجدته دون قوله :

ظللنا عندَ دارِ أبي أنيسٍ   بيومٍ مثلِ سالفةِ الذبابِ

وقولـه :

ويـوم كـإبهـام القَـطاة مُـزيَّـنٍ إليّ صبـاهُ غـالـبٌ لِيَ بـاطِـلُه

وقد يكون غرض التشبيه عائداً على المشبه به وذلك أن تقصد علىٰ عادة التخيـل إن توهم في الشيء القـاصر عن نـظيره إنـه زائد ، فتشبـه الـزائـد بـهِ كقوله :

وبـدا الـصـبـاحُ كـأن غُـرَّتَـهُ وجـهُ الـخـليـفـةِ حيـنَ يُـمْـتَـدَحُ

وهـذا أبلغ وأحسن وأمدح من تشبيـه الوجـه بالصبـاح لأن تشبيه الـوجـه بـالصباح أصـل متفق عليه لا ينكـر ولا يستكثر ، وإنمـا يستكثر تشبيـه الصباح بالوجه ثم الغرض بالتشبيه إن كان الحاق الناقص بالزائد امتنـع عكسه مـع بناء هذا الغرض ، وإن كـان الجمع بين شيئين في مـطلق الصورة والشكـل واللون صـح العكس كتشبيه الصبـح بغرة الفـرس الأدهم للمبالغـة في الضيـاء ، بـل لوقوع منير في مظلم وحصول بياض قليل في سواد كثيـر ، والتشبيه قـد يجيء غريباً في إدراكه إلى دقة نظر كقول ابن المعتز :

والشمس كـالمـرآةِ في كفِّ الأشـل

[مقلدات القـدّ يقـرون الـدُّغَـل]

والجامع الاستدارة والإشراق مع تواصل الحركـة التي تراهـا للشمس إذا انعمت التـأمل في اضـطراب نور الشمس ويقـرب منـه قـول الآخـر في طلوع الشمس وظهورها في خلل الأوراق :

كـأنَّ شعـاعَ الشمس في كـلِّ غُـدوةٍ

عـلى وَرقِ الأشجـارِ أوَّلَ طـالـعِ

دنـانيـرٌ في كفّ الأشـلِ يضمهـا

لقبضٍ وتهوي من فروجِ الأصـابعِ

وكقول الوزير أبي محمد المهلبي :

الشمسُ من مشـرقِها قـد بـدتْ مـشـرقـة ليسَ لـهـا حـاجـبُ
كـأنَّـهـا بـوتَقَـةٌ أحـمِـيَـت يـجـولُ فـيـهـا ذهـبٌ ذائـبُ

ومن لطيف ما جاء في هذا النوع من التشبيه قول الأخيطل في صفه مصلوب :

كـأنَّه عـاشقٌ قـد مـدَّ صفحَتـه
يـوم الـوداعِ إلى تـوديـعِ مـرتحِـلِ
أو قـائمٌ من نعـاسٍ فيـه لـوثَتُـهُ
مـواصِـلٌ لتمـطيـه من الكَسَـلِ

شبهه بالمتمطي لأن المتمطي يمد يديه وظهره ، ثم يعود إلى حالته الأولىٰ فزاد فيه أنه مواصل لذلك ، وعلله بالقيام من النعاس لما في ذلك من اللوثة والكسل ومن فساد التشبيه أن يجيء منكوساً كقول الفرزدق:

والشيبُ ينهضُ في الشبـاب كـأنَّـهُ
لـيـلٌ يصيـحُ بجـانـبيـهِ نـهـار

فذكر أن الشيب يبدو في الشباب ثم ترك ما ابتدأ به ووصف الشباب بأنه ليل يصيح فيه نهار والذي تقتضيه المقابلة الصحيحة أن يقول كما ينهض نهار في جانبي ليل .

فصل :

التشبيه ليس من المجاز ، لأنه معنى من المعاني وله ألفاظ تدل عليه وضعاً فليس فيه نقل اللفظ عن موضوعه وإنما هو توطئة لمن يسلك سبيل الاستعارة والتمثيل لأنه كالأصل لهما وهما كالفرع له ، والذي يقع منه في حيز عند أهل هذا الفن هو الذي يجيء على حد الاستعارة ، كذلك لمن يتردد في الأمر بين أن يفعله أو يتركه : « أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرىٰ » والأصل فيه أراك في ترددك كمن يتقدم رجلاً ويؤخر أخرىٰ .

٦ ـ من كتاب (جوهر الكنز) لنجم الدين أحمد بن اسماعيل بن الأثير الحلبي المتوفي سنة ٧٣٧ هـ

باب التشبيه

حد التشبيه أنْ تُثبت للمشبه حكماً من أحْكَام المُشبهِ بهِ قَصداً للمبالَغةِ . والفَرْقُ بينَه وبينَ الاستعَارة ثُبوتُ الأداةِ في بابِ التَّشْبيه أو تقديرها فيه ، مع طَي ذكر المُشبَّه به ، وسقُوطها في باب الاستعارة مع وجوب ذكر المُسْتعارِ ليكونَ أبلغَ من التَّشْبيه .

وقال قومٌ إنَّ التشبيه من باب الحقيقة . والذي عليه جمهورُ عُلماءِ البَيان أنه من باب المَجاز ، وهو الأصحُّ ، واللهُ أعْلَمُ .

والتشبيهُ ينقسمُ إلى قِسمَيْنِ : بليغٌ وغيرُ بليغ ؛ فالبليغ ما لم تظهر فيه أداةُ التشبيه كقولِكَ : زيدٌ أسَدٌ ، وغير البليغ ما ظَهرتْ فيه أداةُ التشبيه .

ولا يخْلُو التَّشْبيهُ من ثلاثَةِ أحْوال : إمَّا تشبيهُ معنىً بصورةٍ كقولِهِ تعالى : ﴿ والَّذينَ كفرُوا أعمالُهم كسرَاب بقيعة يحسَبُهُ الظَّمآنُ ماء ﴾[1] فشبَّه ما لا يُدْركُ بالحاسة وهو الأعمال بما يُدْركُ بالحاسةِ وهو السراب .

وإمّا تشبيهُ صورة بصورة كقولِهِ تعالى : ﴿ ولهُ الجَوارِي المُنْشآتُ في

(١) سورة النور آية ٣٩ . قال الرماني : فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه . ثلاث رسائل ص ٧٥.

البحر كالأعْلامِ ﴾[1] فشبَّه صُورةَ أجْسَامِ الفُلْكِ في عِظَمِها بالجِبَال .

وأمّا تشبيه معنى بمعنى كقولك : زيدٌ أسدٌ ، فإن الغرضَ تشبيه الشجاعةِ التي هي معنى في زيد بالشجاعة التي هي معنى في الأسد .

وأمّا تشبيهُ صورةٍ بمعنى كقوله صلّىٰ الله عليه وسلم فيما رواه عبدُ اللهِ ابنُ مسعودٍ انه خَط خطاً مربَّعاً في وَسَطِهِ خطٌّ ، وخط إلى جانبه خطوطاً ثُمَّ خطَّ خطاً خارجاً وقال : أتَدْرُونَ ما هذِه الخُطوط ؟ قُلْنا : اللهُ ورَسُولُه أعلمُ . فقال : الخَطُّ المربَّعُ هو الأجَلُ والخطُّ الذي في وَسَطِهِ هو الإنْسانُ ، والخُطوط التي حوله الأعراضُ الَّتي تَنْهشُهُ إن تركهُ هذا نَهَشَهُ هذا ، والخَطُّ الذي هو خارجُ الخَطِّ المُرَبَّعِ هو الأملُ . وهذه صورةُ الخطِّ الذي وَضَعَهُ صلّى الله عليه وسلم[2] .

ثم إن كل واحدٍ من هذه الأقسام إما أن يكون تشبيه مفرد بمفرد أو مُركَّبٍ بمُركَّب ، أو مُفْردٍ بمُركَّبٍ ـ أو مُركَّب بمفرد .

فتشبيه المفرد بالمفرد كقول البحتري :[3]

تَبَسُّمٌ وقُطوبٌ في نَدىً ووغىً
كالغَيْثِ والبَرْقِ تَحْتَ العَارِضِ البَرِدِ

وتشبيه المركب بالمركب مثل قوله تعالى : ﴿ إنَّما مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيا

---

(١) الرحمن آية ٢٤ ، قال الرماني : فهذا تشبيه قد أخرج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها وقد اجتمعا في العظم: إلاّ أن الجبال أعظم . وفي ذلك العبرة من جهة القدرة فيما سخر من الفلك الجارية مع عظمها ، وما في ذلك من الانتفاع بها وقطع الأقطار البعيدة فيها .

(٢) في الأصل رسم استغنينا عن نقله لوضوحه من القول .

(٣) من قصيدة يمدح بها محمد بن حميد الطوسي ديوانه ١ /٥٧٥ طبع المعارف بتحقيق الصيرفي. ورواية العجز (كالبرق والرعد وسط العارض في البرد) .

كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ﴾[1].

وتشبيه المفرد بالمركب كقول الشاعر:[2]

وَرَمْلٍ كأوراكِ العَذارى قطعْتُهُ
إذا لَبِسَتْهُ المُظْلِماتُ الحَنادِسُ

وتشبيه المركب بالمفرد كقول الشاعر:[3]

وكأنَّ فَرْوَةَ رَأسِه من شَعْرِهِ
بُذِرَتْ فَأَنْبَتَ جانِبَاها فُلفُلا

ومن محاسن التشبيه قولُ الشاعر:[4] في وصف البرق:

يَبْدو وتُضْمِرُه التِّلالُ كأنَّهُ
سَيْفٌ على شرفٍ يُسَلُّ ويُغْمَدُ

وهذا من المعاني العقم.

ومن محاسن[5] التشبيه قولُ عَدِيّ بنِ الرِّقاع(*) يصفُ قرْنَ ظَبْيٍ:

---

(1) آية ٢٤ سورة يونس.

(2) البيت لذي الرمة ديوانه ص ٤٠٨ ورواية العجز «إذا جللته المظللمات الحنادس».

(3) البيت للراعي وأورده ابن رشيق في العمدة ٢/٢٩٧ وروايته:

جدلا أسك كأن فروة رأسه   بذرت فأنبت جانباها فلفلا

(4) البيت للطرماح، وقيل أنه في صفة ثور وحشي ورواية الصدر:

* يبدو وتضمره التلاد كأنه *

وأورده ابن رشيق في العمدة ١/٢٩١ تحقيق محي الدين عبد الحميد.

(5) في الأصل حسن.

(*) عدي بن الرقاع: شاعر أموي من عاملة بن عدي بن الحارث: اختص بالوليد بن عبد الملك وجعله ابن سلام في الطبقة الخامسة من الإسلاميين. هجاه جرير ولم يتصل الهجاء بينهما وذكر أن البيت من قصيدة في مدح الوليد بن عبد الملك، ذكر المبرد أن جريراً لما سمعه =

تُـزجـي أغَـنَّ كـأنَّ إبْـرَةَ رَوْقِـه
قـلمٌ أصَـابَ مـن الـدَّواةِ مَـدَاهَـا

فانظر إلى هذا التَخْييل ما أحسنه ؟

ومن ذلك لابن المعتز :[1]

مُعَتَّقَـةٌ صَـاغَ الـزَّمـانُ لِـرَأسِـهَـا
أكَـالِيـلَ دُرٍّ مـا لِمَـنْـظُومِهـا سِـلْكُ
وقَـدْ خَفِيَتْ في ضَـوْئِهـا فَكَـأنَّـهـا
ضَمِيـرُ يـقيـنٍ كـاد يَـدْخُلُهُ الـشَّـكُّ

وله أيضـاً :[2]

الـقَـطرُ نَـبْـلٌ والـغَـدِيـرُ سَـوابِـغٌ
والـبَـرْقُ بِـيضٌ والـغَـمَـامُ بُـنُـودُ

فانظر إن هذا التَّخيِيل العَجِيب ما أحسَنَه في باب التشبيه .

وله أيـضاً[3] :

= ينشد أول هذا البيت « تزجي أغن كأن ابرة روقة » قال في نفسه : وقع والله الشيخ . من أين له كأن، فلما قال : « قلم أصاب من الدواة مدادها » حسده .

(1) من قصيدة في ديوانه ص ٣٥٣ طبع صادر ببيروت مع اختلاف قليل في اللفظ راجع طبقات ابن سلام طبع المعارف س ٥٥٨، الأغاني ١٧٣/٨، العمدة ٢٠٣/١ ، عيار الشعر ١٨.

(2) ديوانه ٧/٢ من مقطوعة أربعة أبيات هي :

قم يـا نـديم إلى مبـاشـرة الـوغى — فـالـحـرب قـائمـة ونـحـن هـجـود
والـلـيـل قـد أودى وقـهـقـه عـنـده — الإبـريـق من طـرب ونـاح الـعـود
ولئـن زعـمـت بـأن ذلـك بـاطـل — فـلنـا عـلـيـه أدلـة وشـهـود

انظر نبل . . . الخ .

والسوابغ الدروع السابغة أي الكاسية ، والبيض السيوف .

(3) ديوانه ٨١/١ من قصيدة مطلعها :

عز دمعي من بعد أهل العقيق — فلآلى عقوده كالعقيق

قـامـــةُ الغُصْنِ طَلَعَــةُ البَــدْرِ طَـرْفُ
الــظَّبْيِّ ثَغْــرُ الأقَــاحِ خــدُّ الشَّقِـيق

فانظر إلى صناعة هذا التشبيه ما أحسنها .

ومثله قوله: (١)

والــطيــرُ يَقْــرأُ والغَــدِيــرُ صَفِيحــةُ
والــرِّيــح تـكْتُـبُ والغَـمــامَــةُ تنقِطُ

ومثله له : (٢)

والــسحــبُ رايَــاتٌ ولـمــعُ بُــروقـهــا
بيضُ الــظُّبي والأرضُ طِــرفُ أشْـهَبُ
والــنَّــدُّ قسْــطَلُهُ وزَهْــرُ شُـمُــوعِـهــا
صُــمُّ القَـنَــا والفَـحْم نـبــلٌ مُــذْهَـبُ

ومثله أيضاً له: (٣)

والــبــانَ تَــرقُصُ والحَـمَــامُ هَــواتِـفٌ
تَـشْــدُوا وأطــرَافُ الغَــديــرِ تُـصَـفِّـقُ

ومثله في حسن التشبيه: (٤)

وطـلعـتُـهــا والــفــرعُ شـمسٌ ولَـيــلةٌ
ومَبسِمهــا والكــاسُ صُبْــحٌ وكَــوْكَـبُ
ومــا لاحَ في الغَــرْبِ الهِــلالُ وإنَّمَــا
هــوَ البَــدْرُ إجْــلالاً لَـهــا يَـتَـنَـسَّـفُ

---

(١) ديوان ابن المعتز ٢/٤ .

(٢) ديوانه ١/١١٦ والطرف : الفرس والمهر .

(٣) ديوانه ١/٣٠.

(٤) ديوانه ١/١١٧ من قصيدة يمدح الملك العادل الأيوبي .

ومنها :

وخَطُّ عِـذَارٍ طـرسُـهُ مـاءُ وَجْـنَـةٍ
فَيَـا مَنْ رأى خـطاً على المـاءِ يُكْتَبُ

وله أيضاً :(١)

وكـأنَّـمـا زُهْـرُ الـنُّـجـومِ رَعِـيَّـةٌ
وقُـلُوبُهـا مِـنْـهـا تَـخـافُ فَـتَـخْـفُـقُ

ومثله للبحتري(٢) :

يُخْفِي الزُّجاجـة ضَـوؤُهـا فكـأنهـا
فـي الـكـفِّ قـائـمـةٌ بِـغَـيـرِ إنَـاءِ

ومثله لأبي عثمان الخالدي(*) :

لـسـت أدْرِي مـن رقـةٍ وصـفـاء هي في كـاسهـا أمِ الكـأسُ فيهـا

ومثله قول الآخر :

هي في رِقَّـةِ الصَّبـابَـةِ والـوجْـدِ وفـي قَسْـوةِ الـنَّـوى والـفِـراق
لستُ أدري أمـن خُـدودِ الغـوانـي سـكبُـوهـا أم أدْمُـعِ الـعُـشَّـاقِ

---

(١) ديوانه ١/١٦٨ .

(٢) البيت من قصيدة للبحتري في مدح أبي سعيد الثغري . ديوانه ١/٧ وروايته .

يخفي الـزجـاجـة لـونهـا فكـأنهـا فـي الـكـف قـائـمـة بـغـيـر انـاء

وراجع الموازنة ١/٣٦٠ بتحقيق سيد صقر . طبع دار المعارف .

(*) أبو عثمان الخالدي هـو أحد الخالديين، وأصغرهما ، واسمه سعيد ، كـان شاعـراً في بلاط سيف الدولة . عمل مع أخيه خازني دار كتبه . ينسبان إلى الخالدية : قرية من أعمال الموصل ولهما مؤلفات. منها « حماسة الخالـديين » في شعر المحـدثين وتسمى : « الأشباه والنظائر » راجع في ترجمته : الفهرست ١٦٩ ويتيمـة الدهـر للثعالبي ج١ ، ومعجم الأدباء لياقـوت ج٤ ومعجم البلدان : « الخالدية »، وشرح المقـامات للشـريشي ١/٢٧٠ ، وفوات الـوفيات لابن شاكر ١/٢١٨.

ومن محاسن التشبيه قول ابن أبي حصينة(*) :

يـا طيفُ كيفَ سَخَتْ بِـكَ ابنـةُ مـالـك
والـصُّبْـحُ نَـصْــلٌ والـظَّلامُ قِـرابُ

والـجَــوُّ مُشْـتَبِـكُ الـنُّجـومِ كـأنَّــهُ
كـأسٌ عَـلاهُ مـن الـمِـزَاجِ حَبَـابُ

ولـه :

ولا تـثِـقْ بـصـديـقٍ لا تُـجَـرِّبُـهُ
فـربَّـمـا زهَّـدَتْ فِيـه تَـجـارِبُـه

كـذَلِـكَ البَحـر صـافِي اللوْنِ مَنْـظَرُهُ
ولا تَـلَذُّ لـظمـآنٍ مـشـارِبُـهُ

ولابن الساعاتي(**) في التشبيه(1) :

فـالأرض طِـرْسٌ والـحَيَـاء سُـطُورُه
والـبـيض شـكـلٌ والـقَـنـا ألِـفـاتُـهُ

ولابن الساعاتي أيضاً : (2)

كـأنَّ المَغَـاني حينَ أَعْجَمَهـا الـشَّطُ
بـقـايـا زَبُـورٍ والأثـافـي لـهـا نَـفْطُ

(*) ابن أبي حصينة : الأمير أبو الفتح بن أبي حصينة السلمي من شعراء القرن الخامس بالشام .

(**) ابن الساعاتي : علي بن رستم بن هردوز توفي سنة ٦٠٤ هـ من شعراء الدولة الأيوبية راجع الأدب في العصر الأيوبي ص ٣٠٢.

(1) البيت ليس في ديوانه المطبوع وربما كان من قصيدته التي مطلعها ج١/ ٦٤.

زحـف الـصبـاح وهــذه رايـاتـه

وسقط من القصيدة .

(2) ديوانه ١/ ٧٩.

كأن الفلا طرسٌ ومن شَهِدَ الوَغَى
سطورٌ بأقلامِ العوالي لها خطٌّ
إذا أعجمتْ في أوجهِ القوم أحرُفا
فتلك حروفٌ للكماةِ بها كشْطُ

وله من التشبيه الرائق الفائق:[1]

والبدرُ في جُنْحِ الظَّلامِ وغُمْرهُ
في العُنْفُوانِ كغُرَّةٍ في أدْهَمِ
فكأنَّما زِنْجِيَّةٌ محبُوبَةٌ
جُليتْ فنقطَهَا المُحِبُّ بِدِرْهَم

وله من محاسن التشبيه:[2]

ما الجوُّ إلاَّ عَنْبَرٌ والدوْحُ إلاَّ
جَوْهَرٌ والرَّوْضُ إلاَّ سُنْدُسُ
سفَرَتْ شَقائِقُها فهمَّ الأقْحُوانُ
بلَثْمِهَا فرنا إليه النَّرجِسُ
فكأنَّ ذا ثغرٌ وذا خدٌ يُحا
ولُهُ وذَا أبَداً عيونٌ تَحْرُسُ

وله أيضاً[3]

وكأنَّما فَنَنُ الأراكةِ مِنْبَرٌ
وهَزَارُها فَوقَ الذُّؤابَةِ يخْطُبُ

(١) ديوان ابن الساعاتي ٢/٥٧ من مقطوعة ٧ أبيات والبيتان السادس والسابع .

(٢) ديوانه ٢/١٦٤ .

(٣) ديوانه ٢/١٦٨ قالها وقد حضر قبل خروجه من دمشق مع جماعة من الأصدقاء بالنيرب على شراب وعندهم سقاة كالشموس وجاء مطر كثير ورعد وبرق فسألوه أن يصف ذلك اليوم بديهاً . والمقطوعة ثمانية أبيات والأول هنا ثانيها والثاني ثالثها والثالث ثانيها .

فـالـرَّعْـدُ يَشْـدُو والحَيَـا يَسْقِي وغُـصْنُ
البَـانِ يَـرْقُصُ والـخَـمـائِـل تَـشْـرَبُ
والـقَـطْرُ نَـبْـل والـغَـدِيـرُ سَـوَابِـغٌ
مـوضُـونَـةٌ والـبَـرْق سَـيْـفٌ مُـذْهَـبُ

ولغيره في هذا المعنى :[1]

أيـاديـه بـيضٌ فـي الـوَرَىٰ مَـوسَـوِيَّـة
ولـكـنَّـهـا تَـسْـعَـىٰ عـلى قَـدَم الـخِـضْـرِ

ولغيره في هذا المعنى :

أبْكي فـأبْصِـرُ أدْمُعِي في خَـدِّهـا لِصَقَـالِـهِ فـأخـالُـهـا تَبْـكي لِـي

ومثله لأبي تمام :[2]

وثـنـايـاكِ إنَّـهـا إغـرِيضُ ولآلٍ بـيضُ وبَـرْقٌ ومـيضُ
وأقـاحٍ مـنـورٌ فـي بِـطَـاح
هَـزْهُ فـي الـصَّـبـاحِ رَوْضُ أريضُ[3]

وللبحتري في المعنى :[4]

ولمـا التَقَيْنَـا والنَّـوىٰ مَـوْعِـدٌ لَـنَـا
تَـعَجَّـبَ رائِي الـدُّرِّ حُـسْنـاً ولاقِـطُهُ

---

(١) يشير بقوله أياديه بيض موسوية إلى الآية القرآنية (تخرج بيضاء من غير سوء) والحضر هنا هو العبد الصالح صاحب موسى .

(٢) ديوانه ص ١٨١ مطلع قصيدة يمدح أبا الغيث موسى بن ابراهيم .
وروايته : « ولآل توم وبرق وبيض ».

(٣) والثنايا أربع الأسنان في مقدمة الفم ، والإغريض كل أبيض طري والأقاح زهر الأقحوان والبطاح . الصحارى وأريض مزهر مورق .

(٤) ديوان البحتري ٢/١٢٣٠ بتحقيق الصيرفي طبع المعارف . ورواية البيت الأول :
ولمـا التقينـا والنـوى موعـد لـنـا

فمن لـؤْلُـؤٍ تـجلُوه عـنـدَ ابتِسـامِهـا
ومن لُـؤْلُـؤٍ عنـدَ الحَـدِيثِ تُسَـاقِـطُهُ

ولسيف الدين المشد(*) في المعنى :

خـاطَبْتَنِي مَتبسِّمـاً فقـرأتُهـا
من نَظْمِ ثَغْرِكَ في صِحَاحِ الجَوْهـري

ولابن التلعفري(**):

الـثَّـغْـرُ مِـنْـهُ وخَـدُّهُ وَجَـبِـيـنُـهُ
لـلـنُّـورِ بَـلْ لـلنَّـار بَـلْ لـلنُّـورِ

ومثله للصنوبري(*) : (1)

فـالجَـوُّ والغَـوْرُ والـوادِي وتُـرْبَتُـهُ
دَرٌّ ودُرٌّ ودِيـبـاجٌ وكَـافُـورُ

وأحسنُ ما قيل من التشبيه :

(*) سيف الدين المشد : علي بن قزل من شعراء الشام في القرن السابع الهجري ، وفد إلى مصر والتقىٰ بشعرائها وأدبائها في أوليات عصر المماليك . ولـه شعر يـذهب فيه إلى البـديع . لـه ديوان ، عبارة عن مجموعة مقطعات، ومنه صورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

(**) التلعفري : نسبة إلى تل عفر قرب الموصـل بالعـراق وهما أثنـان أحدهمـا من شعراء القـرن الرابع والثاني « شهاب الـدين » محمد بن يـوسف بن مسعود ، ولـد سنة ٥٦٣ هـ وتـوفي سنة ٦٧٥ هـ وله ديوان مطبوع . راجع ترجمته في فوات الـوفيات لابن شـاكر ٥٤٦/٢ ، والنجـوم الزاهرة ٥٥/٧ وشذرات الذهب ٣٤٩/٥.

(*) الصنوبري : أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسن بن المـراد ، الصنوبـري الحلبي (توفي سنـة ٣٣٤ هـ) راجع في ترجمته فوات الوفيات لابن شاكر وشذرات الذهب لابن العماد .

(1) البيت ليس في الجزء المنشور من مجموع شعره .

قَـدِمَ الـرَّئِـيسُ مُـقَـدَّمـاً فـي سَـبْـقِـهِ
فكَـأَنَّـمـا الـدُّنْيَـا سَـعَـتْ في طُـرْفِـه
فجبـالهـا من حِلْمِـه وبِحَـارُهـا   من جُـودِهِ وريـاضُهـا مـن خُلْقِـه
وكـأَنَّـمـا الأفـلاكُ طَـوعُ يَـمِـيـنِـه
فنحـوسُهـا لِعَـدُوِّهِ وسُعُـودُهـا في أفْقِـهِ

ومن التشبيه :

ومـدامـةٍ صـفـراءَ فـي قَـارُورَةٍ   زَرْقَـاءَ تَـحْـمِـلُهـا يـدٌ بَـيْـضَـاءُ
فـالـراحَ شَمْسٌ والحَبَـابُ كـواكبٌ   والـكـفُّ قُـطْبٌ والإِنَـاءُ سَـمـاءُ

* * *

ومما يلْتَحِقُ بِهَذَا البَابِ بابُ الأوصافِ والنُّعُوتِ.



٧ ـ من كتاب (الإيضاح) للخطيب القزويني المتوفي سنة ٧٣٩ هـ

المجاز : [1]

والمجاز مفرد ومركب :

المجاز المفـرد

أما المفرد فهو الكلمة[2] المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح به التخاطب على وجه يصبح مع قرينة عدم إرادته .

فقـولنـا « المستعملة »[3] ، احتـراز عمـا لم يستعمـل لأن الكلمـة قبـل الاستعمال لا تسمىٰ مجازاً كما لا تسمىٰ حقيقة .

---

(١) راجع ١٥٣ مفتاح، ٣٠٤ وما بعدها و٢٤٣ أسرار البلاغة .

(٢) « الكلمة » جنس .

(٣) فصل احترز به عن الكلمة قبل الاستعمال وبعد الوضـع فليست بمجاز ولا حقيقـة . وقولـه في غير ما وضعت له ، أي في معنى مغايـر للمعنى الذي وضعت الكلمـة له فصـل آخر احتـرز به عن الحقيقة، مرتجلاً كان أو منقـولاً أو غيرهمـا كالمشتقـات ويرد عليـه أنه إن أريـد الوضـع الشخصي خرج عن التعريف التجوز فيما هو موضـوع لمعناه الأصلي بـالنوع كـالمشتقات وإن أريد الوضع النوعي خرج التجوز فيما كان الوضع فيه لمعناه الأصلي شخصياً كالأسد وإن أريد مـا هو أعم من الشخصي والنـوعي لم يشمل شيئاً من أفراد المجـاز إلَّا أن يجاب بـأن المراد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقولنا في اصطلاح به التخاطب[1] ليدخل فيه نحو لفظ الصلاة إذا استعمله المخاطب بعرف الشرع في الدعاء مجازاً بـإنه وإن كان مستعملاً فيما وضع له في الجملة[2] فليس بمستعمل فيما وضع له في الاصطلاح الذي بـه وقع التخاطب[3].

وقولنا : « على وجه يصح »[4] احتراز من الغلط كما سبق .

وقولنا « مع قرينة عدم إرادته » [5] احتراز عن الكناية كما تقدم

= الوضعان ويرتكب التوزيع أي في غير ما وضعت وضعاً شخصياً في الموضوعة بالوضع الشخصي وفي غير ما وضعت له وضعاً نوعياً في الموضوعة بالوضع النوعي .

(١) هذا قيد في الفصل للادخال لا للاخراج فالجنس لا يخرج به ، والفصل للاخراج ، وقيد الفصل للادخال .

وقوله « في اصطلاح به التخاطب » متعلق بقوله « وضعت » والمراد بذلك كونه موضوعاً له في ذلك الاصطلاح سواء حدث الوضع في ذلك أو لا .

(٢) أي في بعض الاصطلاحات وهو اللغة .

(٣) وهو الشرع فهو مجاز شرعي بمقتضى اصطلاح الشرع وإن كان حقيقة لغوية بمقتضىٰ اصطلاح اللغة ، وقيد « في اصطلاح به التخاطب » أيضاً يخرج من تعريف المجاز ما يكون له معنى آخر باصطلاح آخر الذي هو من أفراد الحقيقة كلفظ الصلاة المستعملة بحسب الشرع في الأركان المخصوصة فإنه يصدق عليه أنه كلمة مستعملة في غير ما وضعت له لكن بحسب اصطلاح آخر وهو اللغة لا بحسب اصطلاح التخاطب وهو الشرع فلذا لا تكون مجازاً .

(٤) متعلق بالمستعملة وهو فصل يخرج به الغلط فلا بد في المجاز من ملاحظة العلاقة ليكون الاستعمال على وجه يصح والغلط الذي يخرج بذلك هو اللساني أما الغلط في الاعتقاد فتارة يكون حقيقة وتارة يكون مجازاً .

(٥) أي حال كون تلك الكلمة المستعملة في الغير مصاحبة لقرينة فقرينة المجاز مانعة من إرادة الأصل واشتراط القرينة المذكورة في المجاز وإخراج الكناية بها إنما هو عند من لم يجوز الجمع بين الحقيقة والمجاز كالبيانيين أما من جوزه كالأصوليين فلا يشترط في القرينة أن تكون مانعة فعندهم يجب إسقاط هذا القيد من التعريف وإذا سقط دخلت الكناية .

وقوله مع عدم إرادته أي إرادة الموضوع له وضعاً حقيقياً

ملاحظات :

١ ـ ملاك الأمر أن المجاز لا يتقيد إلّا بوجود علاقة (ارتباط بين الانتقال من المعنى الحقيقي إلى =

والحقيقة (١) لغوية وشرعية وعرفية خاصة (٢) أو عامة (٣) ، لأن واضعها إن كان واضع اللغة فلغوية ، وإن كان الشارع فشرعية ، وإلا فعرفية ، العرفية أن تعين صاحبها نسبت إليه كقولنا كلامية ونحوية ، وإلا بقيت مطلقة . مثال اللغوية : لفظ أسد إذا استعمله المخاطب بعرف اللغة في السبع المخصوص ، ومثال الشرعية لفظ صلاة إذا استعمله المخاطب بعرف الشرع في العبادة المخصوصة ، ومثال العرفية الخاصة لفظ فعل إذا استعمله

= المجازي) وأن يكون موافقاً لعرف البلغاء ومناسباً لذوق البيئة وأن يعتمد على قرينة مانعة .

٢ ـ البيانيون يوجبون في القرينة أن تكون مانعة من إرادة المعنى الحقيقي ومقارنة للمجاز ، بخلاف الأصوليين فقد أجازوا أن تكون غير مانعة كما أجازوا ألا تقارن المجاز حيث يجيزون تأخير البيان لوقت الحاجة . أما كون القرينة معينة للمراد فلم يشترطه جمهور البيانيين واشترطه عصام الدين .

٣ ـ القرينة اما لفظية أو حالية ، وقد تكون أمراً واحداً أو أموراً كل واحد منها يصلح أن يكون قرينة ، أو مجموع أمور كلها قرينة واحدة .

٤ ـ القرينة المانعة واشتراطها في المجاز لإخراج الكناية بناء على أنها واسطة لا حقيقة ولا مجاز لأن الكناية الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له مع جواز إرادة ما وضعت له أي بأن لا ينصب المستعمل قرينة على انتفائه ، فالكناية لفظ استعمل في لازم الموضوع له مع جواز إرادة الملزوم ومجرد جواز إرادة الملزوم لا يوجب كون اللفظ مستعملاً فيه .

ويرى السبكي عكس هذا وهو أن الكناية أريد بها موضوعها استعمالاً وأريد لازمه إفادة فهي موضوعة لأن اللفظ عين فيها للدلالة على معناه الذي هو موضوع اللفظ بنفسه ، وكونها دالة على لازم ذلك المعنى بقرينة حالية كدلالة طويل النجاد على طول القامة يحتاج لقرينة لكن ذلك ليس المعنى الذي استعملت الكلمة فيه .

٥ ـ أطوار كلمة الحقيقة هي : حقيقة وصفاً لمؤنث في نحو قولهم هي المرأة حقيقة بالحصانة ، ثم حقيقة مستعملة استعمال الأسماء في نحو قولهم هو يدافع عن الحقيقة ، ثم الحقيقة البيانية .

(١) ١٥٣ مفتاح .

(٢) أي يكون ناقله هو المعنى اللغوي طائفة مخصوصة من الناس منسوبين لحرفة كالنحويين والمصرفيين وغير ذلك .

(٣) وهي ما لا يتعين ناقلها بطائفة مخصوصة وإن كان معيناً في نفس الأمر.

المخاطب بعرف النحو في الكلمة المخصوصة ، ومثال العرفية العامة لفظ « دابة » إذا استعمله المخاطب بالعرف العام في ذي الأربع [١]

وكذلك المجاز المفرد [٢] : لغوي وشرعي وعرفي ، مثال اللغوي لفظ أسد إذا استعمله المخاطب بعرف اللغة في الرجل الشجاع ، ومثال الشرعي لفظ صلاة إذا استعمله المخاطب بعرف الشرع في الدعاء ، ومثال العرفي الخاص لفظ فعل إذا استعمله المخاطب بعرف النحو في الحدث ، ومثال العرفي العام لفظ دابة إذا استعمله المخاطب بالعرف العام في الشاة . والحقيقة [٣] إما فعيل بمعنى مفعول ، من قولك حققت الشيء أحقه إذا أثبته ، أو فعيل بمعنى فاعل من قولك حق الشيء إذا ثبت ؛ أي المثبتة أو الثابتة في موضعها الأصلي ؛ فأما التاء فقال صاحب المفتاح : هي عندي للتأنيث في الوجهين ، لتقدير لفظ الحقيقة قبل التسمية صفة مؤنث غير مجراة على الموصوف [٤] وهو الكلمة ؛ وفيه نظر [٥] ؛ وقيل : هي لنقل اللفظ من الوصفية إلى الاسمية الصرفة كما قيل في أكيلة ونطيحة إن التاء فيهما لنقلهما من الوصفية إلى الأسمية ، فلذلك لا يوصف بهما فلا يقال شاة أكيلة أو نطيحة .

---

(١) أي في ذي القوائم الأربع المعهودة وهي الحمار والبغل والفرس .

(٢) ص ١٥٣ مفتاح . هذا وأما المجاز فلأن الاصطلاح الذي به وقع التخاطب وكان اللفظ مستعملاً في غير ما وضع له في ذلك الاصطلاح إن كان هو اصطلاح اللغة فالمجاز لغوي وإن كان اصطلاح الشرع فشرعي وإلاَّ فعرفي عام أو خاص فهذه الأقسام بالنسبة إلى الحقيقة تعتبر بالقياس إلى الواضح ، وأما في المجاز فباعتبار الاصطلاح الذي وقع الاستعمال فيه في غير ما وضع له وهذه الأقسام في غير الأعلام الشخصية ، فقد أخرجها بعض العلماء من الحقيقة والمجاز ، والمعقول أن تكون من الحقيقة ولا مانع أن نقول هي حقيقة شخصية .

(٣) ص ١٥٣ مفتاح .

(٤) لأنها في هذه الحالة يصح الحاق التاء بها إذا كانت من فعيل بمعنى مفعول .

(٥) لأنه يجوز أن يقال هذا اللفظ حقيقة ولو كانت للتأنيث لم يجز .

والمجاز [1] قيل مفعل [2] من جاز المكان يجوز إذا تعداه [3] أي تعدت موضعها الأصلي ؛ وفيه نظر ؛ والظاهر [4] أنه من قولهم جعلت كذا مجازاً إلى حاجتي أي طريقاً له على أن معنى جاز المكان : سلكه ، على ما فسره الجوهري وغيره فإن المجاز طريق إلى تصور معناه واعتبار التناسب في التسمية يغاير اعتبار المعنى في الوصف ، كتسمية إنسان له حمرة بأحمر ، ووصفه بأحمر ، فإن الأول لترجيح الأسم على غيره حال وضعه [5] له والثاني لصحة

---

(١) ص ٣٤٢ أسرار ، ١٥٤ مفتاح .

(٢) أي باعتبار أصله مصدراً ميمياً على هذا الوزن .

(٣) فهي مشتقة من جاز يجوز ، ويصح أن تكون من الجواز على أن المصدر هو الأصل كما عليه البصريون فقد نقل المجاز إلى الكلمة الجائزة أي المتعدية مكانها الأصلي أو المجوز بها على معنى أنهم جازوا بها وعدوها مكانها الأصلي ، فهو في الأصل مصدر بمعنى الجواز والتعدية ثم نقل في الاصطلاح من المصدرية إلى الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له باعتبار أنها جائزة مكانها الأصلي أو مجوز بها فيكون اسم فاعل واسم مفعول .

(٤) حاصله أن لفظ مجاز في الأصل مصدر ميمي ، يعني مكان الجواز والسلوك وهو نفس الطريق ثم نقل في الاصطلاح إلى الكلمة الخ باعتبار كونها طريقاً إلى تصور المعنى المراد منها فالحاصل أن المصنف وعبد القاهر اتفقا على أن لفظ مجاز مصدر ميمي لا يصلح أن يكون المستعمل في الزمان منقولاً هنا لعدم المناسبة ثم اختلفا فقال المصنف المنقول هنا هو المستعمل اسم مكان وقال عبد القاهر المنقول هنا هو المستعمل في الحدث . [المصدر الميمي يصلح للزمان والمكان والحدث] وأيد المصنف رأيه بأن استعمال المصدر الميمي في الحدث بمعنى اسم الفاعل أو اسم المفعول مجاز بخلاف استعماله اسم مكان .

(٥) راجع ص ١٢٧ ج ١ من البيان والتبيين .

الخلاصة : أن نقد الخطيب لرأي عبد القاهر من أن المجاز مفعل من جاز المكان يجوزه إذا تعداه خلاصته أن المجاز على هذا يكون مصدراً ميمياً واستعمال المصدر الميمي بمعنى اسم الفاعل أو اسم المفعول محاز بخلافه على ما اختاره فإنه يكون اسم مكان ولا يحتاج إلى ارتكاب هذا التأويل فيه .

ملاحظات :

١ ـ خلاصة ما سبق أن كلمة مجاز في اللغة صالحة للحدث والمكان والزمان ، فلاحظ عبد =

إطلاقه ، فلا يصح نقض الأول بـوجود المعنى في غيـر المسمى كما يلهـج به الضعفاء [1]

والمجاز ضربان [2] : مرسل [3] واستعارة . لأن العلاقة المصححـة [4]

= القـاهر أنهـا نقلت من الحـدث إلى المعنى الفني ، ولاحظ الخـطيب أنهـا نقلت من المكان إليه ؛ وأما نقلها من الزمان فلا معنى له .

٢ ـ التاء في الحقيقة قيل أنها للنقل ومعنى كونها تاء النقـل أنها عـلامة علىٰ النقـل ، وقيل هي عـلامة على الاسميـة التي هي فرع الـوصفية وهـو الأصح . وقيـل أنها عـلامـة على الفرعية .

٣ ـ قيل إن كل مجاز له حقيقـة يتفرع منهـا ، والتحقيق أن هذا غـالبي ، فرحمن استعمـل في المنعم وهو معنى مجازي ولم يستعمل في المعنى الأصلي وهو رقيق القلب .

٤ ـ في الدسوقي [٤٨٦ جـ] بحث عن المجاز وهل هو من مقتضىٰ الظاهر أو من خلافه .

٥ ـ العلاقة هي الأمر الذي به الارتباط بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي وبه الانتقال من الأول للثاني كالمشابهة في مجـاز الاستعارة وكـالسببية في المـرسل والعـلاقة المعتبـر نـوعها لا شخصهـا ، ولذا صـح إنشاء المجـاز في كلام المـولدين وإنمـا اشترط في المجاز ملاحظة العلاقة بين المعنى المجازي والأصلي ولـم يصـح اطلاق اللفظ عليـه بـلا علاقـة ويكتفي بالقـرينة الـدالة على المـراد ، لأن إطلاق اللفظ على غيـر معنـاه الأصلي ونقله لـه على أن يكون الأول أصـلاً والثاني فـرعاً تشـريـك بين المعنيين في اللفظ وتفريع لأحـد الاطلاقين على الآخـر، وذلك يستـدعي وجهاً لتخصيص المعنى الفرعي بالتشريك والتفريع دون سائر المعاني وذلك الوجه هو المناسبة وإلاَّ فلا حكمة في التخصيص ويكون تحكماً ينافي حسن التصرف في التأصيل والتفريع .

(١) فعلة التسمية لا يلزم أطرادهـا أو انعكاسهـا ، بخلاف علة الـوصفية ، فعلة التسميـة لا توجبهـا بخلاف علة الوصفية .

(٢) راجع ٣٠٤ ، و٣٠٥ و٢٥٠ و٢٥١ من أسرار البلاغة، ص ١٥٤ من المفتاح .

(٣) سمي مرسلاً (مطلقاً) لأن الارسال لغة الاطلاق والمجاز الاستعاري مقيد بادعاء أن المشبه من جنس المشبه به والمرسل مطلق عن هذه الدعوىٰ ، وقيل لارساله عن التقييد بعلاقة مخصوصة بل ردد بين علاقات بخلاف المجاز الاستعاري فهو مقيد بعلاقة واحدة هي علاقة المشابهة .

(٤) أي لاستعمال اللفظ في غير ما وضع له .

إن كانت تشبيه معناه بما هو موضوع له فهو استعارة [١] وإلا فهو مرسل .

وكثيراً ما تطلق الاستعارة على استعمال [٢] اسم المشبه به في المشبه [٣] ؛ فيسمى [٤] المشبه به مستعاراً منه ، والمشبه مستعاراً له ، واللفظ [٥] مستعاراً .

---

(١) هذا مخالف لاصطلاح عبد القاهر والسكاكي ، والتحقيق أن العلاقة إذا كانت المشابهة ولم تقصد المبالغة فلا يكون ذلك استعارة وإن قصدت المبالغة كان استعارة .
فعلىٰ هذا الاستعارة هي اللفظ المستعمل في معنى شبه ذلك المعنى المستعمل فيه بالمعنى الأصلي لذلك اللفظ لعلاقة المشابهة كأسد في قولنا رأيت أسداً يرمي ، وإطلاق لفظ الاستعارة على اللفظ المستعار من المعنىٰ الأصلي للمعنى المجازي من إطلاق المصدر على المفعول .

(٢) أي فعل المتكلم وهو المعنى المصدري ، لا على اللفظ المستعار .

(٣) فعلىٰ هذا تكون بمعنى المصدر ، فالاستعارة على هذا استعمال اللفظ ، وهو توسع ، فإن المجاز هو اللفظ المستعمل لا الاستعمال ، وهذا ليس خاصاً بالاستعارة ، بل المجاز كذلك ، فهو اللفظ المستعمل في غير موضوعه أو استعمال اللفظ في غير . . الخ .

(٤) أي فيصح الاشتقاق منها على أنها بالمعنى المصدري ، بخلاف إطلاق الاستعارة على نفس اللفظ المستعار ، فإنه لا يصح منه اشتقاق لأن اسم المفعول لا يشتق منه .

(٥) أي لفظ المشبه به فيسمىٰ مستعاراً لأنه بمنزلة اللباس الذي استعير من أحد فألبس غيره وهو المعنى المشبه ، فالتشبيه بين المعاني والاستعارة للألفاظ ، ففي « رأيت أسداً يرمي » المعنى المشبه هو ذات الرجل الشجاع وهو المستعار له ، والمعنى المشبه به هو الحيوان المفترس وهو مستعار منه ، ولفظ أسد مستعار ، والمتكلم بهذا مستعير .

ملاحظات :

١ ـ لابد في جميع أقسام المجاز من العلاقة المصححة للانتقال ومرجع العلاقة اللزوم وإن كان اللزوم قد يذكر في بعض الأوقات علاقة ؛ وإنما كان مرجع العلاقة اللزوم لأن مرجع المجاز دلالة التضمين والالتزام ، وكل منهما انتقال من الملزوم إلى اللازم ؛ ألا ترى أن مجازي الاستعارة التحقيقية والمكنية يصح أن يرد إلى اللازم [راجع ٢٨٦ / الدسوقي].

٢ ـ المجاز بمرتبتين لمراتب :

هو لفظ أريد به معنى لم يوضع له مع وجود واسطة أو وسائط بين المعنى الحقيقي وبينه =

وعلى الأول لا يشتق منه لكونه اسماً للفظ لا للحديث .

= ولم يلاحظ صحة استعمال اللفظ في الواسطة أو في الوسائط . وذلك مثل « وأنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم »، أريد من اللباس أولاً الغزل ، ثم أريد به الزرع ، ثم الماء .

٣ ـ **المجاز على المجاز :**

مثل : لا تواعدوهن سراً؛ استعمال السر في الوطء مجاز مرسل علاقته المحلية لأن الوطء يكون غالباً في السر ، ثم أريد من الوطء العقد مجازاً مرسلاً علاقته السببية (السر ضد الجهر = ثم الوطء = ثم العقد) .

ومثل :

بني عمنا لأن تذكروا الشعر بعدما
دفنتم بصحراء الغمير القوافيا

أطلق القوافي على الشعر مجازاً مرسلاً علاقته الجزئية ، ثم أطلق الشعر على المفاخر مجازاً مرسلاً علاقته المسببة .

ومثل : « هو قرة عين لي ولك » أطلق القرة على سببها مجازاً مرسلاً علاقته المسببة ؛ ثم أطلق سبب القرة على الانشراح والسرور مجازاً مرسلاً علاقته السببية (هو قرة = هو سبب قرة = هو مبعث سرور وسعادة) .

فالمجاز على المجاز هو مجاز مبني على مجاز آخر منزل منزلة المعنى الحقيقي .

٤ ـ شرطوا في القرينة كما سبق أن تكون مانعة وهو رأي علماء البيان أما الأصوليون فقد أجازوا الجمع بين الحقيقة والمجاز ، فمثل « الخال أحد الأبوين » من عموم المجاز أي يراد منه معنى كلي يشمل الحقيقي والمجازي معاً ، فالمعنى المستعمل فيه اللفظ واحد لا اثنان، أما الأصوليون فيقولون إن اللفظ مستعمل في كل منهما الأب والخال المدعى أبوته .

٥ ـ القرينة هي الأمر الذي يصرف الذهن عن المعنى الوضعي إلى المعنى المجازي سواء عينت المراد أم لم تعينه ، مثل رأيت بحوراً في المدينة ؛ فكلمة « في المدينة » قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي ولكن لم تعين المراد من البحور أهم العلماء أم الأجواد ؟ واشترط عصام الدين في القرينة مع منعها من إرادة المعنى الحقيقي أن تكون معينة للمعنى المراد .

٦ ـ مثل السببية والحالية والمحلية الخ علاقات للمجاز المرسل ، أما الاستعارة فعلاقتها المشابهة . =

الضرب الأول المرسل [1]

وهو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه [2]:

كاليد إذا استعملت في النعمة [3] ، لأن من شأنها أن تصدر عن الجارحة ومنها تصل إلى المقصود بها [4] ؛ ويشترط أن يكون في الكلام إشارة إلى المولي لها [5]، فلا يقال : « اتسعت اليد في البلد » ، أو « اقتنيت يداً »، كما

= هذا ويمكن ارجاع علاقات المجاز المرسل المتعددة إلى شيء واحد هو التلازم بين المعنيين : الحقيقي والمجازي ، سواء كان التلازم في الخارج أم في الذهن ؛ وبهذا تصبح علاقات المجاز اللغوي إما المشابهة في الاستعارة وإما التلازم في المجاز المرسل ، بل إن علاقة المشابهة يجوز إرجاعها إلى علاقة التلازم .

(١) راجع ١٥٥ مفتاح ، ٣٠٥ و٣٥١ أسرار .

(٢) الأولى كما سبق : غير المبالغة في التشبيه .

ويرى السبكي أنه إذا كانت العلاقة في المجاز المشابهة فإن قوى الشبه بحيث يمكن ادعاء أن هذا هو ذاك كان استعارة وإلاّ كان مجازاً مرسلاً ؛ قال : ويشهد لصحة ذلك قول السكاكي في المجاز المرسل إنه الخالي عن المبالغة في التشبيه ؛ ولم يقل الخالي عن التشبيه (٣٠١ ح ٣ السبكي).

أقول وكلام السكاكي هو كلام عبد القاهر في الأسرار [ص ٣٠٤ الأسرار].

(٣) راجع ٢٦٨ صناعتين في ذلك. وقال الشاعر .

له أياد على سالفة أعد منها ولا أعددها

وقال آخر :

خلقت عيوفاً لا أرى لابن حرة على يداً أغضي لها حين أغضب

فاليد الموضوعة للجارحة المخصوصة إذا استعملت في النعمة كانت مجازاً مرسلاً لكونها بمنزلة العلة الفاعلية للنعمة لأن النعمة منها تصدر وتصل إلى المقصود بها فهي مجاز مرسل من إطلاق اسم السبب على المسبب ؛ قال السبكي : أو من إطلاق المحل على الحال أما العلة الفاعلية حقيقية فهي الشخص المعطي والعلاقة هنا العلة الفاعلية .

(٤) راجع ٣٤٣ و٣٠٥ من الأسرار ، ١٥٥ مفتاح .

(٥) هذا الشرط هو الذي توجد به العلاقة ولولاه لم يكن علاقة بين اليد والنعمة فإنما يكون للنعمة =

يقـال « اتسعت النعمة في البلد »، أو « اقتنيت نعمـة » ؛ وإنمـا يقـول « جلت يده عندي » ، « وكثرت أياديه لدىٰ »، ونحو ذلك .

ونظير[1] هذا في صفة راعي الإبـل : « إن له عليهـا إصبعاً[2] أرادوا أن يقولوا : له عليها أثر حذق؛ فدلوا عليه بالاصبع ، لأنه مـا من حذق في عمـل يد إلاَّ وهو مستفـاد من حسن تصريف الأصـابع ، واللطف في رفعهـا ووضعها كمـا في الخط والنقش ؛ وعلىٰ[3] ذلك قيـل في تفسير قـوله تعـالىٰ : ﴿ **بلىٰ قـادرين على أن نسـوي بنـانـه** ﴾: أي نجعلهـا كخف البعيـر فـلا يتمكن من

= ارتباط باليد إذا لوحظ المولي لها . وقال السبكي . هذا لا يتعين ، بـل يذكـر قرينـة ما ، فقـد تحصل القرينة من غير إشارة إلى المولي مثل رأيت يداً عمت الـوجود ، وقـد تحصل الإشـارة إلى المولـي ولا قرينـة تصرف إلى المجـاز مثل يعجبني يـد زيد ، ثم إن « جلت يـده عندي » ليس فيه ما يعين المجاز ، أما « كثرت أياديه » فلفظ « كثرت » قرينة .

(١) راجع ٣٠٦ من الأسرار .

(٢) قال المبرد : يقال لفلان عليـك يد ولـه عليك إصبع ؛ وكل جيـد ، وإنما يعني هنـا النعمة . [١٧٢ ج١ الكامل].

وذكر عبد القاهر ما ذكره الخطيب [٣٠٥ الأسرار]. وقال الشاعر :

ضعيف العصـا بـادي العـروق تـرى لـه   عليهـا إذا مـا أجـدب النـاس إصبعـا

(٣) راجع ٣٠٧ من الأسرار .

ملاحظة :

الأفعال الدالة على القدرة لما كانت لا تظهر إلاَّ باليد صارت القدرة وآثارها كل منهما لا يـظهر إلاَّ باليد وإن كان ظهور أحدهما مباشرة وظهور الآخر بواسطة ، فصارت اليد كـالعلة الصوريـة لهما ، فالعلاقة ترجع إلى معنى السببية .

هذا وأنواع العلاقة المعتبرة في المجاز المرسل كثيـرة ترتقي إلى خمسـة وعشرين . والمصنف قد أورد هنا تسعة غير ما ذكره أولاً في إطلاق اليد على النعمة والقدرة بعلاقة السببية الصوريـة إذ العلاقة فيهما السببية في الجملة وهي داخلة فيما يأتي ، إلاَّ أن يقال السببية الآتية غير هـذه لأن هذه سببية تنزيلية والآتية سببية حقيقية ، فمثل « لـلأمير يـد أي قدرة » ينتقـل من اليد إلى الآثار الظاهرة ومن الآثار إلى القـدرة التي هي أصلها من بنـاء مجاز على مجـاز آخر تقـديراً ، فالعلاقـة كون اليـد كالعلة الصـورية للقـدرة وآثارهـا ، فاليـد مجاز عن الآثـار من إطلاق اسم =

الأعمال اللطيفة فأرادوا بالاصبع الأثر الحسن ، حيث يقصد الإشارة إلى حذق في الصنعة ، لا مطلقاً حتى يقال رأيت أصابع الدار ، وله إصبع حسنة وإصبع قبيحة على معنى أثر حسن وأثر قبيح ، ونحو ذلك .

وينظر إلى هذا قولهم « ضربته سوطاً » لأنهم عبروا عن الضربة الواقعة بالسوط باسم السوط ، ، فجعلوا أثر السوط سوطاً ، وتفسيرهم له بقولهم : المعنى « ضربته بالسوط» بيان لما كان الكلام عليه في أصله[١].

ونظير قولنا « له على يد » قول[٢] النبي صلّى الله عليه وسلم لأزواجه : أسرعكن لحوقاً - ويروي لحاقاً - بي أطولكن يداً ، وقوله « أطولكن » نظير ترشيح الاستعارة[٣] ، ولا بأس أن يسمىٰ ترشيح المجاز[٤] ، والمعنى بسط اليد بالعطاء، وقيل قوله «أطولكن» من الطول بمعنى الفضل ، يقال: لفلان على فلان طول أي فضل[٥] ، فاليد على هذين الوجهين بمعنى النعمة ، ويحتمل أن يريد أطولكن يداً بالعطاء ، أي أمدكن ، فحذف قوله بالعطاء للعلم به[٦].

= السبب على المسبب ، والآثار مجاز عن القدرة من إطلاق اسم المسبب على السبب فرجعت العلاقة للسببية .

(١) راجع ٣٠٨ من الأسرار .

(٢) راجع ٣٠٨ أسرار ، ٣٨٢ مطول

(٣) لأن الطول أي الانعام يناسب اليد الأصلية ، والصحيح أنه يلائم النعمة أيضاً فلا يكون ترشيحاً . وجعله من الطول ضد القصر يؤدي إلى خلو الكلام عن الاخبار بكثرة الجود المقصود إلا أن يقال إنه مستعار للاتساع في العطاء وهو ترشيح باعتبار أصله .

(٤) فهو مأخوذ من الطول بالفتح بمعنى الانعام والاعطاء وذلك ملائم لليد الأصلية لأن الانعام إنما يكون بها . والأظهر أن الطول بمعنى الانعام كما يلائم اليد الأصلية يلائم النعمة فلا يكون ترشيحاً .

(٥) فلا ترشيح على هذا ولا تجريد على المختار .

(٦) قال الجاحظ بعد أن ذكر الحديث : فكانت عائشة تقول أنا أطول مكن يداً ؛ فكانت زينب =

وكاليد أيضاً إذا استعملت في القدرة[1] ، لأن أكثر ما يظهر سلطانها في اليد ، وبها يكون البطش والضرب والقطع والأخذ والدفع والوضع والرفع ، وغير ذلك من الأفعال التي تنبيء عن وجوه القدرة ومكانها : وأما اليد في قول النبي صلّى الله عليه وسلم « المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعىٰ بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم»[2]، فهو استعارة، والمعنىٰ أن مثلهم مع كثرتهم في وجوب الاتفاق بينهم مثل اليد الواحدة ، فكما لا يتصور أن يخذل بعض أجزاء اليد بعضاً وأن تختلف بها الجهة في التصرف ، كذلك سبيل المؤمنين في تعاضدهم على المشركين، لأن كلمة التوحيد جامعة لهم .

وكالراوية[3] للمزادة[4] مع كونها للبعير الحامل لها ، لحمله إياها

= بنت جحش ، وذلك أنها كانت امرأة كثيرة الصدقة وكانت صناعاً تصنع بيدها وتبيعه وتتصدق به [٨٥ ج٢ البيان والتبيين].

(١) قال تعالىٰ : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ وقال : ﴿والسموات مطويات بيمينه ﴾ وقال الشاعر : « تلقاها عرابة باليمين »؛ وعبد القاهر يعتبر هذا تمثيلاً ، فالمعنى تمثيل القدرة باليمين لما في أخذ الشيء بها من قوة التمكن . والحق أن كل هذا كناية عن شدة التمكن والاستيلاء وليس مجازاً مرسلاً ولا تمثيلاً . وقيل إن اليد في القدرة مجاز مرسل علاقته الحالية . ومن المثل لهذا المجاز أيضاً قول الشاعر :

وحملت زفرات الضحىٰ فأطقتها ... ومالي بزفرات العشي يدان

وقال الشاعر :

سأشكر عمراً إن تراخت منيتي ... أيادي لم تمنن وإن هي جلت

وقول الشاعر :

إذا القوم مدوا بأيديهم ... إلى المجد مد إليه يداً

(٢) ٣١ ج ٢ البيان ، ٢٠٩ من الأسرار، ٥٩ ج ١ زهر الآداب .

(٣) راجع ٣٤٤ الأسرار، ١٥٥ مفتاح . فالراوية في الأصل اسم للبعير الذي يحمل المزادة ، وفي القاموس : الراوية البعير والبغل والحمار الذي يستقى عليه فاطلاقه على المزادة مجاز .

(٤) المزادة ظرف الماء الذي يستقى به على الدابة التي تسمى راوية . والعلاقة هنا كون البعير حاملاً لها أي مجاوراً لها عند الحمل فالعلاقة المجاورة وهي بمنزلة العلة المادية وهي علاقة أخرى غير المجاورة وهي مطلق السببية =

وكالحفض في البعير[1] مع كونه لمتاع البيت لحمله إياه .

وكالسماء في الغيث[2] ، كقوله : « أصابتنا السماء »، لكونه من جهة المظلة .

وكالاكاف في قول الشاعر :

[إن لنا أحمرة عُجافاً] يأكلن كل ليلة إكافاً

أي علفاً بثمن الاكاف[3].

وهذا الضرب من المجاز يقع على وجوه كثيرة غير ما ذكرنا :

١ ـ منها تسمية الشيء باسم جزئه[4] (أو الجزئية) :

كالعين[5] في الربيئة ، لكون الجارحة المخصوصة هي المقصود في

= هذا والعلاقة قيل إنها تعتبر وصف المنقول عنه كما في الأمثلة وهو التحقيق وقيل تعتبر وصف المنقول إليه ، وقيل إنها تعتبر وصفاً لهما معاً .

(١) ٣٤٤ الأسرار . قال شبيب بن البرصاء :

فلم تذرف العينان حتى تحملت مع الصبح أحفاض لهم وحدوج

[٧٥ المفضليات شرح السندوبي].

(٢) ٣٤٤ الأسرار ، ١٥٥ مفتاح ، ٢٦٨ صناعتين ، ٦٤ الصاحي .

(٣) هو أبو حزابة الوليد بن حنيفة بمدح طلحة الطلحات،والاكاف البرذعة أطلق على العلف لأن ثمنه سبب في الحصول عليه فهو من علاقة السببية ، فهو مجاز على مجاز (الاكاف ، ثم ثمن الأكاف ، ثم العلف)، أريد من الاكاف ثمنه مجازاً مرسلاً علاقته السببية ، وأريد من الاكاف بمعنى الثمن العلف مجازاً مرسلاً علاقته السببية ، ويصح كون المراد من « يأكلن » يفنين مجازاً ، أي أنها من هزالهانتأظهرها فأصبح كالمدية يحذ البرذعة فيفنيها . هذا والأحمرة جمع حمار . والعجاف الهزيلة جمع عجفاء على غير قياس . والشطر الأخير في المفتاح ص ١٥٥.

(٤) المجاز ليس هو نفس التسمية ، بل هو اللفظ الذي كان للجزء وأطلق على الكل بملابسة .

(٥) ٣٤٤ و٣٤٥ الأسرار وقال وقال تأبط شراً : =

كون الرجل ربيئة ، إذ ما عداها لا يغنى شيأً مع فقدها فصارت كأنها الشخص كله[1].

وعليه قوله تعالى : قم الليل إلاّ قليلاً أي صل ، ونحوه لا تقم فيه أبداً ، أي لا تصل ، وقول النبي عليه السلام : من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، أي من صلّى[2].

٢ ـ تسمية الجزء باسم كله أو الكلية :

ومنها عكس ذلك ، نحو « يجعلون أصابعهم في آذانهم »[3] أي

= ويجعل عينيه ربيئة قلبه إلى سلة من حد أخلق صائك
[٢٢ ج ١ حماسة]
والربيئة الشخص الرقيب (الجاسوس) والعين جزء منه ، فالعلاقة الجزئية .

(٣) ويقول الشاعر :
كم بعثنا الجيش حرا را وأرسلنا العيونا

(٢) وقال الله تعالى : ﴿ واركعوا مع الراكعين ﴾.
ومن هذا قول الشاعر :
وكنت إذا كف أتتك عديمة ترجىٰ نوالا من سحابك بلت
وقول الشاعر :
وإن حلفت لا ينقض النأي عهدها فليس لمخضوب البنان يمين
فقوله يمين مجاز مرسل أيضاً علاقته السببية ، أي وفاء ، واليمين سبب في الوفاء وتقول : هؤلاء وجوه البلد ، وقال تعالىٰ : ﴿ كل شيء هالك إلاّ وجهه ﴾ أي ذاته ؛ وقال تعالىٰ : ﴿ فك رقبة ﴾ وقال الشاعر :
وكم علمته نظم القوافي فلما قال قافية هجاني
وهذا وقد اشترطوا في هذه العلاقة :
١ ـ أن يكون الكل مركباً تركيباً حقيقياً فلا يعبر بالأرض عن مجموع الأرض والسماء .
٢ ـ أن يكون لهذا الجزء مزيد اختصاص بالمعنى المقصود بحيث يلزم من انتفاء هذا الجزء انتفاء ذلك الكل عرفا .

(٣) قيل إن هذا من باب نسبة الفعل الذي في نفس الأمر للجزء إلى كله ، ولا يسمىٰ مجازاً ، =

أناملهم . وعليه قولهم : قطعت السارق ، وإنما قطعت يده .

٣ ـ تسمية المسبب باسم السبب أو السببية[١]:

ومنها تسمية المسبب باسم السبب ، كقولهم: رعينا الغيث[٢] ، أي النبات الذي سببه الغيث .

وعليه قوله عزَّ وجل : فمن اعتدىٰ عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدىٰ عليكم ؛ سمي جزاء الاعتداء اعتداء لأنه مسبب عن الاعتداء[٣] .

وقوله تعالىٰ : ونبلو أخباركم ، تجوز بالبلاء عن العرفان لأنه مسبب عنه ، كأنه قيل ونعرف أخباركم .

= مثل ضربت زيداً ومسحت بالمنديل . وفيه تعسف لأن نسبة مطلق الجعل إلى الأصابع كثيراً ما يراد به الكل فلولا الآذان لجرىٰ على الأصل وأما الضرب فلا يخلو من تصوره على الكل فجعل من باب الحقيقة وإلّا لم يخل كلام عن مجاز غالباً . ثم القرينة في المثال هي استحالة دخول الأصابع بتمامها في الآذان عادة ، وفيه مزيد مبالغة ويصح أن يكون التجوز في الإسناد أو على حذف مضاف أي أنملة أصابعهم

أما اسم الكلي إذا استعمل في الجزئي فقيل حقيقة مطلقاً (على أن اللام في تعريف الحقيقة بأنها الكلمة المستعملة فيما وضعت له لام التعليل ولا شك أن اسم الكلي وضع لأجل استعماله في الجزئي) وقيل إن كان استعمال اسم الكلي في الجزئي من حيث اشتماله على الكلي فهو حقيقة وإن كان استعماله فيه لا بالنظر إلى ما ذكر بل من حيث ذاته كان مجازاً .

(١) ١٥٥ مفتاح وص ١٥ من الموازنة . والسببية هي كون المعنى الحقيقي للفظ سبباً للمعنى المجازي المراد .

(٢) قال أبو هلا ل في ٢٦٨ صناعتين : ويطلقون السماء على الغيث . وقال جرير مس قصيدته في هجاء الراعي النميري :

إذا نزل السماء بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غضابا

وراجع القصيدة في ٣٢٤ الأدب الإسلامي لمحمود مصطفىٰ ، وأولها :

أقلّي اللوم عاذل والعتابا ... وقولي أن أصبت لقد أصابا

والبيت « إذا نزل السماء » نفسه في المفضليات ص ١٧٢ ، من قصيدة لمعاوية بن مالك .

(٣) راجع ص ١٣ ما اتفق لفظه للمبرد .

وعليه قول عمرو بن كلثوم [١] :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

الجهل الأول حقيقة، والثاني مجاز[٢] ، عبر به عن مكافأة الجهل .

وكذا قوله تعالىٰ : وجزاء سيئة سيئة مثلها ، تجوز بلفظ السيئة عن الاقتصاص ، لأنه مسبب عنها ، قيل وإن عبر بها عما ساء أي أحزن لم يكن مجازاً ، لأن الاقتصاص محزن في الحقيقة كالجناية .

وكذا قوله تعالىٰ : ومكروا ومكر الله تجوز بلفظ المكر عن عقوبته لأنه سببها ، قيل ويحتمل أن يكون مكر الله حقيقة ، لأن المكر هو التدبير فيما يضر الخصم ، وهذا محقق من الله تعالىٰ ، باستدراجه إياهم بنعمه مع ما أعد لهم من نقمة[٣] .

٤ ـ تسمية السبب باسم المسبب أو المسببية[٤] :

ومنها تسمية السبب باسم المسبب ، كقولهم « أمطرت السماء نباتاً » ؛

---

(١) راجع ١٤ ما اتفق للمبرد ، ١٧٩ الدلائل .

(٢) هذا ولك أن تقول إن الجهل الثاني في حقيقته أيضاً لأنه لم يقل فنجهل مثل جهل الخ بل قال « فوق جهل الجاهلينا ».

(٣) ملاحظة : استعمال الكلي في الجزئي :

قيل حقيقة مطلقاً بناء على أن اللام في قولهم في تعريف الحقيقة « المستعملة فيما وضعت له » للتعليل .

وقيل إن اللام صلة فيكون الكلي المستعمل في الجزئي من حيث خصوصه مجازاً مرسلاً من استعمال العام في الخاص فعلاقته العموم والخصوص وإن استعمل في الجزئي من حيث كون الجزئي فرداً من أفراده كان حقيقة .

(٤) أي أن يكون مدلول اللفظ الحقيقي مسبباً عن المعنى المجازي المراد.

وعليه قولهم « كما تدين تدان[1] أي كما تفعل[2] تجازى ، وكذا لفظ الأسنمة في قوله يصف غيثاً :

أقبـل في المستن من ربابه أسنمة الآبال في سحابه[3]

وكذا تفسير إنزال أزواج الأنعام في قوله تعالىٰ ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ بإنزال الماء على وجه[4] لأنها لا تعيش إلاّ بالنبات، والنبات لا يقوم إلاّ بالماء ؛ وقد أنزل الماء فكأنه أنزلها ، ويؤيده ما ورد أن كل ما في الأرض من السماء ينزله الله تعالىٰ إلى الصخرة ثم يقسمه ؛ قيل وهذا معنى قوله تعالىٰ : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ﴾ ، وقيل معناه « وقضىٰ لكم[5] »، لأن قضاياه وقسمه موصوفة بالنزول من السماء ، حيث كتب في اللوح كل كائن يكون ؛ وقيل خلقها في الجنة ثم أنزلها[6] ، وكذا قوله تعالىٰ ﴿ وينزل لكم من السماء رزقاً ﴾ أي مطراً هو سبب الرزق ؛ وقوله تعالىٰ : ﴿ إنما يأكلون في بطونهم ناراً ﴾، وقولهم

---

(١) وليزيد بن الصعق الكلابي [٥٦ ج١ الكامل]:

واعلم وأيقن أن مالك زائل واعلم بأن كما تدين تدان

وقال الفند الزماني في حرب البسوس [١٥ ج ١ الحماسة].

فلما . صرح الشر فأمسىٰ وهو عريان

ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا

(٢) فأطلق الدين وهو الجزاء على الفعل لأن نفس الفعل سبب في الدين بمعنى الجزاء .

(٣) المستن : المنصب ، من استن الفرس . الرباب : السحاب الأبيض . الآبال : الجمال جمع إبل . أسنمة : جمع سنام أراد أن ذلك السحاب ينبت ما تأكله الابل فتصير شحومها في أسنمتها [٦٨ ج ٢ كامل المبرد].

(٤) أي على رأي .

(٥) فالمجاز على هذا في « أنزل » وعلاقته المسببية ، والقرينة ذكر الأنعام ، وعلى الأول المجاز في « ثمانية أزواج » والعلاقة هي هي والقرينة « أنزل ».

(٦) وعلى هذا فليس في الآية مجاز .

« فلان أكل الدم » أي الدية التي هي مسببة عن الدم[1] قال :

أكـلت دمـاً إن لـم أرعـك بـضـرة
بعيـدة مهـوى القـرط طيبـة النشـر[2]

وقـوله تعـالىٰ : ﴿ فإذا قـرأت القرآن فـاستعذ بـالله ﴾ أي أردت القـراءة بقرينة الفاء مع استفاضة السنـة بتقديم الاستعـاذة. وقولـه تعالى[3]: ﴿ونـادى نـوح ربه﴾، أي أراد بقـرينـة: فقـال رب، وقـولـه تعـالىٰ: ﴿وكم من قـريـة أهلكنـاها﴾ أي أردنـا إهلاكهـا، بقرينـة فجاءهـا بأسنـا، وكذا قـوله تعـالىٰ مـا آمنت قبلهم من قرية أهلكناها، بقرينة «أفهم يؤمنـون» وفيه دلالـة واضحة على الوعيد بالإهلاك إذ لا يقـع الإنكار في « أفهم يؤمنـون » في المجاز إلاَّ بتقـدير ونحن على أن نهلكهم[4].

---

(١) هذا سهو لأن المثال من تسمية المسبب وهو الديـة باسم السبب وهـو الدم وأجـاب بعضهم عن المصنف بأنه يريد أن « أكل » مجازاً مرسلاً لأن الأكل سبب في المراد منه وهو الأخـذ فهو من تسمية السبب باسم المسبب .

(٢) هو لأعرابي تـزوج امرأة فلم تـوافقه فقيـل له أن حمى دمشق سـريعة في مـوت النساء فحملهـا إليها . وقبل هذا البيت :

دمـشـق خـذيـهـا واعـلـمـي أن لـيـلـة ... تـمـر بعـودي نـعشـهـا ليلة الـقـدر

بعيدة مهوى القرط (أي الحلق) : كناية عن طول العنق . النشر : الرائحة الطيبـة . . والبيت في الحماسة [٣٨١ ج ٢].

(٣) ١٥٦ من المفتاح .

(٤) هذا رأي السكاكي في الآية فمعناها عنده : « هؤلاء الذين اقترحوا عليك إنـزال آية من السمـاء أردنا إهلاكهم وكـل من أردنا إهـلاكهم لا يؤمنون فهؤلاء لا يؤمنـون . ويرىٰ علمـاء التفسير أن معنى الآية : لم تؤمن أمة من الأمم التي أعطيناها ما اقتـرحت فأهلكنـاها فهؤلاء لا يؤمنـون لو أعطوا ما اقترحوه ونحن لا نريد إهلاكهم فلا نجيبهم إلى ما اقترحوا .

مـلاحظة :

من مثل المجاز المرسل الذي علاقته السببية قوله تعالى : ﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم ﴾، أي آثار البغضاء ، ومنها :

٥ ـ تسمية الشيء باسم ما كان عليه:[١].

ومنها تسمية الشيء باسم ما كان عليه، كقوله عز وجل: ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ﴾، أي الذين كانوا يتامىٰ إذ لا يتم بعد البلوغ[٢]، وقوله: ﴿ إنه من يأت ربه مجرماً ﴾ سماه مجرماً باعتبار ما كان عليه في الدنيا من الإجرام.

٦ ـ تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه:[٣]

ومنها تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه كقوله تعالى: ﴿ إني أراني أعصر خمراً ﴾[٤]

٧ ـ تسمية الحال باسم محله أو المحلية[٥]:

ومنها تسمية الحال باسم محله، كقوله تعالىٰ « فليدع ناديه » أي أهل ناديه[٦].

٨ ـ تسمية المحل باسم الحال أو الحالية[٧]:

= تمنى رجال ما أحبوا وإنما تمنيت أن أشكو إليها فتسمعا

أي فتجيب.

(١) أي على صفته في الزمان الماضي لكنه ليس عليه الآن. وقيل أن الاطلاق المذكور حقيقي اسْتِصْحَاباً للاطلاق حال وجود المعنى. وقيل بالوقف

(٢) يرى بعضهم أن اليتيم على حقيقته، فالمجاز في « وآتوا » بأن يراد منه لازمه وهو حفظ المال، لعلاقة المسببية. وقيل اليتيم يطلق على البالغ حقيقة استصحاباً للماضي فلا مجاز في الآية.

(٣) أي في الزمان المستقبل تحقيقاً أو ظناً لا احتمالاً.

(٤) أي عنباً فيصير إلى هذه الحال [٦٨ ج ٢ كامل المبرد].

ومثل ذلك: « هدىً للمتقين »، « من قتل قتيلاً فله سلبه » (راجع ٣٦ ج ٣ ابن يعقوب).

ومثل ذلك: يمرض المريض وتضل الضالة.

(٥) أي المكان الذي يحل فيه ذلك الشيء.

(٦) وقيل المجاز في الآية مجاز بالحذف.

ومثل ذلك: « وأحسن ندياً » أي أناساً في ندي، و« اسأل القرية » أي أهلها.

(٧) فيما إذا ذكر لفظ الحال وأريد المحل لما بينهما من الملازمة.

ومنها عكس ذلك ، نحو « وأما الذين أبيضت وجوههم ففي رحمة الله» أي في الجنة[1].

٩ ـ تسمية الشيء باسم آلته أو الآلية[2] :

ومنها تسمية الشيء باسم آلته كقوله تعالىٰ وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ؛ أي بلغة قومه ، وقوله تعالىٰ واجعل لي لسان صدق في الآخرين، أي ذكراً جميلاً وثناء حسناء[3].

(علاقات أخرى للمجاز المرسل) :

وكذا غير ذلك مما بين معنى اللفظ وما هو موضوع له تعلق سوى التشبيه .

قال صاحب المفتاح[4]:

وللتعلق بين الصارف عن فعل الشيء والداعي إلى تركه يحتمل عندي أن يكون المراد بمنعك في قوله تعالىٰ[5] : ﴿ **ما منعك أن لا تسجد إذ**

---

(١) التي تحل فيها الرحمة . وهو مجاز على مجاز :
أطلقت الرحمة بمعنى رقة القلب وأريد منها أثرها من الأنعام والتفضل مجازاً مرسلاً علاقته السببية ثم أريد من ذلك المنعم به وهو النعم مجازاً مرسلاً علاقته السببية أيضاً ثم أريد من ذلك الجنة مجازاً مرسلاً علاقته الحالية .

(٢) أي فيما إذا ذكر اسم الآلة ـ وأريد الأثر الذي ينتج عنه ، فالآلية هي كون الشيء واسطة في إيصال أثر المؤثر إلى المتأثر . فالآلة هي الواسطة بين الفعل وفاعله والسبب ما به وجود الشيء . وقيل الآلة من جملة أفراد السبب لأن بها وجود الشيء .

(٣) راجع ١٨٠ ج ١ الكامل المبرّد . فاللسان اسم لآلة الذكر . وقيل هو من اطلاق المحل على الحال لأن الذكر حال في اللسان . وقال بعض المفسرين « لساناً » أي ولداً صادقاً يجدد ديني ويدعو إليه المتأخرين عني فهو على هذا مجاز مرسل علاقته الجزئية .

(٤) ١٥٦ مفتاح .

(٥) راجع ص ١١٩ الاسكافي ـ درة التنزيل .

أمرتك﴾ دعاك ، ولا غير صلة[1] قرينة المجاز ، وكذا ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن . وقال الراغب رحمه الله : قال بعض المفسرين إن معنى ما منعك ما حماك وجعلك في منعة مني في ترك السجود أي في معاقبة تركه . وقد استبعد ذلك بعضهم بأن قال : لو كان كذلك لم يكن يجيب بأن يقول أنا خير منه ، فإن ذلك ليس بجواب السؤال على ذلك الوجه وإنما هو جواب من قيل له ما منعك أن تسجد .

ويمكن أن يقال في جواب ذلك إن إبليس لما كان أُلزم ما لم يجد سبيلاً إلى الجواب عنه إذا لم يكن له من كالىء يحرسه ويحميه ، عدل عما كان جواباً ، كما يفعل المأخوذ بكظمه في المناظرة ».

انتهى كلامه.

= ملاحظة :

سبق أن ذكرنا أن الانتقال في المجاز من الملزوم إلى اللازم ، وبعض أنواع العلاقة بل أكثرها [كاليتامى ؛ والعنب ، والنادي ، والرحمة ، واللسان] لا يفيد اللزوم ، فلا وجه لجعلها علاقة لأن العلاقة أمر بسببه يحصل الانتقال من المعنى الحقيقي للمجازي لاستلزامه إياه . والجواب أنه ليس معنى اللزوم هنا عدم الانفكاك في الذهن أو الخارج بل تعلق وارتباط ينتقل بسببه من أحدهما إلى الآخر في الجملة وفي بعض الأحيان ، وهذا متحقق في كل أمرين بينهما علاقة وارتباط فجميع أنواع العلاقة على هذا تفيد اللزوم ، وحاصل الجواب أن اللزوم هنا ليس المراد به اللزوم الحقيقي أعني امتناع الانفكاك في الذهن أو الخارج بل المراد به الاتصال ولو في الجملة . ثم هذا تذكرة لما سبق في المقدمة في الكلام على اللزوم .

(١) فالعلاقة عند السكاكي الضدية ، أو نقول إنها علاقة اللزومية إذ التعلق بين الصارف والداعي معناه أنهما مثلاً زمان غالباً .

هذا والآية لها معنيان : معنى حقيقي هو أي سبب منعك من السجود وهذا المعنى قطع فيه النظر عن كلمة « لا » ومعنى مجازي مراد وهو أي سبب دعاك لعدم السجود وهذا هو المعنى المجازي المنظور فيه إلى كلمة « لا »؛ فكلمة « لا » قرينة على أن الآية مراد منها ما دعاك إلى عدم السجود .

وهذا تعسف ، والأولىٰ أن يكون كلام السكاكي معناه هكذا : للتعلق بين الصارف عن فعل =

أقسام للمجاز المرسل:

وقسم الشيخ صاحب المفتاح[1] المجاز المرسل إلى خال عن الفائدة ومفيد:

١ ـ وجعل الخالي عن الفائدة ما استعمل في أعم مما هو موضوع له، كالمرسن في قول العجاج:

وفاحما ومرسنا مسرجا[2]

فإنه[3] مستعمل في الأنف لا بقيد كونه لِمَرْسون[4] مع كونه موضوعاً له بهذا القيد. لا مطلقاً. وكالمشفر في نحو قولنا: فلان غليظ المشافر «إذا قامت قرينة على أن المراد هو الشفة لا غير». وقال[5] سمي هذا الضرب غير مفيد لقيامه مقام أحد المترادفين من نحو ليث وأسد وحبيس ومنع عند المصير إلى المراد[6] منه.

= الشيء (وهو السجود) والداعي إلى تركه (وهو ترك عدم السجود).

ملاحظة:

زاد بعضهم علاقات. اللزومية، والاطلاق والتقيد، والعموم، والخصوص والتعلق الاشتقاقي وهو إطلاق المصدر على اسم الفاعل أو اسم المفعول وبالعكس مثل هو نبل وذكاء، وحجاب مستور أي ساتر، وهم غياث الناس، ومن العلاقات المجاورة مثل: فشككت بالرمح الأصم ثيابه، ليس الكريم على القنا بمحرم ـ أي جسمه وقلبه، ويصح أن تكون علاقته المحلية.

(١) من المفتاح.

(٢) سبق البيت وراجعه في ٢٣ و٤٨ أسرار، ١٥٥ مفتاح، و٢٤ ج ٢ الأمالي.

(٣) أي المرسن (وهو الأنف).

(٤) أي البعير

(٥) ١٥٥ مفتاح.

(٦) فعلاقة هذا المجاز عند السكاكي التقييد

٢ ـ وأراد بالمفيد ما عدا الخالي عن الفائدة والاستعارة كما مر والشيخ عبد القاهر رحمه الله[١]:

١ ـ جعل الخالي عن الفائدة ما استعمل في شيء بقيد، مع كونه موضوعاً لذلك الشيء بقيد آخر، من غير قصد التشبيه[٢]. ومثله ببعض ما مثله الشيخ صاحب المفتاح ونحوه، مصرحاً بأن الشفة والأنف موضوعان للعضوين المخصوصين من الإنسان، فإن قصد التشبيه صار اللفظ استعارة كقولهم في مواضع الذم غليظ المشفر فإنه بمنزلة أن يقال كأن شفته في الغلظ مشفر البعير؛ وعليه قول الفرزدق[٣].

فلو كنت ضبياً عرفت قرابتي ... ولكنّ زنجي غليظ المشافر

أي ولكنك زنجي، كأنه جمل لا يهتدي لشرقي[٤]، وكذا قول الحطيئة يخاطب الزبرقان[٥]

قروا جارك العَيْمَانَ لما جفوته ... وقلص عن برد الشراب مشافره

فإنه وإن عني نفسه بالجار جاز أن يقصد إلى وصف نفسه بنوع من سوء الحال ليزيد في التهكم بالزبرقان، ويؤكد ما قصده، من رميه بإضاعة الضيف

---

(١) راجع ٢٢ و٣٢ و٣٥٢ و٣٥٣ من أسرار البلاغة.

(٢) فعلاقته عنده التقييد ثم الاطلاق.

(٣) البيت في ٢٨٢ ج ١ الكتاب لسيبويه، ٢٧ من الأسرار، والخطاب لأيوب بن عيسى الضبي وكان قد حبس الفرزدق فقال ذلك هجاء له.

(٤) فهو هنا استعارة لا مجاز مرسل، وذلك لقصد التشبيه.

(٥) راجع ٢٧ أسرار البلاغة.

قروا: أضافوا. العمان: العطشان إلى اللبن. قلص: انكمش من تأثير البرودة كناية عن أنه كان لا يجد عنده إلّا الماء.

وإسلامه للضر والبؤس ؛ وكذا قول الآخر(١) :

سـأمنعهـا أو سـوف أجعـل أمــرهـا   إلـى مـلك أظــلافــه لـم تـشــقـق

(١) هو عقفان القيسي أو الأخطل ، والبيت في ص ٢١ من الأسرار، وص ٢٩٣ صناعتين .
يعني بملك غـطفان بن قيس بن عـاصم . الأظـلاف جمـع ظلف وهـو لمـا اجتـر من الحيـوان كالظفر للانسان ويريد بذلك أنه حر لا عبد .

مـلاحظات :

١ ـ نحو « مشفر زيد مجروح » المشفر لغة شفة البعير ؛ ثم أريد هنا مطلق شفة ، فكان المجاز المرسل هنا منقولاً عن المقيد إلى المطلق وكان مجازاً مرسلاً علاقته التقييد ، ثم نقل من مطلق شفة إلى شفة الإنسان فكان مجازاً مـرسلاً بمـرتبتين وكانت عـلاقته التقييـد والاطلاق ، وذلك ما لم يقصد التشبيه وإلاّ كان « المشفـر » استعارة . وهـذا هو رأي عبد القاهر في هذا النوع من المجاز المـرسل ، أمـا السكاكي فيـرى أن المشفر اسم للمقيد وهو شفة البعير فأطلق أي جرد من قيده وهو إضافته للبعيـر واستعمل في شفـة الإنســان من حيث أنها مں أفـراد مطلق شفـة ، فهو عنـده مجاز مـرسل بمـرتبـة وهي التقييد بناء على أن العلاقة وصف المنقول عنه .

٢ ـ بلاغة المجاز المرسل تتلخص فيما يلي :

(أ) يوسع اللغة ويعين على الافتنان في التعبير .

(ب) وكثيراً ما يدعو إليه المعنى كالتعظيم في قولك « رأيت الملك » أي ولي العهد .

(جـ) وقـد يدعـو إليه اللفظ والمعنى جميعـاً كاستعمـال الأذن في الرجـل الكثير الاستمـاع للوشاة ، فلفظ الأذن أخف لفظاً وهو مع ذلك أدق تصويراً للمعنى .

الفهرست




دار العلوم العربية
بيروت - لبنان